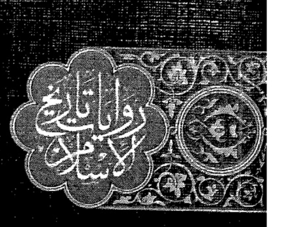


عروس فرغانة

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

عروس فرغانة

روايات
تاريخ الإسلام



عروس فرغانة

تتضمن وصف الدولة العباسية وعاصمتها « سامرا »
في عهد المعتصم بالله ، وطمع الفرس في ارجاء
دولتهم ، ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

أبطال الرواية

★ **المرزبان طهماز**	: من سراة فرغانة
★ **عروس فرغانة**	: جهان بنت طهماز
★ **القهرمانة خيزران**	: مربية جهان
★ **سامان**	: شقيق جهان
★ **ضرغام**	: رئيس حرس المعتصم
★ **الأفشين حيدر**	: قائد جند بغداد
★ **آفتاب**	: والدة ضرغام
★ **احمد بن ابي دؤاد**	: قاضي القضاة
★ **بابك الخرمي**	: صاحب أردبيل

مراجع رواية عروس فرغانة

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ تاريخ : ابن الاثير ـ المسعودي ـ ★ تاريخ التمدن الاسلامي

المقدسي ★ البلدان لليعقوبي

★ معجم ياقوت ★ سير الملوك

★ رحلة ابن بطوطة ★ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار

- ١ -

فذلكة تاريخية

فرغانة مدينة كبيرة على حدود تركستان ، كانت عاصمة الكـــورة المسماة باسمها ، وكان الفرس يسمونها «اخشيكسيت» • وهي تطل على ضفاف نهر جيحون الذي يسميه العرب نهر «الشاش» ويسميه الافرنج نهر «يكسارت» والاتراك يسمونه نهر «سرداريا» •

وبيننا وبين فرغانة بعد شاسع يستغرق قطعه بضعة اشهر : في السير شرقا عبر الشام فالعراق ففارس فخراسان • ثم عبور نهر سيحـــون واختراق بخاري وسمرقند واشروسنة للوصول الى ضفاف جيحون او نهر الشاش ، بعد اجتياز كثير من الجبال والصحارى والسهول والاودية، ومشاهدة أمم شتى فيما بين سيحون وجيحون . تختلـــف لغة وعنصرا ودينا • ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها ، وكثرة قطاع الطرق فيها . وأكثرهم من بدو التركمان وهم اهل خشونة وسطو •

وقد استطاع العرب بعد الاسلام ان يفتحوا الشام والعراق ومصر

وفارس في بضع عشرة سنة ، لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في أواخر القرن الاول للهجرة . وكان فتحها على يد قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ ولم يستعمرها العرب او يقيموا بها الا بعد ذلك بأعوام عديدة ، وكانت تابعة لعامل خراسان في تأدية الجزية والخراج .

وبرغم ما تقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة ، كان المسافر اليها اذ ينتهي بعد تلك الاخطار الى نهر جيحون يسير ما بقي من الطريق حتى مدينة فرغانة على ضفة النهر الشرقية ، فيرى هنالك الاسواق والقصور ذات الاسوار العالية ، ويرى الارباض والبساتين على ضفتي النهر ممتدة في ارض مستوية مساحتها ثلاثة فراسخ . ثم يرى شماليها جبلا وعرا على بعد ميل منها . ويرى وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس «قهندز» شيدت لتعتصم بها حامية المدينة عند الحاجة. ولذلك بنيت بناء متينا بالاحجار الضخمة دون كل ابنية المدينة المتخذة من الطين . وحول القلعة سور له اربعة ابواب . تليه أرباض فسيحة ، ثم سور ثان بأبواب اربعة ايضا . ويتخلل المدينة والارباض مياه جارية وحياض كثيرة . هذا الى ما يحيط بالمدينه كلها من بساتين ملتفة ونهيرات جارية تصلها بالنهر . فكانت هذه المنطقه من أنزه بلاد تركستان او ما وراء النهر .

وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي خليطا من اهل البلاد الاصليين الدين يسمونهم «طاجية» . وجماعات من الفرس والهنود والاتراك وأهل الصين . وكان الفرس أرقاهم جميعا . بل كانوا أرقى المشارقة في ذلك العصر . فكانت لهم الرياسة والسياسة والنفوذ الادبي والديني . لانهم كانوا ينقلون معهم تمدنهم حيثما حلوا . وكانت لغتهم البهلوية (الفارسية القديمة) لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى ، كما هو شأن اللغة الفارسية الحديثة الان . وكانت لغة اهل فرغانه الاصليين

التركية القديمة المعروفة بالشاغطائية • وكانت المجوسية دين اكثر الفرس حتى ذلك الحين •

وحينما فتح العرب فرغانة . كان يحكمها أمراء او ملوك يلقب كل منهم بلقب خاص بهم هو «أخشيد» • كما يلقب ملك الحبشة بالنجاشي، وملك الروم بقيصر ، وملك الفرس بكسرى • وكان الاخاشيد الذين يتولون أجزاء كورة فرغانه كثيرين • فلما دخلت في حوزة المسلمين وألحقوها بامارة خراسان ، لم تبق بها حاجة الى ملوكها المذكورين ، ولم يعترضهم المسلمون في دينهم او عاداتهم او شيء من أحوالهم ، فبقي اكثرهم في البلاد . يتمتعون بالسكينة والعيش الهنيء في ظل المسلمين ، ونزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق ، فتقربوا الى بلاط الخلفاء وخدموهم واعتنقوا الاسلام وتولوا الاعمال . وأشهرهم الاخشيد طغج بن جف صاحب مصر •

- ٢ -

جهان عروس فرغانة

اصبح هل فرغانة في يوم من ايام سنة ٢٢١ للهجرة وهم يتأهبون للاحتفال بالنيروز (رأس السنة) • فأخذوا في اقامة معالم الزينة ، ناصبين الاعلام الملونة فوق منازلهم ، معلقين طاقات الرياحين على ابوابها • ثم تقاطروا الى الاسواق يبتاعون الالبسة الجديدة لهم ولاولادهم ، وأطباق الحلوى وغيرها من المآكل التي تكفي خلال ايام

العيد الستة .

ولو دخلت المنازل لرأيت النساء قد اوقدن النيران لاعداد الاطعمة والحلوى ، وأحمين الحمامات للاغتسال . ولرأيت الجواري مشتغلات بتزيين الاولاد والطبخ وعجن ارغفة العبد . وهي أرغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة ليقتسوها صباح العيد متفائلين بأكلها استبشارا بخصب تلك السنة .

وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة ويتهادون الحبوب الجديدة على أطباق من الفضة ونحوها ، ويترامون بالبيض والثمار .

اما الاسواق فكانت في ذلك الصباح تحفل بالمارة من الرجال والاولاد . هذا يحمل قفة وذاك ينقل سله ، وذاك يسوق حمارا او فرسا ، وكلهم يتسابقون الى المنازل او الى بيت النار ؛ يحملون الهدايا لاولادهم او للموبذان ـ كهان المجوس ـ وقد تصاكت مناكبهم وتصادمت اقدامهم .

ولو انك صعدت الى القلعة الكبرى (القهندر) القائمة وسط المدينه واشرفت من سطحها على أطراف فرغانة ، لرأيتها اشبه بخريطة مرسومة على ورق او صورة ملونه . فحول القلعة مبان متشابهة من الطين كلها من طبقة واحدة ما عدا بناءين : أولهما «بيت النار» وهو الهيكل الذي يتعبد فيه المجوس . وكانت المجوسية لا تزال متغلبة هناك ، ويسمونه «كارشان شاه» . وهو رفيع العماد يظهر بارزا بين ابنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحه رايات من الديباج طول الواحدة منها عشرات من الأذرع ، مرسلة في الفضاء يلاعبها الهواء ، اكثرها خضراء اللون . اما البناء الثاني فهو «بيت المرزبان» . والمرازبة هم حكام المقاطعات في عهد الاكاسرة ـ وحول البيت حديقة فيها من كل فاكهة زوجان .

وهناك وراء سور المدينة امتدت الاغراس والاعنـــاب والرياحين تتخللها مجاري الماء وتتغنى على أفنانها الاطيار .

فبينا اهل المدينة في ذلك الاحتفال اذا بموكب جليل يخترق الاسواق ويشغلهم عما هم فيه لفخامته وغرابته . وهو مؤلف من مركبة كبــيرة اشبه بالغرفة منها بالعربة : فوقها قبة من الفضة المموهة بالذهب قائمة على أعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الازرق ، ويجر المركبة جوادان مجللان بالحرير المزركش ، وقد ركب السائق احدهما وفي يده سوط يسوقهما به . وعود كبير يصوبهما به اذا عاجا عـــن القصد . ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها ، وقد أرخيت الستائر على الراكبين فلا يراهم احد . على انه لم يكن فـــي فرغانة احد من الرجال او النساء لا يعرف صاحب هذه المركبة ، اذ ليس هناك مثلها ، وهي مركبة مرزبان المدينة : اهداها اليه بعض اهل امرأته في بلاد القوقاز . اذ كان فارسي الاصل وامرأته جركسية من القوقاز . وأهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات لحمل الخواتين في خروجهن او أسفارهن ، وفي المركبة كل ما يحتاج اليه الخاتون من الادوات حتى الطعام والشراب ، فكان اهل فرغانة لا تمر بهم هذه المركبة الا تشوقوا لرؤية من فيها لعلمهم انها تقل بنت المرزبان التي يحبونها ويجلون قدرها ويعجبون بجمالها وتعقلها . وكثيرا ما رأوها تمر بهم في مركبتها وقــد ازاحت ستائرها فلا تحتجب عن احد . واذا وقع بصرها على احدهــــم ابتسمت له ابتساما يزيده تهيبا منها .

أما في ذلك اليوم فكانت ابنة المرزبان قد أرخت ستائر المركبة ، وأركض السائق الجوادين ، وأدرك المارة من اسراعه انه يريد الخروج من المدينة . ثم رأوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا يركبهما راكب ، احدهما أدهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف

على العارفين ان الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا ان يروها خارجـة عليه بألبسة الرجال للصيد او السباق ، ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم اصحاب الكلاب والفهود . ولم يعجب اهل فرغانة لرؤيتهم معدات الصيد هذه ، لانهم يعلمون مهارة بنت المرزبان فيه ، ولكنهم عجبـوا لخروجها في ذلك اليوم .

وكان بين المارة رجلان : احدهما تاجر من اهل فرغانة ، والآخر قريب له من اهل «خوقند» اتى لقضاء ايام النيروز عنده . ولم يكن رأى شيئا من ذلك قبلا . فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموكب فقال : «هو موكب الخاتون (جهان) بنت المرزبان (طهماز) . ألم تسمع عنها من قبل ؟»

قال : «سمعت في المرة الماضية عن مرزبان يقيم بهذه المدينة معتزلا وانه ذو ثروة طائلة وليس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هي وحيدته ؟»

قال : «لها اخ أجرد قبيح الخلق والخلق كأنه ليس أخاها» .

قال : «لعل المرزبان من اهل هذه المدينة ؟»

قال : «بل هو غريب عنها جاءها وهو شاب منذ ثلاثين سنة او اربعين، واتخذها وطنا له فرارا من المسلمين العرب . وكان حاكما في بعـض مقاطعات فارس فقاسى اضطهادا ولم يشأ ان يبدل دينه فأتى بأموالـه وأقام هنا » .

فسأله : «وهل هو غني يا صاحبي ؟»

قال : «له ثروة طائلة ، وأكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهـر الشاش ملك له ، فضلا عن المنازل والنقود والجواهر . ولكن مالنا وله؟. دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم لنبتاع خروفا نذبحه لاولادنا» .

وكان رفيقه من محبي الاطلاع على أخبار الناس والاعتراض علـى اعمالهم فلم يصغ لرأي صاحبه بل قال : «قل لي كيف تخرج هـذه

الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟»

فضحك رفيقه وقال : «كأنك تريدها ان تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه ولتطبخ الطبيخ كما تفعل نساؤنا ؟!» انها يا صاحبي سيدة بيت ابيها ، وقد توفيت والدتها منذ أعوام فلم يتزوج المرزبان بعدها اكراما لها ، فهو يحبها حبا جما ويعاملها كأنه عاشق يدلل عشيقته ! »

قال : «لست أعني ان تقيم في البيت للعجن او للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين الذين يتوافدون على بيت ابيها بالهدايا والتحف في يوم العيد » .

فقطع الآخر كلامه قائلا : «دعنا من ذلك يا صديقي وسر بنا الى السوق لنتقي خروفا نشتريه» .

وكان الموكب قد جاوز الرجلين حتى خرج من المدينة الى الأرباض ، ومنها الى البساتين فوقف عند مضرب لبعض أتباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فخفوا لملاقاته . فلما وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الجوادين ليمنعهما من السير اثناء نزول الخاتون . وتقدم احد الخصيان للاخذ بيدها . وكانت قد قربته للطفه وخفة ظله واسمه «مرجان» . فوقف بجانب المركبة لا يتجرأ على ازاحة الستارة . فطال وقوفه دون ان تفتح او تطل الخاتون ، ولكنه سمع حديثا داخل الستارة فتاق الى معرفته ولكن رده التهيب عن الاصغاء لسماعه . وكان رجال الموكب والأجراء في المزرعة واقفين ينتظرون ترجل جهان . فلما ابطأت قلقوا . وكان جوادها الادهم أشد قلقا منهم . فأخذ يفحص الارض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره . ثم صهل كأنه ينادي صاحبته او يستعجلها ، فاذا بستارة المركبة قد أزيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين من عمرها عليها سمات الرزانة ، وقد زادها الانقباض فتنة ،

وكانت ترتدي ثوبا يغطي كل جسمها ، وعلى رأسها وعنقها خمار احمر لا يظهر غير وجهها . فعرف الواقفون انها القهرمانة خيزران مربية جهان ووصيفتها ومستودع اسرارها .

وبعد ان ترجلت القهرمانة ، مدت يدها لاستقبال سيدتهـــا فنزلت «جهان» حتى وقفت بجانب المركبة والابصار شاخصة اليها للتمتع بجمالها الجاذب النادر . وكانت قد لبست ذلك اليوم ثوب الصيد ، وهو يتألف من السراويل والقباء او الدراعة ، وتزملت بما يشبه العباءة من الحرير المزركش، ولفت رأسها بعمامة أشبه بالعصابة تغطي الجبين الى الحاجبين، وأرسلت منها ذؤابتين خلف العنق اتقاء حـر الشمس . وأدارت العباءة حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجهها .

وكانت طويلة القامة جليلة الطلعة ؛ في وجهها هيبة وصحة وجمال ، وعيناها كبيرتان فيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنهـــا بغير السحر ، ولذلك يشعر من يبادلها النظر او الحديث بسلطانها على قلبه وعقله فلا يقوى على التبسط معها في الحديث ، ولا تطاوعه نفسه على مخالفتها في امر كأنها ملكت عليه ارادته فيصبح آلة بيدها . وكان الناس ينتظرون خروجها من منزلها للصيد او النزهة فيقفون في الطرق ليشاهدوا محياها فكانت تبتسم للناظرين فتزيدهم تعلقا بها .

أما في ذلك اليوم فخاب فألهم لانهم رأوا في وجهها قلقا وفي عينيها دمعتين تحاول اخفاءهما بالابتسام .

ولو انك نظرت الى جهان في بيتها وقد ازاحت اللثام حتى ظهر عنقها وأرخت شعرها ، لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرتين حول فمها وفي ذقنها ، وتجلت لك قوتها في اندماج عنقها . وقد تعجب لاول وهلة من اختلاف ملامحها عن ملامح الفارسيين وأبوها منهم . فاذا علمت ان أمها جركسية زال تعجبك وعلمت انها ورثت تلك الملامح عن أمها . كما

ورثت عنها كثيرا من سجايا الجراكسة كالفوة والشجاعة والأنفة وتعود ركوب الخيل والسباق بها والخروج للصيد. على انها اخذت عن ابيها ذكاء الفرس ونعملهم ودقة احساسهم ، فكانت لهذا وذاك نادرة عصرها جمالا وجلالا ، وشغف بها الفرغانيون وسموها «عروس فرغانة» .

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوفا لانتظارها وهم شاخصون بأبصارهم اليها . حيتهم على عجل خوفا من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها : ثم التفتت الى القهرمانه وقالت بصوت موسيقي جميل : «اين الجواد يا أماه ؟» . وكانت تناديها بذلك تلطفا وتحببا لانها ربتها من صغرها وكانت ضنينة بها شفيقة عليها . ولذلك كانت جهان تستودعها اسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها . ولم تبطىء في الخروج من المركبة الا لاشتغالها بالتحدث اليها في شيء أهمها .

فأشارت القهرمانه الى السائس ، فأتى بالجواد يختال تيها كأنه يرقص ، فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم داعبت جبينه بأناملها، وكان على جبينه شعرات بيضاء تمثل اسدا رابضا فسمته لذلك «شير» وهو اسم الاسد بالفارسية . فلما شعر الجواد بأناملها استأنس وأخذ يضرب الارض برجله . ثم التفتت القهرمانة الى الواقفين وقالت : «ان مولاتنا ذاهبة الى الصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام ، وليتبعنا منكم رجلان يحسنان الركض حتى اذا وقع لنا صيد اتيا به» . ثم امتطت جهان جوادها الادهم بأسرع من البرق ، وقدم «فيروز» السائس للقهرمانة خيزران جوادها ، وأعانها على الركوب فركبت وأشارت الى السائس ان يتقهقر ويمشي مع الرجلين الاخرين وأحدهما مرجان ، وساقت جوادها الى جانب جواد سيدتها وسارتا متلازمتين ، وقد تنكبت جهان القوس وأما جعبة النبال فكانت معلقة بالقربوس ، والتمست عرض البر والجوادان يسيران معا على مهل ، والارض سهلة وأكثرها مزروع،

وتبدو في أقصاها الجبال المحيطة بالمدينة .

كانت جهان قد تعودت الذهاب في الشعاب والاودية مع الفهادين وأصحاب الكلاب لاصطياد الغزلان او حمر الوحوش او الوعول . ولكنها في هذا اليوم لم تصطحب احدا من اولئك لرغبتها في الانفراد ، وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج .

فلما أمعنتا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت : «والآن يا سيدتي ألا تكشفين لي عن سبب انقباضك ، وأنت تعلمين اني مستودع أسرارك وأسرار أمك من قبلك ؟»

فتنهدت جهان وقالت : «دعيني يا أماه من هذا الحديث ، انما جئت لاروح عن النفس بالصيد» .

فضحكت القهرمانة وقالت : «وهل تريدين مني ان أصدق انك خرجت للصيد وأنا التي اخترعت هذه الحيلة لنخرج معا ؟ ام تحسبين سرك خافيا علي ؟»

فأرادت مغالطتها فقالت : «أتستغربين انقباضي وأنت ترين ابي مريضا بالنقرس منذ أعوام . وقد سمعت طبيبه يصرح بضعف الأمل في شفائه ؟ انني اذا أصيب ابي بسوء اصبح وحيدة لا اهل لي هنا . ولست أعرف اهل ابي في بلاد فارس ولا اهل أمي في بلاد القوقاز ، ولا ادري مع ذلك كيف ..» . وغصت بريقها .

فقالت القهرمانة : «ان مرض سيدي المرزبان لم يحدث بغتة : وقد كنت تخافين على حياته من قبل ولم يبد عليك مثل هذا الانقباض .. وانما سببه سر انت شديدة الحرص على كتمانه ، ولكنني أعرفه !»

فالتفتت اليها جهان مستغربة وتفرست في عينيها ووجهها كأنها تحاول ان تقرأ ضميرها، فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما تلألأ في عينيها وهي تغالب عواطفها وقالت : «نعم ان سرك غير خاف علي ، وان كنت تحاولين

اخفاءه حياء • وأرى هذا الحياء يبدو على وجهك الان» •

فصعد الدم الى وجنتي جهان فتوردتا وأشرق وجهها وأبرقت عيناها بريقا ينم عما يجيش في قلبها من لواعج الحب • واعتراف العينين حجة صادقة مهما يبالغ صاحبهما في الانكار • فاذا قالت العين قولا وقال اللسان آخر فالصادق هي لا هو . خصوصا من يكون مثل جهان في رقة الاحساس وقوة العاطفة • فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معا. ولكن الضعف النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فأطرقت ، فابتدرتها خيزران قائلة : «لا تعجبي يا سيدتي لاطلاعي على السر . ولست انا وحدي المطلعه عليه فانه متداول بين اهل القصر لا يجهله احد غير ابيك ، ولولا تهيب اهل القصر لنقلوه اليه ولكنهم لا يستطيعون ذلك الا على يدي وأنا لم أفعل» •

فبغتت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح عرف جوادها : «وأخي سامان ؟ هل يعلمه ايضا ؟!»

فابتسمت ابتسامة تشف عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت : «سامان ؟!• ان سامان لا تخفى عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك ذلك مرارا » •

فأدركت جهان انها تريد انتقاد اخلاص اخيها . فقطعت كلامها قائله : «اني اتوسم في اخي سامان شيئا لا يرتاح اليه قلبي ولا أدري ما هو . ولكنني لا أحب العيب فيه فهو اخي الوحيد . وأرى منه انعطافا الي . وان كان بعضه لا يروق لي • على اني لا أحبذ انشغاله بالاسرار حتى ايخيل الي انه جعبة خفايا وغوامض • وكثيرا ما يغيب عن البيت يوما فنبحث عنه في فرغانة بحثا دقيقا فلا نقف له على خبر . ثم يرجع ونسأله عن غيابه فلا يجيب او يجيب جوابا مبهما • وقد أخبرنا بعضهم انه كثير الاختلاء بالموبذ كاهن بيت النار في المدينة . ولا يخفي ما هو عليه هذا

الكاهن من الدهاء والمكر» .

فقالت خيزران : «اظن هذا الموبذ يؤيد طائفة الخرمية الجمعية السرية التي يتزعمها (بابك الخرمي) صاحب الحول والطول ، والذي اصبح خليفة المسلمين يخافه . ولا يبعد ان يكون اخوك سامان احد اعضاء هذه الجمعية ، ولا بأس بذلك فالخرمية يعملون على اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين» .

قالت : «لا أنكر ما في اخي سامان من مواضع الضعف ، ولكنه اخي . وعلى كل حال مالنا وله الان ؟»

فأطرقت القهرمانة وهي نعجب لحسن ظن الفتاة بأخيها ، رغم ما يظهر من قبيح اعماله وما تعتقده هي من سوء قصده ، ولكنها اعرضت عن ذكره .

ورجعت الى ما كانا فيه فقالت : «والآن ألا تبوحين لي بما شغلك ؟»

فأعظمت جهان ان يغلب عليها الضعف الى هذا الحد امام مربيتها ، فتحركت فيها الأنفة وقالت : «لا تستضعفيني يا أماه فقد تكونين واهمة، والا فاذكري لي سبب كدري ان كنت تعلمين» .

فقالت : «ان ضرغام هو السبب !»

فلما سمعت جهان ذلك خفق قلبها وعاد الدم الى وجنتيها وأبرقت عيناها فابتدرتها خيزران قائلة : «لا تنكري يا حبيبتي فعيناك تشهدان بأنك تحبين ضرغاما !»

فسكتت جهان منتظرة ان تسمع من خيزران استحسانا او استهجانا لذلك الحب ، فقالت القهرمانة : «ان ضرغاما شاب جميل وشجاع باسل ، لا مثيل له في فرغانة ولا في غيرها من بلاد فارس» .

فقالت : «فهمت انه شجاع وجميل ثم مادا ؟..»

فهمت خيزران بأن تصرح برأيها ولكنها خافت على جهان فأطرقت

وسكتت • فقالت لها جهان بصوت هادىء وجأش رابط : «صرحي يا أماه ولا تخشي شيئا» •

فقالت : «ليس في العالم أحسن من ضرغام لولا نسبه • فليس في فرغانة من يعرف اصله ونسبه حتى هو لا يعرف من ابوه» •

قالت جهان وهي تتشاغل باصلاح القوس على كتفيها : «وماذا يقول الناس عنه ؟»

قالت : «يقولون انه مثال الشجاعة وكرم الخلق ، عدا جماله وعلو همته وكبر نفسه • لكنهم يتساءلون عن نسبه ، وأنا أذكر أمه عندما اتت الى فرغانة تحمله • وكانت في ابان شبابها جميلة الطلعه • وقد خطبها غير واحد من اهل فرغانة فأبت ان تتزوج وانصرفت الى تربية ابنها فقد كانت على فقرها شديدة العناية به ، ثم سمع سيدي المرزبان بخبرها فدعاها اليه وسألها ما خطبها فتكتمت في بادىء الامر ، ثم ذكرت انها اخذت طفلة من حضن امها في بادية الترك ونشأت في منزل احد النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من اهل تلك البلاد فأعتقها وتزوجها ، ثم توفي قبل ان تضع حملها • فلما وضعته احبت الانقطاع الى تربيته • وقد شك سيدي المرزبان في قولها وأحب ان يجربها فعرض عليها ان يزوجها من احد رجاله فأبت واعتذرت • فازداد شكا في حديثها ، وانزلها بجانب قصره وأمر لها بما تحتاج اليه من اسباب المعيشة، وكانت تحسن الخياطة وتعمل مع خدم القصر حتى اصيبت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت ابيك كما تعلمين • ولما شب ضرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشاب وظهرت فيه سجايا نبيلة. فجعله مولاي المرزبان في جملة أعوانه • وكان يحبه ويجل مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم منذ بضعة أعوام الى هذه البلاد ليجند الرجال من الاتراك والفراعنة والاشروسبيين ، فتطوع ضرغام لخدمته • وكنت قد

لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذي تحاولين الان اخفاءه . ولكنني عجبت لذهابه وغيابه كأنه رأى نفسه أقصر باعا من ان ينالك للتباعـــد بينكما في المقام والنسب» .

وكانت القهرمانة تتكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة . ثم أجابتها قائلة : «انه تطوع للعمل في خدمه المعتصم لعلمه ان الرجال انما تظهر مواهبهم في مثل هذا الوقت . وكان قد تغلب عليه الوهـم الذي اراه متغلبا عليك فرغم انه لا يستحقني ، وأنا اراه يفضلنـــي بدرجات . فالمرء لا يقدر بمزارعه ومنازله وانما بمواهبه ومناقبه . وأنت تشهدين والناس كلهم يشهدون بأنه لا يباري في مواهبه ومناقبه . ولا ريب عندي انه سيبلغ ارقى مراتب الجند فقد سمعنا بأناس من رقيق البلاد ابتاعهم الخليفة ورباهم وجندهم فبلغ بعضهم وبلغوا مراتب القواد . فكيف بضرغام وهو كما تعرفينه وأعرفه ؟» . وكانت تقول ذلك ولسانها يكاد يتلعثم لخفقان قلبها وثورة عواطفها .

فادركت القهرمانة مما سمعت انها عالقة بضرغام ، وهي تعرف ثباتها على رأيها فلم تر ان تعارضها لكنها قالت : «لا شك عندي ان ضرغامـا سينال مرتبة عليا في جند المعتصم ، ولكن عروس فرغانة ارقى مـن ان ينالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها» . قالت ذلك جاده تعني مـا تقول لا على سبيل الاطراء والمجاملة . ولكيلا تترك لجهان وقتا للتفكير والجواب اظهرت انها تعبت من الركوب والتفتت الى ما حولها فوجدت انها على مقربة من تل يشرف على اودية كانت تأتيها جهان للصيد ، فقالت لها : «ألا ترين ان نترجل للاستراحه هنا قليلا ثم نعود الى الركوب اذا شئت . لاني لا أصبر صبرك على هذه المشقة» .

فأجابت جهان بالقبول . وترجلتا فسارع السائس الى الجواديـــن فالتحى بهما ناحية ، وافترش لنا ذنبها على صخرة مبسطة فوق التل قعدتا

عليها واشتغل هو بعلف الجوادين . ثم اشارت جهان الى الخادمين بأن يتوغلا في الاودية يستطلعان حال الصيد هناك .

- ٣ -

كتاب ضرغام

قالت القهرمانة لجهان : «كيف رأيت كلامي يا سيدتي ؟»

قالت : «لا بدع اذا اطريتني وأعجبت بي فاني بمنزلة ابنتك وكل أم بابنتها معجبة حتى تظن الملوك يقتتلون عليها» .

فقالت : «اني لم اقل ما قلته الا واثقة من صحته . وهل هناك شك في ان اعظم ملوك الفرس يطلبون رضاك ؟»

فهزت جهان كتفيها مفكرة مستبعدة وقالت : «ملوك الفرس ؟. وهل للفرس ملوك اليوم ؟» . فاستبشرت القهرمانة بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لانها على ثقة مما تقول فقالت : «لا تهزي كتفيك يا سيدتي . ان للفرس ملوكا عظاما لا يلبثون ان يعيدوا سلطان الأكاسرة . ألا تعرفين مازيار صاحب طبرستان ؟. ألا تعرفين بابك الخرمي صاحب أردبيل ؟ ان كلا من هذين ملك عظيم تخضع له الالوف من الابطال . ولكنه في الوقت نفسه يخضع لعروس فرغانة ، ويضحي بحياته في سبيل رضاها» .

فهزت جهان رأسها مستخفة وقالت وهي تنظر الى جوادها الادهم سارحا يرعى العشب : «دعينا من الملوك ، لا أرب لنا في غير ضرغام . وما لنا وبابك ومازيار وأين نحن من أردبيل وطبرستان ؟»

قالت : «اذا كنت في شك من قولي فاسألي اخاك سلمان عن بابك الخرمي» •

قالت وقد تذكرت : «أظنني سمعته يطري صاحب هذا الاسم، ولكنني لا أثق بأقواله كلها كما تعلمين ، ولم أكترث للامر لان ضرغاما ليس مثله احد عندي ولا رغبة لي في الملوك والامراء» •

فقالت : «اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهـــذا الأفشين صاحب أشروسنة على مقربة منا ، وهو الان قائد جند المسلمين كافة في بغداد ، وعما قليل يأتي لزيارة ابيك ، لان سيدي كتب اليه منذ اشهر يدعوه الى زيارته في عيد النيروز» •

وكانت جهان حتى الساعة لا تبالي ما تقوله خيزران ، فلما سمعت اسم الأفشين اجفلت وتغير وجهها وانقبضت نفسها ، وصدت خيزران عن الكلام بكفها كأنها تقول : «كفي لا تذكري هذا الاسم !»

وأرادت هذه ان تستأنف الحديث فصاحت بها جهان قائلة : «دعيني من ذكر هذا الرجل ، اني لا أتحمل سماع اسمه !• انه سبب كـدري الذي زعمت انك عرفته • فان نفسي انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانه سيقضي بعض ايام عيد النيروز عندنا ، ولو اني استطعت ان اقضي العيد في مكان بعيد لفعلت» •

فاستغربت خيزران كرهها للأفشين وقالت : «وهل اساء اليـــك الافشين في شيء ؟»

قالت : «ما اساء الي ولا كلمني كلمة ، ولكنني منذ رأيته يأتـــي لزيارة ابي ونفسي تعافه وتنكر النظر اليه • ولا أذكر ان شعوري خانني في الحكم على الناس !»

فقالت القهرمانة : «يـــا للعجب !• ألا تعلمين ان الأفشين رئيس ضرغام ، وان غاية ما يبلغه ضرغام من التقدم في جند المسلمين ان يصير

قائدا من قواد الأفشين وتحت رايته» •

فقالت بترفع وهدوء : «كلا يا أماه ، انه لا يعمل تحت رايته بل هو رئيس حرس الخليفة» •

قالت وقد ظهر الاستغراب في محياها : «وهل انت على يقين ممـا تقولين ؟ »

فنظرت اليها وابتسمت وقالت : «نعم ، انا من ذلك على يقين أصح من يقينك برغبة الملوك في طلبي !» • ومدت يدها الى جيبها وقالت : «وقد جاءني كتابه منذ بضعة اشهر يخبرني بذلك وينبئني بقرب قدومه الى فرغانة ، ولكنه الى الان لم يأت» • وآخرجت الكتاب ودفعته اليهـا لتقرأه وهو مكتوب بالبهلوية ، فقرأت فيه :

«من ضرغام في سامرا الى حبيبة قلبه جهان في فُرغانة •

«يا سيدتي • ولا ازال ادعوك سيدتي لانك سيدة العالمين . وأنت ايضا حبيبتي لانك ملكت قلبي وكل جوارحي • تركت فرغانة منذ بضع سنوات ولم أكتب اليك حتى الان لاني لم اكن اهلا لمخاطبتك • وكيف يتجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت المرزبان صاحبة السيادة مالكة الاموال والرقاب • وقد وعدتك يوم الوداع ان أبذل جهدي في طلب العلا ، فاذا بلغت درجة تقربني من مقامك اتيت اليـك والتمست رضاك والا فاني اموت في سبيل طلبك• وقد انتظمت في الجنديه وخضت المعامع باسمك واستقبلت النبال بصدري وهو فيه فوقاني من الأذى • ولما ارتقيت في مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس في قصر الخليفة بادرت الى زف البشرى اليك ، وكأنك تسألينني عن عاقبة ذلك التقدم فانه ان لم يكن لأكتسب به رضاك فلا مأرب لي فيه لاني لا ارى للحياة قيمة ان لم تكن لك ومعك • وقد اخذت أسعى في الشخوص الى فرغانه لأقبل يد سيدي المرزبان وأحظى بمشاهدة حبيبتي جهان ، ولولا بعض

المشكلات التي نخاف عواقبها على الخلافة لجئت اليك منذ اشهر ، على اني ظفرت الان بوسيلة تساعدني على الرحيل . ذلك ان امير المؤمنين بنى سامرا بالقرب من بغداد كما تعلمين لتكون خاصة به ليجعل فيها جنده الاتراك وأنا واحد منهم . وقد اراد ان ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التي نشأت في المملكة الاسلامية من الفرس وغيرهم ، وخسي على هؤلاء الجنود اذا اختلطوا بسكان المدن المجاورة ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى ان يزوجهم جواري تركيات من وراء النهر ، وعيَّن أناسا يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يبتاعون الجواري والاماء ويعودون بهن . وقد اعربت له عن رغبتي في زيارة وطني وطلبت السماح لي بمصاحبة دلك الوفد . فوعدني الخليفة بتحقيق هده الرغبه . فعسى ان آتيك قريبا . وقد عهدت في توصيل كتابي هذا الى رجل من خاصتي . أمي نهديك السلام » .

فلما فرغت القهرمانة من تلاوة الكتاب همت بجهان وضمنها الى صدرها وقبلتها وهي تقول : «بورك فيك وفيه ، انه اهل لك . صدقت ان الرجل بأعماله لا بماله . واذا كان قد اصبح رئيس الحرس بجده وبماله فكيف بعد أعوام والدولة الاسلامية لا تزال حروبها قائمة ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء ؟»

فسرت جهان لموافقة القهرمانة على ما في ذهنها لكنها ما لبثت ان استدركت وقالت : «ان هذا الكتاب جاءني منذ عده اشهر ولم يأت ضرغام ولا عرفت شيئا عنه» .

قالت : «لا تجزعي انه آت . ولكن ...» . واطرقت كأنها تفكر في امر طرأ لها . فقالت جهان : «ولكن ماذا . قولي يا أماه» .

قالت : «ولكن أباك قد لا يرضي بضرغام» .

قالت : «لم أخاطبه في شأنه بعد ، ولكنني أعلم انه يحبه ويجله .

كما انه لم يسعني امرا اردته قط» •

قالت : «أعلم ان سيدي المرزبان يحب ضرغاما ويجله ، ولكن هناك امرا اخر هل فكرت فيه ؟»

قالت : «وما هو ؟»

قالت : «ان ضرغاما مسلم على ما أعلم . فكيف يصح زواجه بك الا اذا اعتنقت الاسلام» •

فقالت : «وما يسعني من ذلك ؟ والاسلام دين الدولة» •

فقالت : «وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟»

قالت : «اذا كانت هذه الديانة تحول بيني وبين ضرغام فاني اتركها• لاني احب ان اكون حيث يكون هو في الدنيا والآخرة» • قالت ذلك واعرورقت عيناها وهي تبتسم •

وأحست القهرمانة ان الحديث طال وتحرج . فأحبت ان تشغل عنه جهان فنهضت وقالت : «مضى قسم من النهار ولم تباشري الصيد . فاركبي فرسك وأنا اتبعك وألهو بما أشاهده من مهارتك في مطاردة الغزلان » •

★ ★ ★

اشارت جهان الى السائس ان يأتي بالجواد والقوس والنبال ؛ ثم نظرت الى الجبال امامها لتختار جهة تركب اليها ، فبصرت بوعل يركض على صخر قريب منها ، ولم تكن تعهد وجود الوعول في تلك الجهة فبغتت وصاحت بالسائس : «فيروز • هات القوس» •

فأسرع اليها بالقوس فأوترتها وسددت السهم ، وأسرت انها اذا اصابت طريدتها كان ذلك فألا بنيلها ضرغام وقرب مجيئه والا فلا •

ونظرت الى الوعل فرأته وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل في الهواء وخيزران تنظر الى الوعل وتخاف ان يفر قبل اطلاق السهم فما لبثت ان رأته سقط ثم انقلب الى شق بين صخرين فصاحت جهان : «وقع وقع .. الي به يا مرجان». فركض ورفيقه والسائس في أثرهما ، وظلت جهان واقفة وقلبها يكـاد يطير من الفرح ، ثم تقدمت خيزران اليها وهي تضحك وتقول : «لقد سرني رمي هذا الوعل ، ليس لانك أصبته فقط ولكنني قبل ان ترميه اضمرت ان يكون فوزك في صيدك هذا رمزا الى فوزك بضرغام» .

فابتسمت جهان وقالت : «وهذا ضميري ايضا .. أتقولين بعد ذلك ان ضرغاما يليق بي ؟»

قالت : «بسطت لك رأيي وأنا الان اكثر رغبـة فيه» . وضحكت تمازحها .

فانبسطت نفس جهان وسرى عنها بعد مكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحا فالتفتت فرأت الرجال يجرون الوعل جرا لثقله فأسرعت اليهم فرأت الوعل ميتا لا حراك به . فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فلما وصلت اليه رآت سهمها لا يزال مغروسا في خاصرته ولاحت منها التفاتة فرأت سهما آخر في ليته فصاحت : «انه مصاب بسهمين وأنا لم اطلق الا سهما واحدا . هو ذا السهم الآخر» .

وأمرت مرجان ان يستخرجه فأخرجه بعد عنف شديد وهو يقول : «ان الوعل مات بهذا السهم» . ودفعه الى جهان فتناولتـه وقلبته بين اناملها فرأت على ريشه كتابة بالعربية وكانت تحسن قراءتها ، ولم تكد تتبين احرفها حتى صاحت : «ضرغام .. ضرغام ! اني اقرأ اسم ضرغام على هذا السهم» . فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضا فقال : «هـو اسم ضرغام» .

فبهتت جهان والتفتت الى خيزران وهي تتجلد خوفا من ظهور بغتتها امام الرجلين ، ثم أمرتهما ان يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه فيـــه ويفعلان به ما شاءا ، فلما ابتعدا قالت : «ما قولك في هذه المصادفة ؟»

قالت : «يظهر ان ضرغاما قريب من هذا المكان وهذا سهمه قد رمي الوعل به فحمل الوعل جرحه مسافة طويلة لان هذه الوعول لا تسرح الا عند ضفاف نهر الشاش على مسافة بعيدة من هذا المكان» •

فأطرقت جهان وهي تحسب نفسها في حلم ثم قالت : «انها مصادفة غريبة !•• على اني اخاف ان تكون قد اخطأنا الظن • ولكن لا •• ان قلبي يحدثني بصدق ظني •• فاذا كنت مصيبة فأين تظنين ضرغاما الان؟»

قالت : «أظنه معسكرا على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ، ولا أعرف ماء في هذه الجهة الا نهر الشاش فلعله معسكر على ضفتـــه الشرقية » •

قالت : «وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟»

قالت : «انها على فرسخ وبعض الفرسخ من هنا • أظنك تريديـــن الذهاب ؟ »

فابتسمت والخجل يعارض ابتسامها ، وحدقت فيخيزران لتستطلع حقيقة غرضها من السؤال ، فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت انها تشاركها شعورها فقالت : «وهل تظنين في ذهابي اليه بأسا ؟»

فأشفقت خيزران على عواطفها وأحبت مجاراتها فقالت : «لو علـــم القوم انك ذاهبة اليه عمدا لتحدثوا بذهابك ، ولكننا اذا لقيناه اتفاقا فلا بأس ، على ان المكان بعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة • هـــل تستطيعين ذلك ؟»

قالت : «لا مشقة علينا ونحن راكبتان • هلمي بنا» • قالت ذلـــك والتفتت الى الرجلين فرأتهما مشتغلين بذبح الوعل بعيدا •

فأدركت خيزران انها تريد استقدامهما فسبقتها الى ذلك وقالت : «ارى ان آتي بخادمك فيروز يسير في ركابك وتأمري الاخر بالذهاب مع بقية الموكب بباب المدينة ينتظرنا مع بقية الخدم هناك» .

فاستحسنت جهان رأيها ، فمشت خيزران الى الرجلين ونادتهما وأومأت الى فيروز ان يأتي فأسرع مهرولا فأمرته بابلاغ رفيقه ان يذهب للانتظار مع بقية الركب ، وبأن يأتي هو بالجوادين ، ويظل في ركابهما ففعل ، وانطلق خلفهما لا يدري الى اين تسيران .

- ٤ -

ضرغام وجهان

ادارت جهان رأس جوادها نحو النهر ومضت وعيناها شائعتان في الافق لعلها ترى حبيبها قادما ، وبجانبها خيزران على جوادها . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، ونسيت جهان لفرط انشغالها انها لم تذق طعاما في ذلك اليوم . وقد يغلب الحب على صاحبه حتى ينسيه وجوده .

وظل الجوادان يسيران بهما في ارض بعضها مزروع وفيه الأجراء الذين يعرفون عروس فرغانة ، كما يعرفون جوادها وخادمها . فكانوا يقفون لها احتراما ويبتسمون اعجابا ، وهي لا تبتسم لتبلبل بالها . وبينما هي غارقة في تفكيرها صهل فرسها وفرس خيزران فانتبهت ونظرت امامها فرأت على مقربة منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل

خيام التركمان ــ وهم يبنونها مستديرة وسقفها قبة ــ ورأت بين الخيام بضعة جياد وغلامين يحلبان فرسين على عادة اهل بادية تركستـــان اذ يغتذون بألبان الخيل كما يتغذى بدو العرب بألبان الابل •

فلما رأتهم جهان ارادت ان تسلك طريقا آخر لا يمر بهم توفـــيرا للوقت • ولكن خيزران حولت شكيمة جوادها نحوهم وأشارت اليها ان تتبعها قائلة : «ارى يا مولاتي ان نسأل هؤلاء القوم عن ضرغام لعلهـم رأوه مارا فيغنينا ذلك عن تكبد المشقة في الوصول الى النهر ؟»

فاستحسنت جهان رأيها وحولت اليهم شكيمة جوادها ايضا • فلما رآهما احد الغلامين فنهض وقد علم من قيافه جهان انها اميرة كبـــيرة وأسرع الى ابيه في احدى الخيام يدعوه الى استقبال الاضياف • فجاء الرجل وهو فلاح شيخ يتوكأ على عكازه ، وما وقع بصره على جهان حتى عرفها • فأمر اولاده بأن يعاونوها على الترجل مبالغة في الحفاوة بها، ولكنها لم تشأ النزول وأثنت على الرجل • ثم التفتت الى خيزران كأنها تحرضها على السؤال ؛ فقالت لها هذه : «انزلي يا سيدتي للاستراحة هنيهة ثم نركب» • فأطاعتها مرغمة واستلم فيروز زمام الجوادين وابتعد بهما عن المكان لئلا يشوشا الموقف بالصهيل مع بقية الخيل •

ولما ترجلتا خاطبهما الشيخ بلطف وسذاجة قائلا : «ألا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحقير» • فخجلت وجلست على جلد افترشوه لها ولرفيقتها • وقبل ان تهم خيزران بالسؤال جاء الغلام يحمل قدحا من الخشب فيه سائل عرفت انه لبن الافراس فاعتذرت بأنها لا تشعر بالجوع • فقال الشيخ يخاطب غلامه : «قدم لها قدحا مـــن القومز ؛ وهو لبن الخيل يخمرونه ويقدمونه شرابا للزائرين كما يقـدم العرب السويق وكما يقدم اهل هذا الزمان الليمونادة او الشاي • ونظر الى جهان وقال : «هذا القومز لا يستدعي جوعا فانه كالماء ويزيـــل

التعب » .

فلم تستطع جهان رده فتناولته فاغتنمت خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة : «ألم يمر بكم أضياف غيرنا في هذا اليوم ؟»

قال : «كلا يا سيدتي . ولذلك سررت بقدومكم . وقد تشرفت بمرور مولاتنا جهان فاذا فاتنا الاضياف فهي خير من الف ضيف» .

فقالت : «وهل يمر بكم المسافرون دائما ؟»

قال : «نعم يا سيدتي لان القادم من أشروسنة او خوكند او بخاري قاصدا الى المشرق لا بد له من ان يمر بنا بعد اجتيازه النهر . ثم يذهب الى فرغانة او الى غيرها . وكثيرا ما تمر بنا قوافل التجار قادمة من الهند او التبت او الصين قاصدة الى بلاد الروم ، او راجعة منها الى بلادها».

فنظرت الى جهان وكلمتها بالفارسية وآكرة تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية اي التركية القديمة ــ وقالت لها : «ألا ترين ان نمكث هنا ريثما يمر ضرغام اذا كان لا بد من مروره ؟ أليس ذلك افضل من ان نقصده هناك وقد نسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فلا نلتقي » .

فلم تجب ولكن ظهر على ملامح وجهها انها رضيت . فقالت لخيزران: «ائذني للرجل في ان يقدم لنا شيئا نأكله» .

فقالت : «وكيف نطلب الطعام بعد ان رفضناه ؟»

قالت : «انا اطلبه بأسلوب معقول . والتفتت الى الرجل وقالت بلغته : «ألا تبيعون حيلا للذبح ؟»

قال : «كلا يا سيدتي لاننا نربي الافراس للبن ولا نذبحها الا متى عجزت وقل لبنها» .

قالت : «واذا اردتم مهرا للذبح كيف تفعلون ؟»

قال : «نترصد قطيعا من الخيل مارا من هنا فنشتري منه ما شئنا».

ثم اشار بيده الى الشرق وقال : «وقد مضت علي برهة وأنا انظر الى هذه الجهة فأرى في الافق البعيد غبارا كثيفا محلقا في الجو . وأتوقع دنوه فلعله غبار قطيع من الخيل قادم الينا فأبتاع منه فرسا او فرسين للذبح . واذا شاءت مولاتنا المكث هنيهة اخرى وتنازلت بـأن تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرسا سمينا» .

فاستحسنت جهان أريحية الرجل وخفة روحه وابتسمت له ، ففهم انها رضيت فأمر احد ابنائه بملاقاة القطيع وتعجيله ، فأسرع الغلام يعـــدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم إتى ببطيخة وضعها بين يدي جهان وقال: «هذه بطيخة من بطيخ بخاري المشهور بحلاوته سنذبحها لمولاتنا في جملة الذبائح ! »

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائـه الكبراء . ولم يفت الرجل ما جال في خاطرها فاستدرك قائلا : «أهداني هذه البطيخة شاب مغرم جاء ليطلب الى احدى بناتي فأتى بهذه البطيخة في جملة الهدايا» .

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها ، فتنهدت وأومأت الى الشيخ ان يحتفظ بالهدية وقالت : «احفظ الهدية لصاحبتها» .

وأراد الشيخ ان يجيبها فسمع صوتا يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعا يعدو وهو يلهث من التعب ويقول : «ان رعاة القطيع لا يبيعون مـــن قطيعهم شيئا» .

ونظرت جهان الى جهة الغبار المتصاعد من قطيع الخيل القادم ، فرأت في مقدمته فارسا على جواد مسرج ، ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتراكض ، وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج الذين يعيشون في براري تركستان على رعاية الخيل والماشية . ورأت الفارس الاول لابسا لباس الجند وبيده راية على رمح لم تنتبه للاسم الذي طرز عليها ولـــو

قرأته لارتعدت فرائصها •

اما الشيخ فأسرع الى الفارس واستوقفه وقال : «ألا تبيعوننا فرسا من هذه الافراس ؟»

فأجاب الفارس بأنفة وعجرفة : «كلا» •

قال : «انا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي تريدونه» •

فأدار رأسه يمنة ويسرة اشارة الى الرفض • ولكن الشيخ عـــاد فسأله : «ولماذا لا تبيعون ؟»

فقال : «لان هذا القطيع لأناس لا يبيعونه» •

فقال : «ومن هؤلاء ؟ أليسوا تجارا» •

اجاب : «كلا» • ثم اومأ الى الراية وقال : «أظنك لا تعرف القراءة ولو عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب» •

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الرايه فقرأت فيها : «الأفشين حيدر ابن كاوس» بأحرف عربية • فتغير لونها ونظرت الى خيزران فرأتها في مثل بغتها • أما الشيخ فأجاب الفارس قائلا : «صدقت اني لا أعرف القراءة • لمن هذه الراية ؟»

قال : «هي للأفشين حيدر بن كاوس قائد جند الخليفة المعتصـــم وصاحب مملكة أشروسنة» •

ولم يكن احد في تركستان يجهل هذا الاسم لان الافشين كان ملكا على اشروسنة قبل دخوله في خدمة المعتصم . فبغت الشيخ وتهيب وقال: «ان مولانا الافشين مقيم ببغداد على ما نعلم» •

قال : «كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ ايام وبعثنا نبتاع الماشية لرجاله» •

فقال : «وأنتم ذاهبون الان بهذا القطيع الى أشروسنة ؟»

قال : «كان مولانا الافشين في أشروسنة ، ولكنه قادم الى فرغانة

يقضي عيد النيروز فيها ، ورجاله معسكرون خارجها على ضفاف الشاش؛ وهذه الخيول لهم . فهل تحتاج الى زيادة ايضاح ؟» . قال ذلك وساق جواده وتبعه الرعاة بالخيول .

فلم يعد الشيخ يجرؤ على السؤال ؛ وخجل من جهان لانه عجز عن القيام بضيافتها . وأخذ يهيىء عبارة يعتذر بها اليها فاذا بها وقفت وأشارت الى خادمها ان يأتي بالجوادين وأسرعت الى الشيخ وقالت : «اني شاكرة حسن صنيعك يا عماه وقد طرأ علي ما يدعـــو الى الاسراع برجوعي . وعسى ان أتمكن من زيارتك في فرصة اخرى» .

فأكبر الشيخ ذلك التلطف وهم بتقبيل يد ابنه المرزبان شكرا على تلطفها وتنازلها ، فاجتذبت يدها منه وأشارت الى القهرمانه فدفعت اليه بضعة دنانير وقالت له : «أعط هذه الدوانق الى الغلام يشتري بها قوسا ونشابا يلهو بهما» . فشكر الشيخ لهما ، وودعناه وركبتا جواديهمـــا فانطلقا بهما وخلفهما فيروز .

وبعد هنيهة التفتت جهان الى خيزران وقالت بعد تنهد يدل على غيظ تكتمه : «والآن ماذا تقولين ؟ هذا الافشين اتى فرغانه ولا شك انه نازل عندنا لزيارة ابي» .

قالت : «وما الذي يهمك من زيارته ؟ و ..»

فقطعت كلامها قائلة : «لا يهمني شيء من امره ولا آكترث له ، ولا جنده يخيفني ، ولكنني أكره مجالسته و ..» . وبلعت ريقها . وتشاغلت عن اتمام الحديث باصلاح عصابتها على رأسها .

ففهمت خيزران تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت : «ان جهان العاقلة الحكيمة لا يخشى عليها من احد . ألا تزالين عازمة على المسير الـــى النهـــر » .

فنظرت اليها جهان شزرا وابتسمت كأنها تستغرب سؤالهـــا ولسان

حالها يقول : «وكيف لا ؟!»

وساقتا الجوادين وهما تنظران الى قطيع الخيل حتى توارى وطريقه غير طريقهما ، وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وأثر الجوع في خيزران . أما جهان فشغلها تلهفها للقيا حبيبها عن كل عاطفة ، وقضت معظم الطريق ساكتة وهواجسها تتعاظم وتتلاطم ، وكلما تصورت لقاءها حبيبها اختلج قلبها ورأت انها ارتكبت شططا ما كانت لتأتيه لولا غلبة الحب على ارادتها . وكثيرا ما يغلب الحب الارادة ويكون الفوز له عليها . وقد تفوز الارادة ولكن الى أجل قريب واذا طالت غلبتها كان الحب ضعيفا سريع الزوال . وقد يكون المحب كبير العقل مدبرا حكيما ويرتكب في سبيل الحب أمورا لا يأتيها غير اهل الطيش . وليس استغراب الناس عمله اكثر من استغرابه هو عمل نفسه لانه يأتي تلك الامور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه ولا يرى له سلطانا على رده ، وذلك لان للعاقل الحكيم قلبا فطر على الحب الشديد ، فاذا هو خالف هوى قلبه تألم ألما لا طاقة له باحتماله وقد يجن او يصعق . وكم من عاشق ذهب ضحية النزاع بين العقل والقلب . فالعاقل اذا أحب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب لها اضطرام ، فاذا كان كبير النفس قوي الجنان جارى عواطفه اعتمادا على عزة نفسه وقوة جنانه فلا يخاف ان يغلب على أمره .

وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ، ولكنها كانت كذلك كبيرة القلب شديدة العواطف ، ألوفة شديدة التعلق بما تألفه . فكيف بها وهي تحب الاليف وقد عاشرته أعواما عدة حتى تمكن حبه من قلبها ؟ وكانت قوية الجنان ثابتة الرأي في حبه وزادها تعلقا به تخوفها من الافشين ونفورها من رؤيته ، فلم تر بأسا من السعي لملاقاة حبيبها خصوصا انها ذاهبة بحجة الصيد .

★ ★ ★

سارت جهان وخيزران حينا وهما تنظران الى الافق والجـــــواداں يدلانهما على الطريق المؤدي الى ضفة النهر ، حتى أطلتا على الماء عن بعد ورأتا الشاطىء فلم تجدا عليه خياما ولا رأتا جندا ماشيــا ولا راكبا . فأوقفت جهان جوادها والتفتت الى القهرمانة وقالت : «هل ترين احدا هنــاك ؟ »

قالت : «كلا يا سيدتي ولكننا على مقربة من الشاطىء . فهلم بنــا اليه لعلنا نرى فيه أثرا يفيدنا» .

فاستأنفتا السير وخلفهما فيروز ، حتى بلغتا الشاطىء بقرب كــوخ تحت شجرة . فرأتا آثار أناس كانوا هناك وانصرفوا من برهة وجيزة . ومن بين هذه الآثار بقية نار لا تزال موقدة . وبقايا طعام وفاكهة وعظام. ثم اذا بصاحب الكوخ قد خرج للقائهما ورحب بهما ظانا انهما نازلتان عنده . وكانت خيزران قد دعت فيروز وأمرته ان يسأل اهل الكوخ عن القوم الذين كانوا هناك ، فتقدم وحيى الرجل وسأله فقال : «هم جند من المسلمين عبروا النهر عند الفجر وأقاموا هنا الى الظهر فتغــــدوا وانصرفوا » .

قال : «وهل عرفت وجهة مسيرهم ؟»

قال : «أظنهم يقصدون الى فرغانة ولعلهم يريدون فضاء النيروز فيهــا » .

فلما سمعت جهان قوله رجحت ان القوم ضرغام ورجاله ، وندمت على مجيئها لاعتقادها ان ضرغاما اذا اتى فرغانة يذهب توا الى دار ابيها ، فرأت ان ترجع اليها لتدركه ، وأشارت الى خيزران ان تحول عنان جوادهـــا وتتبعها قبل ان يدركهما الظلام وهما على بعد ميلين من المدينة . ففعلت وحثتا الجوادين عائدتين الى المكان الذي ينتظرهما الركب فيه ببــاب المدينة .

وكان من في الموكب قد قلقوا لغياب جهان ، وأرسلوا بعضهم للبحث عنها في الجهة التي ذهبت للصيد فيها ، فعاد هؤلاء دون ان يجدوها . فازداد القلق عليها . فلما رأوها مقبلة عرفوها من بعيد بقيافتها ولون فرسها . ثم رحبوا بها وجاءوها بالطعام المهيأ لها ، فأشارت عليهـــا خيزران ان تتناول شيئا منه فأطاعتها وتناولت بعض اللحم والقومـــز والفاكهة على عجل . ولحظت اثناء ذلك ان خادما يكلم القهرمانة همسا وان هذه تغير وجهها . فأدركت ان هناك امرا ذا بال . ونادت القهرمانة ونظرت في عينيها مستفهمة فقالت خيزران : «ان مولاي سامان جاء الى هنا وسأل عنك ، ثم رجع لتوه» .

فقالت : «وماذا قال ؟»

قالت : «لم يقل شيئا» . وتشاغلت بازدراد لقمة كانت تمضغها وكادت تغص بها .

فتفرست جهان في وجه الخادم الذي كان يخاطب خيزران وقالت : «اظنه جاء في شأن ابي . هل عليه بأس ؟»

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لانها كثيرا ما كانت تقرأ أفكار المتكلمين بالنفرس في عيونهم . فأجابتها بقولها : «لا بأس على مولاي بفضل (اورمزد) — اله الخير عند المجوس — لكنه استبطأ عودتك ويريد ان يراك فنحن في يوم النيروز» .

فنهضت جهان وأشارت الى الخدم ان يعدوا المركبة للعودة وقالت : «لم يبعث ابي الي الا وهو يشكو من اشتداد المرض عليه . هيا بنا» .

وكانوا قد أعدوا المركبة فركبتاها معا ، وسار الموكب الى القصر وهي تتوقع ان تجد ضرغاما هناك .

ـ ٥ ـ

في قصر المرزبان

بلغ موكب جهان قصر ابيها عند العشاء ، فرأت الحديقة تتلألأ بما أوقد فيها من المصابيح ، وقد غصت بجماهير الناس وما يحملونه من الهدايا والتحف الى المرزبان كعادتهم في مثل ذلك المهرجان . على انهم في الاعياد السابقة كانت وجوههم تطفح سرورا وبهجة . وكانوا يقرعون طبولهم ويضربون طنابيرهم . أما اليوم فقد اتوا بآلات الطرب لكنهم لم يضربوا عليها نهيبا لما علموه من اشتداد المرض على المرزبان . فرأتهم جهان متفرقين زرافات ووحدانا في طرفات الحديقة وعلى السلم ، وعليهم ألبسة العيد من الخز والديباج ، وكلهم وقوف يتهامسون ويتلفت بعضهم الى بعض وعلامات الاسف بادية على وجوههم . وبباب الحديقة الدواب تحمل التحف من الثياب والاطياب والفاكهه . والخدم يشتغلون بانزالها وحملها الى داخل القصر .

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين وشغلوا بمشاهدتها عما هم فيه . وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعتها ويتوسمون فيها الخير . فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها . وسرى عنهم حين رأوا وجهها ونسوا ما كانوا فيه من القلق كأنهم يحسبون دخولها على ابيها يذهب مرضه ويعافيه .

اما هي فحنت رأسها للسلام تلطفا ، وخيل اليهم انها ابتسمت لفرط ما في محياها من الوداعة والايناس . وكانت خيزران قد نزلت فسبقتها ومشت الى جانبها : والناس يوسعون الطريق ويقفون احتراما حتى دخلت جهان الحديقة ماشية بجلال ورشاقة وصعدت درجات السلم المؤدي

الى ايوان القصر وهي تتفرس في الوجوه خلسة لعلها تــرى ضرغاما ، خائفة ان ترى الافشين • وكان اهل القصر في انتظارها على أحر مــن الجمر فجاءوا لاستقبالها ، ولم تجد اخاها سامان بينهم فظنته عند ابيها في غرفته . فلما لقيت قيّمة القصر سألتها عن ابيها فقالت : «انه في خير، فشكرا لرحمة اورمزد» •

فاطمأنت قليلا ولكنها ظلت سائرة الى غرفة ابيها بين صفوف الجواري والخصيان والكل وقوف اجلالا لها • فمشت في دهليز مفروش بالسجاد حتى اتت غرفة ابيها وقد اشتدت لهفتها لرؤيته وقلبها يخفق خشية عليه• وكان بباب الغرفة حاجب من المماليك الخصيان قد اختص بباب المرزبان، فلما رأى جهان أسرع الى سيده وبشره بقدومها ، ثم عاد ورفع الستر ووسع لها ، فدخلت وهي لا تزال باللباس الذي خرجت به للصيد والعصابة على رأسها ، ولكنها حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقهما وقد زادها القلق والتعب هيبة وجمالا ، فأقبلت على سرير ابيها ووجهها يطفح رونقا وبهاء وعيناها تبرقان ذكاء وفطنة •

وكان المرزبان كهلا لم يتجاوز الستين من عمره ، ولكــــن المرض والضعف جعلاه شيخا هرما ، فابيض شعر لحيته التي تملأ صدره ، وزاد الضعف في غور عينيه وتجاعيد وجهه • ولكن هذا كله لم يقلل شيئا من هيبته ولا من بريق عينيه الذي اشتد حين علم بمجيء ابنته في ابــان الحاجة اليها• وكان قد استلقى على سريره المصنوع من خشب الأبنوس، تحمله اربع قوائم نزل فيها العاج ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وفوقه غطاء من الديباج المزركش بالقصب على نصفه الاعلى الذي يغطي الصدر مطرف من فرو السمور الثمين ، ويداه مرسلتان فوق المطرف وقد حسر عنهما كم القميص فبان هزالهما •

فلما دخلت جهان من الباب ، اتجهت اولا الى صنم مذهب نصب

على عضادة بارزة من الحائط بجانب سرير ابيها وأمامه شمعة مضيئة غير المصباح المعلق بالسقف . فانحنت للصنم خاشعة على عادة المجوس ؛ ثم سارعت الى ابيها فجثت بجانب سريره وأكبت على يده تقبلها . وقد أثر فيها ضعفه ولكنها تجلدت تشجيعا له فابتسمت وعيناها لا تبتسمان ولكنهما تنطقان بأجلى بيان بعظيم احترامها لابيها وشدة حبها له . أما هو فحالما رآها ابتسم والدمع يترقرق في مآقيه ؛ وفتح ذراعيه فعلمت انه يريد تقبيلها فألقت نفسها على صدره فقبلها واستنشق رائحة عنقها فأحست بحرارة نفسه وخشونة شعره فاستأنست بتلك الخشونة لاطمئنانها على صحته لانها كانت تخاف ألا تدركه حيا .

ثم تجلد المرزبان وتحامل على ساعديه حتى اتكأ على الوسادة وأشار اليها ان تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسألته : «كيف ترى نفسك يا سيدي ؟»

قال : «اني بفضل أورمزد اله الخير الحنون في خير ، وكنت أخشى ان يتغلب اهريمان اله الشر فلا اراك ؛ وذلك لشدة ما قاسيته من الالم والضعف . ولكنني شعرت بالراحة منذ علمت برجوعك الى القصر ، وأنت تعلمين انك تعزيتي الوحيدة في هذا العالم . فلا تفارقي القصر لانـي أرتاح لرؤيتك» .

فأرسلت جهان دمعتين دلتا على حنوها وخففتا لوعة ابيها الشيخ المريض وأثرتا في نفسه . وكأنه تصور حال ابنته بعد موته فغلب عليه الحنو فبكى وهو يحاول اخفاء عواطفه رفقا بعواطفها ، فابتسمت هـي وتجلدت ، ولم يفتها ما خالج ذهنه فقالت : «شكرا لأورمزد الشفوق ؛ اني اراك في صحة ، وسأصلي له وأتوسل اليه (وأشارت الى التمثال) ان يعافيك ويدفع عنك المرض ، ولا ريب انه يسمع دعائي» .

فقال : «قد ارسلت اخاك ساسان في طلب الموبذ (الكاهن) فاذا جاء

صلينا معا» .

فأحست جهان براحة لاتكال ابيها على الصلاة . وليس للانسان تعزية في مثل هذه الساعة غير الايمان ، فهو وحده خير تعزية له في الشدائد ، بعد ان يعجز عقله وتغل يده عن درئها . ولولا الايمان لكان حظ الناس من دنياهم التعاسة والشقاء . يدلك على ذلك ان الارض لم تخل من دين . وما من أمة الا وهي تدين بشيء ترجع اليه في رد القوي عن الضعيف ، وتتعزى به في المصائب التي يضيع فيها الاجتهاد وتعجز عنها العقول ، ولا ينجح في دفعها لا مال ولا سلطان ، ولا يفيد فيها جند ولا أعوان . وتقصر عن معالجتها مهارة الاطباء ، وحكمة الفلاسفة وعلوم العلماء . هذه المصائب لا ينجع فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد صحيح في الدين . فالمؤمن يتلقى المصائب بالشكر ، ويستقبل الموت ضاحكا مسرورا . وليس أضر للبشرية ممن يضع الشكوك في أذهان العامة لانها تقتلهم وتذهب بسعادتهم ، وهو نفسه ، مهما يبلغ من شكوكه او انكاره . اذا أصيب بضعف او خاف على حبيب نفدت حيلته في اسعافه لا يرى مندوحة عن الالتجاء الى غير الوسائل المعروفة فيستغيث بقوة لا يعرفها . ويتوسل الى شخص لا يراه ولا يعتقد بوجوده . وقد اختلف الناس في تفاضل الاديان لكنهم أجمعوا على التدين بواحد منها .

فلما رأت جهان اتكال ابيها على الصلاة سكن اضطرابها واطمأن قلبها فقالت : «وهل يأتي الموبذ الليله ؟»

فتنهد وقال : «قد بعثت اخاك في طلبه ، ولكن ما اظنه يأتي به لانه عودني ألا يطابق عمله ما في نفسي» . وكأنه ندم على هذا التعريض فاستدرك وقال : «لا بأس من تأجيل ذلك الى الغد» .

وشعرت جهان بأن أباها غير راض عن اخيها . وكانت قد لحظت شيئا من ذلك من قبل ولم تعلم سببا لهذا الفتور . وكان المرزبان يبالغ

في كتمان ذلك لعلمه بذكاء جهان وسرعة اتتباهها وانها اذا اطلعت على ما في قلبه من امر اخيها يتكدر عيشها • فسكتت وسكت ابوها حينا ، وأخيرا اتتبه هو فقال : «اذهبي يا جهان يا حبيبتي الى غرفتك ، لتبدلي ثيابك وتتناولي عشاءك فاني أشعر براحة وميل الى الرقاد» •

فنهضت وهي تقول : «ألا تحتاج الى شيء اقضيه لك يا أبتي قبل ذهابي ؟ »

قال : «لا أحتاج الى شيء الان، واذا اصبح الصباح وجاء الموبذان علمت شيئا جديدا • اذهبي محفوظة محروسة» •

شغلت جهان بأمر النبأ الذي وعد ابوها بأن يطلعها عليه في اليوم التالي . وتاقت الى معرفته . ولكن تفكيرها لم يهدها الى شيء • وقد سرها على اية حال ان أباها لم يذكر «الافشين» • وودت لو سنحت لها فرصه تذكر فيها ضرغاما لعله يذكره بخير فتطلعه على ميلها اليه • وكان ابوها قد عودها ألا تتحرج امامه من ذكر مثل ذلك • ثم همت بالخروج من حجرة ابيها مؤجلة ذلك حتى يأتي ضرغام لزيارته فتتخذ هذه الزيارة ذريعة للحديث في ذلك الشأن •

وقبل ان تخرج دخل الخادم وقال للمرزبان : «ان سامان بالباب» • فلما سمع المرزبان اسمه انقبضت نفسه ولكنه قال : «يدخل» • فدخل سامان ولا يكاد الناظر اليه يصدق ان جهان أخته ، اذ كانت أمه جارية سندية ماتت وهو في الثامنة من عمره وسافر ابوه على أثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقي هناك فتاة شركسية أعجبه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت له توأمين هما جهان وطفلة اخرى • وماتت الأم والطفلتان صغيرتان فعهد في امرهما الى خيزران ولم يتزوج بعد أمهما لانه كـان يحبها حبا شديدا لفرط جمالها وتعلقها وأحب ابنتيها لشدة مشابهتهما لها• ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت توأم جهان فبقيت هذه

وحدها وتحولت كل محبة ابيها اليها .

ولم يكن فقد تلك الشقيقة بسبب موتها ، ولكنها فقدت بطريقة عجيبة هي ان فرسا اختطفتها . وكان في تركستان جماعة من اللصوص يدربون الخيل على اختطاف الاطفال او الاحمال بأسنانها والفرار بها الى حيث ينتظرونها في مكان بعيد . وبقي اهل فرغانة من ذلك العهد يحذرون خطف اطفالهم بهذه الطريقة .

اما المرزبان فنظر الى سبب ضياع ابنته نظرا آخر ، وتولد البغض في قلبه لسامان من ذلك الحين ، لكنه كتم السبب عن كل انسان !

★ ★ ★

كان سامان قصيرا أجرد ليس في وجهه الا شعرات متفرقة في دقنه . وخداه منبسطان ، ويخامر بياض عينيه حمرة كأنه استيقظ من رقاد ، فضلا عن شدة حوله ، فاذا نظر اليك حسبته ينظر الى السقف او الى الباب ولا يستقر نظره على شيء . وهو يكلمك مطرقا او محولا بصره عنك وأجفانه ترتجف ، وشفتاه ترتعشان كأنه خائف تخرج الالفاظ من بينهما متلاحقة متقطعة . ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الانانية يكره كل احد الا نفسه .

فلما أذن له ابوه في الدخول ، دخل مهرولا ، وعلى رأسه قلنسوة من الخز بلا عمامة ، وقد ارتدى جبة طويلة تغطي ثيابه فكان يتعثر بأردانها، ثم وقف بين يدي ابيه وقال : «ذهبت الى بيت كرشان شاه (هيكل للمجوس بفرغانة) فلم اجد الموبذ هناك ، وقيل لي انه يعود في الصباح فهل أبحث عنه في منزله ؟»

فهز المرزبان رأسه متضجرا وقال : «لقد كان في امكانك ان تبحث

عنه قبل مجيئك، ولكن لا بأس.. غدا نرسل من يأتينا به . اذهب الان».
فرأت جهان في خطاب ابيها له جفاء زادها شكا في ميله اليه . ولم تكن قد سمعته يخاطبه بهذه اللهجة من قبل . اما سامان فقال : «لم اكن أحسبك تريده الليلة ، والا لبحثت عنه حتى رجعت به . هل أذهب للبحث عنه الان ؟»

وكان المرزبان يحدق في وجه ابنه وهو يتكلم : فلما انتهى أدار وجهه عنه وقال : «كلا ، ولكن دعني الان فاني أحتاج الى الراحة !»

فأكب سامان على يدي ابيه يقبلهما ، ثم خرج يتعثر في أذياله ، وظلت جهان واقفة تنظر الى ابيها فرأت في عينيه دمعتين تكادان تنحدران وهو ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال ، وقرأت حول شفتيه معنى دلها على سر في خاطره يحب افشاءه فقعدت على السرير وتناولت يده فشعرت بعرق بارد ورعدة خفيفة فقالت : «هل تريد شيئا يا أبتاه أم أذهب ؟ »

فقال وهو يصلح متكأه : «اذهبي يا حبيبتي .. لا .. لا تذهبي .. لا بل اذهبي واستريحي !»

فقالت : «ما بالك ؟. هل اغضبك اهمال اخي سامان . انه لم يكن يعلم مرادك» .

فهز رأسه وقال : «انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده . وقد دنا وقت الحساب» . قال ذلك واستلقى على الفراش ورفع الغطاء الى كتفيه لينام ، فعلمت انه لا يريد الخوض في الموضوع ، فأصلحت غطاءه وقبلت يده ثم خرجت وذهبت الى غرفتها وهي في شاغل جديد بأخيها ، وكانت خيزران في انتظارها فرحبت بها وسألتها عن ابيها ثم قالت : «ابدلي ثيابك واذهبي الى فراشك» .

فظلت واقفة ولم تجبها فأدركت ان ذهنها مشتغل بضرغام فقالت لها:

«ان الناس قد انصرفوا وأطفئت الانوار في الحديقة والايوان ولم يأت ضرغام ولعله يأتي غدا» .

فاقتنعت وأخذت في تبديل ثيابها بمساعدة خيزران ، ثم ودعتها هذه وانصرفت ، وأرادت جهان ان تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت تقول : «ان مولاي ساسان يطلب ان يكلم مولاتي» .

فسرت جهان بمجيئه لان حديث ابيها معه لم يرق لها ، فدخل وعليه ملامح الاكتئاب والانكسار ، فلما رأته اخذتها الشفقة عليه فرحبت به وابتسمت له وقالت : «لا يسوءك ما صدر من ابينا من اشارات الكدر ، فانت ضيق الصدر لمرضه» .

فقعد مطرقا على وسادة ولم يجب . فجلست الى جانبه ونظرت اليه فرأت دموعه تتساقط على خديه فأثر منظره فيها وغلب حنوها وطيب عنصرها على فراستها وتعقلها وقالت : «ما يبكيك يا اخي ؟»

فرفع بصره اليها وقال وصوته مختنق : «تسألينني عن امري وقد شاهدت بعينيك وسمعت بأذنيك ؟»

قالت : «قلت لك ان ما اتاه ابوك ليس عن غرض بل هو عن مرض، فانه يحبك وليس له ابن سواك ، وأنت حامل اسمه وأنت ..» . فقطع كلامها قائلا : «قد يكون ابي يحبني ، ولكني سيء الطالع . فأنا أبذل جهدي في طاعته ، ولم يكن قد كلفني استدعاء الموبذ ولكنني رأيته يسأل عن خادم يرسله في طلبه ، فتطوعت لخدمته . ولا ارى منه غير الاعراض، ويؤلمني ألا يكون راضيا عني !»

قالت : «انه راض عنك ، او انه سيرضى . كن مطمئنا» .

قال : «انا أعلم انك تحبينني وتسعين في استرضائه لي ، ولكن آخرين يكيدون لي عنده ، وهو لسلامة نيته ينخدع بأقوالهم» . قال ذلك ووقف يهم بالخروج خشية ان يسوءها حديثه ، فأوقفته وقالت : «من

تعني بأولئك الكائدين ؟»

قال : «أعني جماعة تعرفينهم أسروا عقولنا وقلوبنا وأموالنا باسم الدين » •

فأدركت انه يعني الموبذان (الكهان) فقالت : «فهمت ، وأظنك تعمدت الرجوع وحدك الليلة فلم تأت بالموبذ ؟»

فتنحنح وبلع ريقه وقال : «لم أتعمد ولكنني لم اجده في بيت النار فلم أبحث عنه في مكان اخر لان دخول الموبذان الى بيتنا يفسده !»

فقطعت كلامه قائلة : «لا ارى رأيك في هذا لان اولئك الموبذان يصلون لاجلنا فهم بركة لنا ، وليس لنا عزاء الا بهم ، ثم ان آبانا يؤمن بهم ولا ينبغي ان نخالفه» •

فقال : «لا أنكر ان بينهم أناسا صالحين ، ولكن بعضهم طماعون يبغون ان يستولوا على كل شيء • مالنا ولهم الان فانما يهمني ألا يكون ابي ناقما علي» •

فقالت : «اترك هذا لي ، واذهب الى فراشك مطمئنا» •

فخرج مطأطىء الرأس مظهرا الانكسار ، ودخلت هي فراشها حيث عادت الى هواجسها ولم تنمْ تلك الليلة الا قليلا •

- ٦ -

ضرغام وجهان

وبكرت جهان في صباح اليوم فالتفت بمطرفها وذهبت الى ابيها

فرأته جالسا في سريره وهو أحسن حالا منه بالامس ، ففرحت وسألته عن حاله فقال : «شكرا لأورمزد ، لقد نمت ليلتي مرتاحا ، وأشعر اليــوم بنشاط . ألم يبلغك قدوم الافشين الى فرغانة ؟. لقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد» .

فلما سمعت اسم الافشين أجفلت وقالت : «لا أعلم يا سيدي ، ولعله جاء ولم يأت الينا بعد».

فقال : «من لي بمن يبحث عنه ؟»

فقالت : «اذا أمرت ان نبعث في طلبه فعلنا ، ولكنه لو اتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة» .

قال : «صدقت ، وهل ذهب اخوك ليدعو الموبذ اليوم ؟»

قالت : «خرج من الفجر للبحث عنه ، وقد ساءه البارحة انك لــم تكن راضيا عنه» .

فقال : «ننتظر رجوعه . اسقني شربة ماء من يدك» .

فأسرعت مسرورة فأتته بكأس ماء وقدمته اليه فشربه . ثم دخــل الحاجب يقول : «ان ضيفا قادما من العراق يستأذن علي مــــولاي المرزبان » .

فصاح المرزبان : «هذا هو الافشين» . وأظهر ارتياحه لمجيئه ولــم يسأل عمن هو قبل الاذن على جاري العادة فقال : «ليدخل» . وأسفت جهان لوجودها هناك ، ولو استطاعت ان تشق الحائط وتخرج منه لفعلت، ولكنها تجلدت اكراما لابيها فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت لئلا يبدو ذلك عليها .

فأزاح الحاجب الستر فدخل القادم ، فلما أطل أجفلت جهان وبدت الدهشة في وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط ، وتحول امتقاع لونها الى تورد ، لان القادم لم يكن الافشين وانما ضرغام . فلما رآه المرزبان

ابتسم له ورحب به وصاح : «ضرغام ؟. اهلا بولدنا ضرغام . ظننتك صديقنا الافشين . أقادم انت من العراق ؟» . قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «وهل اتى الافشين معك ؟» . قال : «لم يأت معي ولكنني علمت يوم خروجي من العراق انه عازم على المجيء الى أشروسنة ، وأظنه اتـى » .

وكان ضرغام شابا في حوالي الثلاثين من العمر قد كمله الله خلقا وخلقا ربع القامة ممتلىء الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية ،تلوح البسالة والهمة في عينيه ، وتتجلى المروءة وصدق اللهجة حول شفتيه . وعلى رأسه قلنسوة قرمزية حولها عمامة سوداء ، وقد لبس قباء سماوي اللون تمنطق عليه بمنطقة علق عليها سيفا قبضته مذهبة ، وتحت القباء سراويل من الخز الارجواني وفوق القباء جبة سوداء ، وقامته قامة الابطال اذا وقف حسبته جبلا راسخا .

وكان قد دخل على المرزبان غير مقدر ان يلقي جهان هناك ، فلم تكن دهشته أقل من دهشتها .

اما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي عواطفها ، فاذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش اعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتيها او الاشراق في عينيها .وقد نسيت مرض ابيها وأصبح همها ان تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب او انعطاف. فلما رأته يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فأسندت ظهرها الى العضادة وتشاغلت بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة ان يبدو ارتعاشها ، ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لم يكن يعرفن الحجاب يومئذ ولاسيما جهان فقد كانت تستنكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جبنا وضعفا .

ولا تسل عن سرور ضرغام بتلك المصادفة . وساعده في اخفاء

عواطفه السلام على المرزبان فأكب على يديه يقبلهما . فأمر بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة اخرى وأخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام : «قد اسرعت في الزيارة لأكون اول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ، ولم اكن أعلم انك متوعك فأرجو ان تكون احسن حالا» .

فقال المرزبان : «اصبحت مرتاحا اليوم وقد سررت برؤيتـــك وأنت تعلم حبي لك» .

فانحنى ضرغام شاكرا ، وسره عطفه عليه ،ولكن سروره لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى سرور جهان ، فكانت تسمع كلمات ابيها وقلبها يرقص فرحا فأجابه ضرغام : «اني أشكر لسيدي المرزبان التفاته الى ضيفه ، وقد تأكدت فضله علي من قبل وأنا غرس نعمته» .

فخجل المرزبان من ذلك الاطراء وسأله :«أقادم انت توا من العراق؟»

قال : «نعم يا سيدي ،وقد وصلت الى فرغانة مساء امس» .

قال : «وكيف فارقت القوم هناك ؟»

قال : «فارقتهم في شغل شاغل بالمشكلات ، وكل واحد يخـــاف صاحبه ويحذره ، ويستعين عليه بجند من غير جنسه . وانما السبق اليوم للجند التركي» .

فقال : «علمت ان الخليفة الجديد المعتصم بالله ، استعان في تأييد خلافته بأخواله الاتراك فأعانوه ، وفي جملتهم الافشين ملك أشروسنة وأنت » .

فسرت ان قرن المرزبان اسمه باسم الافشين فقال : «ان الافشين عون كبير للخلافة وأما انا فلا أستحق الذكر» .

فقطع المرزبان كلامه قائلا : «ان مستقبلا مجيدا ينتظرك لما أعلمه من بسالتك وعلو همتك . انك لنعم القائد البطل ولا شك انك تقدمت في جند الخليفة» .

قال : «نعم اصبحت بفضل مولاي رئيسا للحرس» •

قال : «رئيس حرس الخليفة ؟» • قال : «نعم يا سيدي» •

فبان السرور على وجه المرزبان والتفت الى جهان كأنه يشركها في اعجابه بذلك التقدم السريع ، فرأى جهان شاخصة الى ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتقفه ببصرها • ولو ادنى المرزبان أذنيه من صدرها لسمع خفقان قلبها • فالتفتت اليه وابتسمت ثم سكتت وعيناها تتكلمان كلاما لم يفهمه وان فهمه ضرغام •

وعاد المرزبان الى الكلام عن الجند فقال : «اذن في العراق الان جند كبير من لاتراك» •

قال : «انهم يزيدون على عشرين الفا ، وفي جملتهم ابناء ملوك فرغانة الاخاشيد وغيرهم» •

فقال : «أظنه رغب في تجنيدهم لان أمه منهم» •

قال : «لا يخلو ان يكون ذلك بعض السبب ، ولكن السبب الاكبر ان دولة المسلمين هذه عربية الاصل كما تعلم . ولما نهض المسلمون للفتح كان الجند كلهم عربا ففتحوا الامصار وأسسوا الدولة وظل معظم الجنود عربا في ايام بني أمية • ثم قام الفرس بنصرة العباسيين وشاركوهم في تأسيس دولتهم ، فاشتد ساعد الفرس وضعف أمر العرب • وما زال الفرس يتوقون الى ايام المأمون الخليفة السابق ، فأصبحوا اهل الدولة وفي ايديهم الحل والعقد • ولا يخفى عليك انهم ما زالوا من اول الاسلام يعملون على رد السلطة الى الاكاسرة» •

فتنهد المرزبان تنهدا عميقا ادرك منه ضرغام انه يتحسر على ضياع دولة الفرس فتجاهل ومضى في حديثه فقال : «فلما افضت الخلافة الى المعتصم ، خاف الفرس ولاسيما انهم قتلوا اخاه الامين وسلموا الدولة الى اخيه وابن اختهم المأمون تمهيدا لردها الى الفرس بعد موته • فلم ير

المعتصم خيرا من ان يستعين عليهم بقوم أشداء لم تذلهم الحضارة فعمد الى تجنيد الاتراك» •

فقال : «وهل يقيم هؤلاء ببغداد ؟»

قال : «كانوا يقيمون بها الى عهد غير بعيد ، ولكن البغداديين ضاقوا بهم لانهم كانوا يؤذون العوام في الشوارع • وربما قتلوا بعضهم في الاسواق ، فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها (سر من رأى) او (سامرا) واختط فيها الخطط واقتطع القطائع • وأفرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . ثم شيدت بها القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه ونسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فاتسع عمرانها» •

فأعجب المرزبان بهذا التدبير فقال : «اذن هي مدينة كبيرة ؟• وهل بقي الاتراك على دينهم ام غيروه ؟»

قال : «لا يخفى على مولاي ان معظمهم يدين بالزرادشتية ولكنهم اصبحوا اليوم مسلمين • ومن اغرب الوسائل التي تذرع بها الخليفه لابقاء الجند قويا كما هو الان انه أبعده عن اهل البلاد ومنع رجاله ان يتزوجوا منهم • ورأى ان يزوجهم ببنات تركيات ابتاعهن من تركستان• وقد ارسل وفدا لابتياع هؤلاء الجواري فاغتنمت انا الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فأتيت الى فرغانه لهذا السبب» •

فقال المرزبان : «لقد سرني قدومك يا ولداه وفرحت برؤيتك ، وكأن أورمزد قد هيأ ذلك حتى اراك قبل •••» • قال ذلك وتغيرت سحنته وبان الانقباض في وجهه لكنه تشاغل بالسعال ومسح شاربيه وعينيه حتى لا يظهر بكاءه • فاختلست جهان اثناء ذلك نظرة الى ضرغام بادلها مثلها . وقد فرحت بتودد ابيها اليه ولكنها تأثرت من يأس ابيها • وهي أرغب في بقائه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها ، ووثقت بأنه لا يمانع في

زواجها منه ، وعزمت على ذكر ذلك له في اول فرصة .

اما المرزبان فأراد ان يشغل ضرغاما عما بدا منه فقال : «وكيف حال امك المسكينة ؟»

قال : «هي في خير والحمد لله ؛ولا تفتر لحظة عن ذكر مولاي وأفضاله علينا ، وتذكر مولاتنا جهان لانها شديدة التعلق بها» .

فرأت جهان سبيلا لمخاطبته فقالت : «مسكينة آفتاب . اني احبها محبة الابنة لوالدتها ، ولم ألق امرأة اطيب قلبا منها . وقد كنت كثيرة الاستئناس بها» .

وهب المرزبان بغته كأن شيئا نبهه فقال : «اين سامان ؟ . هل اتى الموبذ ؟ . ادعوه لي حالا . ان سامان لا يعول عليه» . قال ذلك وهز رأسه هزة كلها معان .

فنهض ضرغام وقال : «انا ذاهب لاستدعائه فاني اعرفه وأعرف مكانه» .

فقال المرزبان : «لا تكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من الخدم والخصيان .. ولو لم يتصد سامان للذهاب بنفسه لكان لنا غنى عنه بواحد منهم» .

فقال : «قد أحسن سامان بتطوعه لتنفيذ امر ابيه بنفسه . واذا أذن مولاي ان أتولى انا ذلك فعلت» .

فقطع المرزبان حديثه قائلا : «كلا لا تذهب انت» .

فقال : «أتأذن لي في ان أبعث اليه بخادمي بل رفيقي وردان . فاني لم آكل اليه امرا الا أنفذه ولو ركب اليه رؤوس الأسنة» . قال ذلك وخرج فنادى : «وردان» . فأتاه رجل في نحو الاربعين من العمر خفيف العضل خفيف اللحية ؛ يظهر من بروز أنفه وبقية ملامحه انه أرمني . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بسامرا منذ عهد قريب وسرعان

ما اكتسب ثقته بما ابداه من علو همته ونشاطه ، فكان ضرغام يعامله معاملة الرفيق فلما وقف بين يديه وعليه عمامة مستديرة وسراويل قصيرة وفروة من جلد الغنم قال له ضرغام : «هل عرفت بيت النار الذي مررنا به مساء امس وعليه الانوار والرايات ؟» . قال : «نعم» .

قال : «اذهب الى هناك واسأل عن الموبذ ، وقل له : (ان المرزبان يريدك في هذه الساعة) . وارجع به معك» . فأشار مطيعا وخرج .

اما جهان فأصبحت متشوقة لتحادث ضرغاما وتشاكيه الغرام ، وكانت تشعر بأن رأسها مملوء بالاخبار التي يلذ لها كشفها له ، على عادة المحب اذا فارق حبيبه فانه لا يمل الكلام مهما يكن موضوعه او مرماه ، فلا عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل .

وكان هو في مثل شوقها ولهفتها . ولكنه كان في حيرة لا يدري كيف يتسنى لهما ذلك . فاذا بالمرزبان ينادي جهان قائلا : «مري (المهتر) ــ قيّم الدار ــ ان ينزل حبيبنا ضرغاما في القصر ، ويعد له ما يحتاج اليه . ومتى فرغ من ذلك يجيء الي فاني أريد ان أختلي به حينا حتى يأتي الموبذ » .

فخرجت لتنفيذ ما أمر به ابوها . وسبقها ضرغام الى قاعة خاصة تعود ان يراها جالسة فيها .

***

حينما خرج وردان من قصر المرزبان رأى الناس يتزاحمون ببابه بأفراسهم وهداياهم وعليهم أثواب العيد وهم ينتظرون الاذن في الدخول ، فلما رأوه خارجا جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وسأله بعضهم عن حال المرزبان فلم يجبهم وظل سائرا حتى جاوز القصر ، فمضى

في الطريق وقد تزاحمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس في شغل شاغل من أمر العيد ، وهم يحملون الفاكهة والحلوى . ويتبادلـــون التهنئة . فلم يكترث لشيء من هذا ، ومشى حتى أطل على بيت النار . والاعلام تخفق على سوره وحوله مقاصير تعد بالعشرات ، يقيم بهـــا السدنة والخدم والقوام ، وقد تزاحم الناس ببابه الذي زين بالريحان. فتظاهر وردان بأنه واحد من عباد النار وفد جاء لأداء فريضة الزيارة . ودخل الى صحن المعبد فرآه مفروشا بالديباج والحرير . تحيط به أروقة مستديرة قد علقت فيها الستائر المطرزة وبعضها مرصعة بالحجـــارة الكريمة •

واتصل من الصحن بباحة المعبد حيث يقيمون الصلاة . فاذا هي بقعه مربعة يقوم وسطها بناء معقود في وسطه فجوه بمثابة الباب يصعد اليها بخمس درجات • وحول الباحة أحواض ملصقه بالجدران آوقدوا فيهـا النيران وأحرقوا البخور فتصاعد دخانها في الفضاء ، وعلى زوايا القبة أجران تصاعد دخانها كما تصاعد من مئات أمثالها فوق السور • وفـي بعض جوانب الباحة الى اليسار وعاء مستدير مملوء بالنفط يتصاعـــد اللهب من فوهة فيه ، وقد اصطف الناس حوله بين جلوس ووقوف وهم يتعبدون او يصلون •

ورأى رجلا واقفا على الدرج ظنه الموبذ . فهم بالذهاب اليـــه فاعترضه رجل على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من منظره انه احد السدنة ، فقال له وردان : «أريد مولانا الموبذ • أليس هذا هو؟» وأشار الى الرجل الواقف على الدرج •

فقال السادن : «كلا ، ان الموبذ مشغول الان» •

قال : «وأين هو ؟»

قال : «مالك وله ؟ اذا شئت الصلاة او البركة فهذه هي النار فـي

الاجران » .

قال : «بل انا أريد الموبذ» .

فحول الرجل وجهه عنه وقال : «انك لن تظفر برؤيته الا بعد الصلاة » .

فاستمهله قائلا : «لا تغضب يا سيدي فاني غريب وقد اتيت من خوكند بالامس وعهدي بكم تكرمون الغرباء» .

فخجل السادن ووقف له وقال : «ألم تأت للصلاة او الاقتباس ؟ امامك النار المقدسة فاقبس منها ما شئت» . قال : «بل انا أريد الموبذ» .

فتقدم السادن وأدنى فاه من أذنه وهمس قائلا : «ان الموبذ في خلوة مع بعض الكبراء في هذه الحجرة التي الى اليمين ، فانتظر خروجه او افعل ما شئت» .

فمد وردان يده الى جيبه وأخرج دنانير دفعها اليه وهو يبتسم وقال: «ألا تأذن لي ان أدنو من الحجرة أصلي بجانبها استئناسا بمولانا الموبذ» .

فتناول السادن الدنانير وقال: «افعل ولكن احذر ان يشعر بك احد» .

فقال : «طبعا» . وهرول الى الحجرة معتزما ان يحتال للدخول على الموبذ ويبلغه امر المرزبان . فلما دنا من الباب رأى الموبذ ومعه رجلان بلباس فاخر . عرف ان احدهما «الافشين» ثم ما كاد يعرف الآخر حتى اضطرب دهشة اذ عرف فيه رجلا في نفسه منه أمر عظيم ، وهو اصبهنذ (نائب) بابك الخرمي .

وأخذ يسائل نفسه عما جاء به من أردبيل في ارمينيا ، وبينها وبين فرغانة سفر طويل ؟. فلما لم يجد جوابا شافيا وقف في مكانه متظاهرا بالصلاة والدعاء ، وأخذ يفكر في سبب هذه الخلوة في بيت نار المجوس بين «الافشين» قائد جند المسلمين ، ونائب بابك الخرمي المجوسي ألد اعداء المسلمين !

وبعد هنيهة تحول الى فرجة تؤدي الى ممر وراء الحجرة به نافذة تشرف على ما في داخلها بحيث يرى الجلوس فيهـــا وهم لا يرونه . فتربص وأخذ يتفرس فيهم فرآهم جالسين على بساط من الديباج . الموبذ بقلنسوته وقبائه الارجواني . والافشين بعمامته حول القلنسوه . والاصبهبذ بالقلنسوة بلا عمامة . وكان عهده بالافشين يلبس الجبـــه السوداء شعار العباسيين ، وطالما رآه يصلي بمسجد سامـــرا . فعجب لارتدائه القباء الارجواني الذي يلبسه كبار المجوس في العيد . ولوجوده مع المصلين في بيت النار . على انه لم يستغرب مجوسيـــة الاصبهبذ . لعلمه بأنه لم يعتنق الاسلام .

وأصاخ بسمعه الى ما يقولون فسمع الموبذ يقول : «سنفوز بعون اورمزد ، ولكن علينا ان نصبر» .

قال الاصبهبذ : «اننا صابرون ، ولن يطول اصطبارنا بشرط» . وسكت فجأة . فقال الافشين : «لا بأس من الصبر وان طال . ولكن ما كان ينبغي لصاحبك ان يغير رأيه فيَّ» .

فقال الاصبهبذ : «انه لم يغير رايه فيك . ولكنه رآك اصلت التقرب من اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين او عربا . وقد ارسلني للاجتماع بك في هذا العيد لأذكرك بعهدك بين يدي الموبذ» .

فضحك الافشين وقال : «ربما ظن صاحبك انني غافل عما نعاهدنا عليه هنا منذ بضع سنين ومعنا المازيار صاحب طبرستان . ولكن هذا هو الموبذ يشهد بأني اقمت بعهدي» .

فأشار الموبذ برأسه ان «نعم» . واستطرد الافشين قائلا : «ان هذه النار تشهد على عهدنا ، فقل لاخي بابك بأنني لا أدخر وسيلة في جمع المال وارساله ، ولا أخطو خطوة في حرب او سلم لدى المعتصـــم الا اقتضيت عليها مالا أرسله الى خزينتنا بأشروسنة . وأما المازيار فانـــه

كذلك مقيم على العهد ؛ ولم يحضر معنا هذا العام لاسباب خاصة . وقد كتب الي يحثني على الثبات ، ويعد بأن يكون هو وطبرستان كلها معنا متى تحركنا . ولا شك انه أشد غيرة منا على التخلص من هذه الدولة وارجاع دولة الفرس» .

فقال الاصبهبذ : «ذلك عهد مولاي بك ، ولكنه رآك أطلت الرضوخ لحكم اليهود كأنك اصبحت واحدا منهم حتى تصديت لحربنا غير مرة» .

فقهقه الافشين وهز رأسه قائلا : «ألمثلي يقال هذا ؟» وهل يخفى قصدي على اخي بابك ؟ ألا يعلم اني اذا خرجت لحربه فانما أفعل ذلك اخفاء لغرضي ؟» انني لن أدع فرصة تسنح دون ان أنتهزها لنقوم جميعا دومه رجل واحد فنال أمنية قصر عن نيلها ابو مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل !» ان هؤلاء افسدوا امرهم بالعجلة ، أما نحن فسنفوز بالتؤدة» .

فالتفت الموبذ الى الاصبهبذ وقال : «صدق الملك . فانه رجل حنكه الدهر . فأبلغ ولدنا بابك ان ينتظر . وليثق بأن أورمزد في عوننا . فقد رأيت فيما يرى النائم ان الفوز قد دنا أجله» .

وكان وردان يسمع الحديث وقد اخذته الدهشة ، وكيف لا وقد بين ان قائد جند الخليفة مجوسي يمالىء اعداء المسلمين على الايقاع بالدولة عند سنوح الفرصة . على انه اغتبط بأنه حصل على سلاح ماض يستعمله عند الحاجة . ثم رأى الموبذ يتحفز للنهوض ، فنهض الافشين ورفيقه وتلثما تخفيا . فغادر مكمنه ، ثم وقف في صحن الهيكل ليلتقي بالموبذ عند خروجه .

وكان الناس في شغل شاغل بعبادتهم ؛ فأومأ اليهم السادن ان الموبذ خارج ، فتهيأوا للتبرك بطلعته . ووقف وردان بينهم يقلد حركاتهم . ثم ظهر الموبذ يخطر بثوب يبهر البصر بألوانه وتطريزه ، وفي عنقه عقد من

الجوهر ، وفي شماله صولجان قبضته مذهبة . وفي يمينه عصا يضرب بها الارض مختالا ، والناس يطأطئون رؤوسهم اجلالا وتعظيما له •

فلما اقترب من وردان : سارع هذا اليه وأكب على يده يقبلها وقال: «ان مولانا المرزبان يدعوك اليه الساعة لأمر ذي بال» •

فقال : «هل اشتد المرض عليه ؟»

قال : «لا أدري ، ولكنه ألح علي ان ارجو منك ان تزوره الان ، وأمرني ألا اعود الا بك» • قال : «انتظرني خارجا لأذهب معك» •

فخرج وردان محاذرا ان يراه الافشين لئلا يدرك انه اطلع على شيء من سره • ولما صار بالباب رأى مركبة شد اليها فرسان عليهما العـدة المذهبة فعلم انها معدة للافشين . ثم خرج الموبذ فركبها والافشين الى جانبه وهو ملثم ، وأشار الى وردان فركب احد الفرسين ، ومضوا الى قصر المرزبان •

- ٧ -

اجتماع الحبيبين

تركنا ضرغاما في انتظار جهان بغرفتها وأهل القصر لا يرون بأسا من اجتماعهما ، لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم ، ولأن جهان لا تحتجب عن الرجال ، جلس ضرغام على كرسي في بعض جوانب الغرفة ينتظر حبيبته وهو على مثل الجمر وقد أهمه ما شاهده من مرض ابيهـا وتشاءم من ذلك ، ولكن شوقه لجهان وشدة رغبته في مقابلتها أنسياه

كل شاغل •

ثم سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم «المهتر» وتوصيه بما أمر به ابوها ، فخفق قلبه ، ثم دخلت فلما اقبلت عليه خف للقائها وكلاهما يتسم وقلبه يضحك ، وقد نسيا الدنيا ومصائبها كأنهما انتقلا من عالم الشقاء الى عالم السعادة والهناء •

واذا أعجز الفلاسفة تمثيل الفردوس ، فان اقرب مثل لحال المقيمين به ، حال حبيبين تصافيا وصفا لهما الزمان وخلا الجو ، فاجتمعا وطفقا يتشاكيان لا يزعجهما رقيب ، ولا يخامر قلبيهما شك او غيرة • تلك هي الجنة لولا ما ينتابها من القصر ، او يعرض لاصحابها من طوارق الحدثان •

فلما رأت جهان حبيبها واقفا لاستقبالها هشت له ومدت يدها لمصافحته ، فمد يده وقبض على كفها وقلبه يضحك وعيناه تبرقان • واذا كان ، وهو الشجاع الباسل الذي لا يهاب مواقف القتال ، قد ارتعد واضطرب • فكيف يكون شأنها ، وهي مهما تبلغ من رباطة الجأش والتعقل لا تخرج عن طبيعة المرأة الحساسة ؟

وبدأ ضرغام الكلام فقال : «لقد أطلت الغيبة عليك يا سيدتي» •

فنزعت يدها من يده ونظرت في عينيه نظرة المحب العاتب وقالت : «لا تقل سيدتي بل •••» • وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي تدعوه اليه ، فقعد كل منهما على كرسي ، وأدرك هو مرادها فقال : «كيف لا ادعوك سيدتي وأنت جهان عروس فرغانة وبنت المرزبان ، وأنا ضرغام اليتيم ابن آفتاب الارملة المسكينة ؟»

فقطعت كلامه قائلة : «بل انت سيدي ومولاي • ليس لانك رئيس حرس الملك او قائد جند الخليفة ، ولكن لانك شهم نبيل باسل • بل ان هذا ايضا لا يزيدك رفعة في عيني !• اني أشعر بشيء آخر يعجزني

التعبير عنه . أشعر بسلطة لك علي . اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينة بائسة !» . قالت ذلك وتوردت وجنتاها وغلب الحياء عليها . فعلم انها تعني الحب وان الحياء يمنعها من التصريح فقال : «ان العامل الذي تحسبين ضرغاما المسكين اصبح به سيدا قد جعل الاميرة جهان معبودة فأنا عبدها الخاضع المطيع» .

فقالت : «قلت لك اني عاجزة عن اداء ما في خاطري او بيـــان اسبابه ، وانما أعلم ان منزلتك عندي لا تعلوها منزلة احد على وجه هذه البسيطة . ويهمني الان ألا نضيع الوقت سدى اذ اخشى ان يأتي الموبذ فيدعوني ابي اليه» .

ولما ذكرت أباها تذكرت حاله فتنهدت ثم استدركت فقالت : « ان وقتنا ثمين يا حبيبي . نعم يا حبيبي ، سامحني اذا دعوتك بهذا اللقب قبل ان تدعوني انت به . آه من سلطان الحب !»

فقال وقد هاجت أشجانه : «لا يحق لاحد ان يبدأ بهذا التصريـح سواك ، وقد فعلت حتى يكون لك فضل المتقدم . وهل أجسر انا ان ادعوك به قبل ان اسمعه من فيك ؟. فأحمد الله على ذلك . وحق لي الان ان أسميك حبيبتي .. آه ما اشهى هذا اللفظ في فمي ، ومـــا أخفه على قلبي !. لطالما كررته في خلواتي ، وكم تمنيت ان اسمعه من فيك . وقد سمعته . فهل في العالم رجل أسعد مني ؟!»

فأطرقت وهو لا يحول نظره عنها وكأنه يهم بأن يضمها بجفنيه تهيبا من ان يضمها بذراعيه ، فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام في محياها اختلج قلبه في صدره وتوهم انها ستخطف من بين يديه فقال : «ما بالك مطرقة يا حبيبتي ؟»

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت : «لا تذهب بك المخاوف بعيدا . اني لم أسمك بهذا الاسم وأنا اخاف احدا

او اخشى بأسا ، ولاسيما بعد ان آنست من ابي ما آنسته من الارتياح اليك والتعلق بك . ولولا مرضه . آه لولا مرضه ..» . وسكتت .

فقال : «ارجو ان يشفى قريبا» . وسكت وعيناه تتفرسان في عينيها، وكل منهما يقرأ فكر صاحبه ، ولعلها قرأت اكثر مما قرأ هو فقالت : «ضرغام . لا ينبغي ان يغلب الضعف على جهان حتى تخفي احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك في شيء من امرها . لقد تعاشرنا أعواما وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما في الارض قوة تستطيع التفريق بيننا ، وأراني غير قادرة على الاستقلال بفكري او حياتي عنك . فأنا أشعر بأنك مني وأنا منك . فاذا فكرت في شيء رأيت فكري يمر على تذكارات انت قوامها ، واذا تخيلت امرا كان خيالك نصب عيني يحول بيني وبينه ، ولا ترتسم في عقلي صورة الا وفيها شيء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع البشر ان يفصلوا بيننا ؟. واذا استطاعوا التفريق بين هذين الثوبين الباليين فانهم أعجز من ان يفصلوا بين روحينا وفكرينا . ولكننا مقبلون على امر عظيم . فاذا تجاوزناه ..» . وسكتت وحولت وجهها عنه خشية ان يبدو له ما يتردد في مآقيها .

أما هو فأسكره تعبيرها ومرآها ، على انه لم يفهم مرادها فقال : «وما الذي يخيفك ؟. لا أعهدك تخافين . ولك من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين . وهذه روحي بين يديك فارمي بها من تشائين» .

قالت : «سلمت روحك يا ضرغام . اني لا اخاف شيئا ، اذ ليس في الارض قوة تستطيع ان تبعدني عنك . وكنت أحاذر ان اجد من ابي تغيرا او فتورا ، فذهب حذري اليوم . ولكنه مريض ، فعساه ان يشفى قريبا» .

قال : «يشفى باذن الله . وهل تخافين شيئا اخر ؟»

قالت : «أتوقع أمورا كثيرة تخيف غيري ، ولكنني لا اخافها لاني

أعدها أعراضا وأنت الجوهر ، فاذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها
ـ اعذرني على هذا التصريح وخاطبني بمثله فاني لا احب التكتم
والتردد ! »

فقال بلهفة وعزم ثابت : «تريدين ان أصرح بأني احبك ، او بأني اترك الدنيا لاجلك ؟ ان هذا لا حاجة بي الى ذكره ، والظمآن لا يطلب منه الاعتراف بحاجته الى الماء ، والتعس لا يسأل هل يتمنى السعاده . وآنا بغيرك ظمآن بلا ماء ، وجسم بلا روح . وأنت سعادتي وحياتي وأنت كل شيء ! »

فأبرقت عيناها وسرى عنها وقالت : «هذا كل ما أبغيه . اني اسمع صوت سامان في الدار . وربما دخل علينا فيقطع حديثنا . فنحن على هذا العهد وعند ابلال ابي سأفاتحه في هذا الشأن ثم اخبرك بما يكون» .

قالت ذلك وتحفزت للوقوف ، فاذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها انقباض ولهفة ، فنهضت جهان لملاقاتها فابتدرتها خيزران قائله : « ان سامان داخل على مولاي المرزبان» .

قالت : «وهل اتى الموبذ معه ؟» . قالت : «كلا» .

فهزت راسها وحرقت اسنانها ثم قالت لها وهي تشير الى ضرغام : «هل رأيت ضرغاما ؟»

قالت وقد علاها الخجل : «لم أره يا سيدتي . اعذريني لدخولي بهذه اللهفة فقد شغلت بأمر سامان لعلمي ان أباك يستاء من دخوله عليه وقد أوصى بألا يدخل عليه احد» . وتحولت الى ضرغام فحيته باحترام وهمت بتقبيل يده .

فرد التحية وابتسم لها ، وكان يستأنس بها لعلمه بحبها لجهان ، وقال: «مالي اراكم تخافون دخول سامان على ابيه ؟»

قالت جهان : «لان ابي تكدر منه امس لاهماله المجيء بالموبذ اليه» .

قالت ذلك وخرجت وهي تقول : «سأذهب الى ابي ثم اعود» .

لبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى اتت غرفة ابيها ، فرأت سامان واقفا بالباب والحاجب يحول بينه وبين الدخول وهو يجادلـــه مغضبا ؛ فقالت : «ما بالك يا اخي ؟»

قال : «ان هذا الرجل يمنعني من الدخول على ابي» .

قالت : «لا تغضب فان أبانا في فراشه ، وقد صرفني وأدخل المهتر ليكلمه في بعض الشؤون . هل رأيت الموبذ ؟»

قال : «لا . لم اجده» .

قالت : «ألا تعلم ان رجوعك وحدك يغضب أبانا ؟»

وبينما هما في ذلك سمعا المرزبان ينادي من الداخل : «لا تدخلوا على سامان . ادخلي يا جهان» .

فالتفتت الى اخيها وقالت له هامسة : «اذهب يا اخي الى الايوان ؛ ولا تكدر أبانا ، وسأعود اليك حالا » . فأطاع وانصرف . ودخلت هي فوجدت القيّم جاثيا بين يدي ابيها وأمامه اوراق ودفاتر وقلم ودواة ، ورأت أباها جالسا في السرير وقد تغير وجهه وبدا الجد في عينيه ، فلما دخلت رفع بصره اليها وابتسم ؛ فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت : «وكيف انت الان يا أبتاه ؟ عسى ان تكون بخير ؟»

فضمها اليه وقبلها وأطال معانقتها ؛ وأحست بدمعة حارة سقطت على عنقها فارتجفت ونظرت في وجهه فرأت الدمع في عينيه ، فأثر منظره فيها، وكأنه خاف ان تنزعج فقال وهو يتكلف الابتسام : «انني في خير . لا تخافي . سأعمل كل شيء في سبيل راحتك . اجلسي» . وأشار الـــى القيّم فخرج وأغلق الباب ، فأعادت نظرها الى ما بين يدي ابيها مـــن الاوراق والدفاتر ولم تستحسن ان تسأله عنها .

أما هو فتثاءب وأشار اليها ان تساعده على التوســـــد فأعانته ،

فاستلقى واتكأ على الوسادة وقال : «علمت ان اخاك سامان عاد هذه المرة ايضا وحده ، فانه لا يرى في مجيء الموبذ نفعا له» •

فقالت : «لقد ارسل ضرغام خادمه ليأتي بالموبـــذ ، ولا يلبث ان يجيء ، فاطمئن» •

وقد ذكرت ضرغاما عمدا لترى ما يبدو من ابيها ، فقال : «ان ضرغاما جل كريم النفس ، وقد سررت بلقائه وهو جدير بأن يكون اخا لك لا سامان الشرير» •

فسرها ثناؤه على حبيبها ، وهمت بأن تفاتحه في شأنه واذا بالحاجب دخل يقول : «الموبذ بالباب ومعه الافشين» •

فلما سمع اسم الافشين أشرق وجهه وبغت وقال: «والافشين ايضا؟»

قال : «نعم يا سيدي» •

أما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب سرورها كآبة ، ووقفت كأنها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر امر ابيها فقال لها : «لا بأس من بقائك هنا اذا شئت ، ولك الخيار» •

قالت : «اتأذن لي في الخروج» •

قال : «اخرجي واطمئني» • فخرجت من باب سري في ناحية مـــن الغرفة ، والتفت المرزبان الى الحاجب وقال : «يدخل الموبذ والافشين» •

فدخل الموبذ والافشين وراءه ، وتوجه الموبذ اولا الى الصنم فوقف امامه وانحنى متمتما ، وفعل الافشين فعله •

فأشار المرزبان اليهما فجلسا ، ثم رحب بهما ووجه كلامه الـــــى الافشين قائلا : «لقد ابطأت علي حتى اشتد شوقي اليك» •

فقال وهو يحك ذقنه وقد شاب معظمها لانه كان في نحو ســـن المرزبان : «كان قد طرأ علي ما عاقني فلم اصل الى فرغانة الا اليوم • كيف انت ؟»

قال : «كما تراني • وقد جئت في ابان الحاجة اليك» • ثم التفت الى الموبذ وقال : «ارسلت في طلبك غير مرة فلم تأت» •

قال : «لم يأتني احد قبل الان» •

قال : «ارسلت اليك بني سامان امس واليوم فلم يجدك في كارشان شاه » •

فاستغرب الموبذ كلامه وقال : «اني لم أفارق المعبد منذ ثلاثة ايام لمناسبة العيد وتقاطر الناس الى فرغانة للتبرك وايفاء النذور • وكيف تدعوني ولا اجيب ؟ وكيف يسأل عني في المعبد ولا أعلم • لا شك ان ولدنا سامان لم يسأل عني او لعله سأل غير العارفين» •

فحرق المرزبان اسنانه غيظا وقال : «بل هو لم يسأل عنك • ولا ادري غرضه من ذلك او لعلي أدري ولا اقول ، ولقد آن وقت الجزاء وهذا اخي الافشين شاهد» • ثم صفق فدخل الحاجب فقال له : « لا تأذن لاحد علينا واغلق الباب» •

كانت جهان قد غادرت الغرفة منفعلة مضطربة لمفاجأتها بقدوم الافشين ؛ ولما لاحظته من اهتمام ابيها باعداد الورق والدواة والقلم • فسارت توا الى ضرغام فرأته واقفا بالايوان وحده ، فأنستها رؤيته هواجسها ، وسرى عنها • اما هو فتقدم نحوها وسألها عن ابيها ، فقالت: «انه أحس حالا من الصباح وقد ذكر انه كان يتمنى ان تكون لي في مكان اخي سامان • فليته علم انك خير منه مكانا» • قالت ذلك ونظرت اليه نظرة أغنته عن شرح كثير •

فقال لها وعيناه تضحكان : «اشكرك على حسن ظنك يا جهان • وكيف تركت أباك الان ؟»

فتنهدت وقالت : «ألم تعلم بمجيء الافشين والموبذ ؟»

قال : «هل جاء الافشين ايضا ؟ اني لم أر وردان بعد» •

قالت : «اتيا معا .. هذا الذي كنت أتخوفه !. ولكن لا بأس ما دام ابي احسن حالا» .

قال : «وأين هما ؟» . قالت : «هما عنده في خلوة وقد خيرني بين البقاء معهم وبين الخروج ففضلت الخروج للتخلص من رؤيتهما ولكي أشاهد حبيبي ضرغاما» .

قال : «لعل خلوتهم ستطول . فهل تأذنين لي بالانصراف برهة ثم اعود ؟»

قالت : «الى اين تتركني ؟»

قال : «اذا شئت بقيت . ولكنني لن اطيل الغياب» .

قالت : «اذهب في حراسة أورمزد ولا تبطىء» .

فلما سمعها تذكر أورمزد قال : «لقد أذكرتني شيئا لا بأس من سؤالك عنه فهل اقول ؟»

فحدقت في عينيه فقرأت فكره وقالت : «أظنك ستسألني عن أورمزد وانت تدين لغيره أليس كذلك ؟»

فدهش لفراستها وقال : «نعم هذا سؤالي» .

قالت : «اني أدين بما تدين به لاني لا احب فراقك في الدنيا ولا في الآخرة» .

ففرح لتعلقها به وقال : «ولي سؤال آخر !» . قالت : «قل ما بدا لك» .

قال : «انت تعلمين غرام والدتي بالاقامة بالعراق لسر لا أعلمه» .

فقطعت كلامه وقالت : «اني اكون حيث تشاء انت ، فان الدنيا كلها حيث نقيم . ولا يهمني شيء مما لنا في فرغانة او غيرها» .

فقال : «قد نلت الان ما أتمناه وقبضت على السعادة بيدي . فهل تأذنين في ذهابي لأرى رجال الوفد الذين صحبتهم فأتخلص منهم ثم

آتي الليلة ؟»

قالت : «اذهب في حراسة الله» . فودعها وخرج بعد ان أرسل من يستقدم وردان .

- ٨ -

موت المرزبان ووصيته

خيل الى جهان ان قلبها يتحفز للذهاب في اثر ضرغام ، فتماسكت واسترجعت رشدها وفكرت فيما هي فيه من اسباب القلق والاضطراب لمرض ابيها فانه اذا مات تصبح يتيمة ليس لها الا أخوها ، وهو لا يؤمن جانبه ولا يعول عليه . وذكرت خلوة ابيها بالموبذ والأفشين فخفق قلبها خوفا من تلك الخلوة وقامت في ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى ، لما تعلمه من مطامع الموبذان ودسائسهم ولاسيما بعد ان تحولت الكهانة الى مرتزق لهم ومورد للاموال .

والعقائد اذا تقادم عهدها وتولاها اهل المطامع دب اليها الفساد وأصبحت شرا على الناس من الكفر . وعلى ذلك لم تكن جهان شديدة الاخذ بأسباب دينها . وانما كانت على الزردشتية مذهب ابيها على غير نفهم او نقد ، لانها ولدت فيها فشبت عليها كما شبت على سائر عاداتها وأخلاقها . وهذا شأن السواد الاعظم من العامة فانهم يدينون بما يألفونه من صغرهم ، واذا كبروا وتثقفوا ودلهم العلم على مظنة للنقد فيه اغتفروها في جانب ما غرس في قلوبهم وعقولهم من مبادئه ، فأصبح

الدين كالجنس يغضب له المرء وينصره غيرة وحمية كما ينصر عرضه ويذب عن حياضه .

وكانت تنظر الى الموبذان وأمثاله مستخفة بما يقولونه ويزعمونه ، فلم تكن تحذرهم لاعتقادهم انهم يعجزون في كل شيء عدا اكتنـــاز الاموال . فلم يكن اختلاء الموبذ بأبيها ليهمها لو لم يكن الافشين معه وهي تكرهه بلا سبب ظاهر . وتخافه لانه ملك ذو أعوان وجند . على ان أباها كان يجله ويعول عليه .

ووقع نظرها عفوا على بساط في الغرفة رأت عليه من الرســـوم المزركشة صورة أسد رابض عيناه كأنهما شرارتان فتذكرت حبيبها لان اسمه من اسماء الاسد . فلما ذكرته ذهبت مخاوفها لعلمها بأنه ما دام بقربها فلا خوف عليها .

بقيت جهان مستغرقة في هواجسها ، حتى سمعت وقع أقدام ادركت انها لخيزران القهرمانة فخفق قلبها توقعا لخبر تسمعه فلما دنت منهـــا قالت : «ان سيدي المرزبان يدعوك اليه . تجلدي يا جهان وكوني كما أعهدك » .

فأوجست خيفة من تحذيرها ولم تسألها عن السبب اعتمادا علـــى قدرتها في تحمل الصدمات ، وأكبرت ان تبدي جزعا فمشت مسرعة . وذكرت انها سترى الموبذ والافشين عند ابيها فانقبضت نفسها وظلت سائرة حتى وصلت الى باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها الى سرير والدها . فرأته مستلقيا وعيناه شاخصتان الى الباب وقد غشيهما الدمع وتكسرت أهدابهما من البكاء . وحالما وقع بصره عليها ابتســـم ابتسامة لا حياة فيها ، ولولا بريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من الحنو والمحبة لظنته ميتا . فتمالكت ودنت من السرير ، فلما رآها أحس بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليكلمها فامتنع عليه النطق فاكتفت

بحركات شفتيه وترامت على صدره ، ولولا ثبات جأشها لأغمي عليها لانها تحققت في تلك اللحظة انها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة •

فأمسكت بذراعي ابيها المحتضر ونظرت في وجهه نظرة الاستعطاف كأنها تتوسل اليه ألا يتركها : فسبقتها العبرات وبكت وهي تمسك أنفاسها لئلا يسمع شهيقها وأطرفت لئلا تظهر دموعها •

اما هو فلم يفته ما خامر قلبها من الحزن والخوف ، وأراد تعزيتها فعصاه النطق ولم يزد على ان حرك شفتيه وحول نظره وأشار بيده الى الأفشين والموبذ • فالتفت فرأت الافشين جالسا وفي يده لفافة من الورق فلما رآها نظر اليه بعد اشارة ابيها اراها اللفافة وابتسم لها كأنه يعزيها • وكان الموبذ واقفا بجانب التمثال يصلي ويتضرع فالتفت اليها وهو يظهر الاسف والحزن • ففهمت جهان خلاصة ما تم في تلك الخلوة وهو ما كانت تخشاه وتحذر الوقوع فيه • وأعادت النظر الى المريض وصاحت : «ابي كيف انت ؟ انك في خير» •

فأراد ان يجيبها ويطمئنها والحشرجة تمنعه من الكلام ، فجلست بجانبه وامسكت يده فوجدتها تندي بعرق بارد ، فكادت تصيح وتولول لانها تحققت انه في آخر ساعات الدنيا ، وتجلدت لكنها لم تستطع امساك دموعها فاطرقت والدمع يتساقط على خديها وقد زادها احتباس العواطف توردا وزاد عينيها بريقا • وأما المريض فان سرعة تنفسه وخرير صدره ودنو أجله لم تفقده شيئا من رشده ولا أنسته ابنته الحبيبة ، وجاهد كي يطلق لسانه بكلمة يقولها ولكنه غلب على امره • فلما تحقق عجزه عن الكلام اشار اليها ان تخرج لعله ينام . فوقفت ترتعد مترددة لا تدري أتطيعه فتخرج ام تبقى بين يديه •

ثم رأته قد ازدادت حشرجة صدره وأخذ يدير رأسه ويلتفت كأنه يحاول النهوض ولا يقوى عليه ، وأخيرا حدق نظره في جهان فتطلعت

في عينيه فرأت ماءهما قد جف وذهب منهما بصيص الحياة وكأنه هم بأن يبسط يديه نحوها فلم ترغما الا قليلا ثم شهق وأرخى يديه وسكـــن صدره وهمد جسمه وأظلمت عيناه وتراخت أجفانه وبرز أنفه ووجنتاه . واصفر اصفرار الموت ونبش شعر لحيته ورأسه حتى اصبح منظـــره مروعا مفزعا ، فصاحت جهان : «وأبتاه !» . وحلت شعرهـــا ولطمت وجهها وسمع اهل القصر صوتها ، وبلغ الخبر الى القهرمانـــة فركضت وأخذت بيد جهان وراحت تخفف عنها وتعزيها .

ولما قضي الامر اخذ اهل القصر في اعداد المأتم كما هي عـــــادة المجوس ، فغسلوا الجثة وألبسوها ثوبا ابيض ووضعوها على دكة فـــي غرفة كبيرة أخلوها من الاثاث ، وجلس الأخصاء حولها . والموبذ يصلي ويدعو وهم يؤمنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء ساسان وكان غائبا عن البيت وأخذ يندب أباه والناس يخففون عنه ، وأما جهان فبعد ان استسلمت للجزع ساعة الوفاة رجعت الى نفسها فغلب عليها التعقـــل واعمال الفكر . وكانت نفكر في ضرغام مصدر تعزيتها الوحيد فأخذت تتلفت لعلها تجده قادما فتعزى برؤيه ومخاطبته .

ثم اشار اليها الموبذ ان تتبعه الى غرفة اخرى ، ومشى فتبعته مطأطئه الرأس ، وتبعهما ساسان فلما خلا الموبذ اليهما قال : «لا ينبغي ان تبالغا في الحزن على اخينا الراحل ، فان أورمزد معه لانه كان رجلا تقيـــا محسنا ، وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة ايام ونجعل وقودها النـــد والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح ابيكما لم تفارق هذا المكان بعد ولا تفارقه الا بعد ثلاثة ايام فلا تحزناها بالبكاء والنوح . وقد اوصى بتفريق الحسنات والمبرات وهو لا ريب عندي من اهل النعيم . ولذلك فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليال حول الجثة تصعد الى الاماكن المباركه فتلاقي ضميره على هيئة حورية تقص عليه حسناته وتقوده الى النـــور

الابدي . كما اننا سنوالي الصلاة على روحه طول السنة فلا تجزعا . على اني أبلغكما وصيته عن دفنه» .

وكانت جهان تسمع مطرقة وتتلقى دموعها بمنديلها ، فلما قال ذلك رفعت بصرها اليه وفي عينيها ملامح الاستفهام فقال : «لقد اوصى بأن ندفنه في برج السكوت» .

فلما قال ذلك بانت الدهشة على وجه الفتاة وأخيها وقالت : «كيف ذاك ؟. انما يدفن في برج السكوت عامة الناس والفقراء ،ومثل ابـــي يدفن في حجرة خاصة» .

قال : «نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك ، وأسر الي السبب الذي بعثه على ذلك ولا أقدر ان ابوح به» .

فاكتفت بقوله وسكتت ، أما سامان فلم يسكت وقال : «كيف ندفن أبانا المرزبان في برج السكوت وأنت نعلم انه مدفن العامة ، توضع فيه الاجساد على أحجار تعرضها للهواء وتذهب طعاما للنسور والكواسر فلا يبقى منها الا العظام ثم تطرح هذه في البئر العميقة وسط البرج فتختلط بعظام الطغام والمجرمين و ..»

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعره التفاتا وانما قال له : «هـــذه وصية الفقيد بحضور مولانا الافشين وقد دونها في وصيته التي ستتلى عليكم بعد بضعة ايام» . قال ذلك وتوجه الى قيّم القصر فأوصاه بمـا ينبغي اعداده للدفن .

وقضى القوم بضعة ايام في المأتم وتوابعه من مراسم وتعـــاز واحسانات وصلوات . وطال انتظار جهان رجوع ضرغـــام ، وشغلت لابطائه وزادها هذا حزنا على حزنها ، وغم عليها ان المهمة التي ذهب فيها قد تستغرق اسابيع ، والمحب كثير القلق سريع التخوف . ولكنهـا آنست من اخيها سامان تقربا وتلطفا لم تعهدهما فيه قبلا . فلم يعــد

يفارقها لحظة ، وكلما رآها تتضجر خفف عنها . ولم يكن غافلا عن تعلقها بضرغام وان لم يفاتحها في شأنه من قبل ؛ فأخذ يكثر من ذكره وبالغ في الثناء عليه ، مع انه كثيرا ما كان يحسن لها غيره ولاسيما بابك الخرمي . وكان سامان لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين ولكنه لذكائه ودهائه لم يكن يخفي عليه امرهم وأوجه الضعف فيهم .

ورغم قوة فراسة جهان وسوء ظنها بأخيها ، كانت تلذ بحديثه ، وسرها انه يحب حبيبها ويعجب بمناقبه وبسالته : فاستأنست به وأخذت تتناسى ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه .

ذلك هو سلطان الحب ، يعمي ويصم فمهما أوتي صاحبه من الحكمة والتعقل فانه يفقدهما اذا وقع في شراكه : وقد يبقى حكيما في كل شيء ، وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة او من كبار العلماء او الشعراء او الفلاسفة ، ولكنه ازاء الحب يكون كالطفل يقاد بخيط ، وقد يغلب عليه الوهم في بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل ويعتقد الخرافات اذا كان في ذلك ما يسهل عليه أمنية او يطمئن له قلبا .

ومن هنا نرى الأب الحنون مهما يبلغ من اثاره الخرافات اذا مرض ابنه وفشلت في علاجه حيل الاطباء قادته رغبته في شفائه الى تصديق ما يصف الدجالون !

* * *

بقي الموبذ والافشين يترددان على قصر المرزبان اثناء المأتم قياما بواجب العزاء ، وسامان في شوق الى معرفة وصية ابيه . فلما انتهى المأتم جاء الموبذ وطلب الاختلاء بجهان وأخيها : فلما اختلوا اخرج من جيبه أسطوانة من فضة فتحها وأخرج منها درجا ملفوفا وقال : «هذه هي

وصية ابيكما التي عهد بها الي مولانا الأفشين بحضوري» • والتفت الى جهان وقال : «والحق يقال ان أباك قد أحسن الاختيار بالقاء مقاليد الوصية الى صديقه الأفشين» •

فأصاخت جهان بسمعها وسامان جامد لا يتحرك • ففتح الموبذ الدرج وقال : «وقد أوصاني مولانا الأفشين بأن أبلغكما الوصية ثم أدفعها اليه فاسمعاها وتفهماها» • ثم اخذ يتلوها متمهلا ، وهذه هي :

«هذا ما عهد به المرزبان طهماز في فرغانة ، في اخر يوم من ايام حياته . الى الملك الأفشين حيدر بن كاروس صاحب أشروسنة وقائد جند المعتصم ، بحضور الموبذ صاحب بيت كارشان شاه وبمعونة اورمزد العظيم . في اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة ••• للاسكندر •

«يعهد المرزبان طهماز الى الافشين حيدر بن كاروس ملك أشروسنه وقائد جند المعتصم بأن يكون وصيا على اهله من بعده يتصرف فيما خلفه من مال وعقار . فيما يعود على الورثة بالخير ، بمقتضى هذه الوصية • ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثه الشرعيين غير ولدين ، هما الفتى سامان ، والفتاة جهان ، وقد اوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهي الوريثة للقصر بما فيه والضياع وما فيها من ماشية ودواب ومنشآت ، ولها كل ما خلفه من جارية ورفيق واثاث ومصوغات وآنية ونقد • يكون ذلك كله ملكا لها بشرط اشراف صديقنا الافشين عليه وتدبيره بما يلهمه أورمزد اليه من اسبّاب النفع لها •

«اما ولدنا سامان فانه محروم من هذا الميراث كله لا يصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفي لمعيشته على ما يقدره الوصي • وأما سبب حرماني اياه فلم اشأ ان أدونه في هذه الوصية . ولكن لكيلا يبقى مجهولا ويذهب معي الى القبر قصصته على الوصي بحضور الموبذ . على ان يبقى مكتوما عندهما الى حين الحاجة •

«هذه وصيتي كتبت امامي ، وقد صدرتها وختمتها بتوقيعي . وشهد فيها الموبذ : ومن أخل بحرف منها كان ملعونا خمسين امنة . وقد فعلت كل ذلك باختياري وأنا في سلامة العقل .

«وأوصيت ايضا ان أدفن بعد موتي في برج السكوت في ضاحية فرغانة . ونترك جثتي طعاما للكواسر .

«وأورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويعين صديقي الافشين على العمل بها» .

وكان الموبذ يقرأ وسامان وجهان صامتان ، حتى بلغ الى حرمان سامان من الارث فتغير وجه الشاب وامتقع لونه ، ولكنه تجلد وكظم حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصيه فقال له : «كيف حرمني ابي من حقي وآنا ابنه الوحيد ؟ هذا لا يكون ابدا . انا وارث اسم ابي ولقبه وأما العقار فلي ولأختي جهان !»

فقال الموبذ : «قد قرآت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها . والراي في كل حال رآي الافشين . وقد فرغت من رسالتي فائذنا لي في الانصراف ، وسيآتي الافشين فيتولى العمل بالوصية ، والدولة تساعده على تنفيذها بالقوة ، فآنصح لك يا ولدي بآن تصبر على ما فاتك من ارث والدك» . قال ذلك وخرج مسرعا وخرج سامان يشيعه الى سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق اسنانه ويقول في نفسه : «هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ النحس ، كم أرسلني ابي لطلبك وأنا أماطل وأحتال لتأخير حضورك خوفا من مثل هذه الوصية لاني كنت أشعر بما في نفس ابي علي . نعم انا أعرف سبب غضبه وما كنت أظنه عرفه ، ولكن ذلك لا يحرمني من حقي في الميراث . صدقت يا موبذ ان الامر بيد الافشين اللعين وهذا أطمع من نملة . ولعله سعى في الوصاية ليستولي على التركة ويحرمنا منها

جميعا . آه لو كانت جهان تطاوعني لكنا نكيد له كيدا عظيما ، ولكنها شديدة التمسك بما يسمونه شرف النفس والاريحية على اني سأكيد لهم جميعا» . وكان يناجي نفسه بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ الذي غادر الحديقة وركب فرسه وسار في سبيله ، ثم رجع سامان الى اخته . وكانت قد شق عليها ان يكون الافشين وصيا عليها ، ولكنها رأت ألا مفر من ذلك . كما شق عليها حرمان اخيها من الارث ، فقالت له : «طب نفسا يا اخي ، انك لن تلاقي ضيما وأنا على قيد الحياة . فأنت اخي وأنا أعوضك عما فاتك من الميراث» .

فأطرق ولوى عنقه تذللا ومسكنة ، ثم رفع بصره والدمع في عينيه وقال : «لم يسؤني حرماني من الارث بقدر ما ساءني سببه ، فأي ذنب ارتكبته حتى أعامل هذه المعاملة ؟»

قالت : «لا أعلم السبب ولا يعلمه الا الافشين ، وسيسافر الى بغداد ونبقى نحن والمال بين أيدينا نتصرف فيه كما نشاء» .

فشكر لها عطفها عليه ،وكظم ما في نفسه ، وشق عليه ان يطلع الافشين والموبذ على سبب حرمانه فسكت ، وجلس يفكر في تدبير المكائد ونصب الحبائل ، وخاف ان تتنبه أخته لما في ذهنه فشغلها بذكر ضرغام فقال : «لقد ابطأ علينا البطل ضرغام ، ولا بد لتغيبه من سبب قهري » .

قالت : «يلوح لي انه بعيد عن فرغانة ، فلو كان فيها او قريبا منها لما فاته خبر المصيبة التي حلت بنا . ولعله يعود قريبا» .

فقال : «لو كان هنا لخفت المصيبة علينا . اني أستأنس بطلعته . لقد سموه ضرغاما وهو اسم على مسمى . وكم فيه من خصال تندر في سواه ؟ »

فوقع ذلك الاطراء في نفس جهان وقوع الماء على الظمآن . ومع

علمها ان اخاها يمدحه مجاملة لها ، اسرع لسماع الحديث عمن تحب ، وأخذت تغالط نفسها في ان اخاها يحبه ، وانها كانت مخطئة في زعمها الاول !

وبينما هما في الحديث اتت القهرمانة تنبىء سيدتها بمجيء ضرغام، فخفق قلبها ونسيت حزنها . ولكنها بكت اذ تذكرت اعجاب ابيها به وما كانت تتوقعه من السعادة لو بقي حيا . ثم تجلدت وابتسمت له عندما رأته . فحياها وأخذ في تعزيتها . ثم تحول نحو سامان وعزاه فقال سامان : «ان لنا في بقائك تعزية كبرى» .

ومشت جهان الى غرفتها فتبعها ضرغام بلباس السفر فدعته الى الجلوس وقالت : «لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام» .

قال : «كنت في مكان بعيد اضطررت للذهاب اليه تعجيلا للفراغ من المهمة التي جئت لانجازها ، ولكن ..» . وسكت فسألته: «وماذا جرى؟»

قال : «جاءني امر الخليفة يستعجلني بالرجوع» .

فأطرقت ثم قالت : «ان سفرك يسوءني كثيرا ولكنني ..»

فقطع كلامها قائلا : «سأبقى في فرغانة ، لان فيها قلبي وعقلي وكل جوارحي» . وانتبه الى ان سامان يسمعه . فأجفل وخجل . فقالت له : «لا تخجل . ان اخي عالم بما بيننا ، وأراه يحبك كثيرا ويعجب ببسالتك ومناقبك . وليس ما يمنعنا من العلانية . أما بقاؤك هنا فهو أمنية حياتي ، ولكنني ارى ان تلبي طلب الخليفة لانه أكرمك ورفع منزلتك وقد يكون في حاجة الى حسامك او رأيك . وهل لم يرسل الخليفة في طلب الافشين ايضا ؟»

قال : «لم يبلغني شيء عن دعوته ، ولكنني أظنه يطلبه قريبا لان الامر حرب والافشين كبير القواد . ولكن كيف أسافر وأنت في هذا الحزن وكيف أطمئن وأنت ..»

فقطع ساسان كلامه قائلا : «لا بأس عليها لان أبانا عهد الى مولانا الافشين بتولي شؤونها » . وارتجفت شفتاه من الغضب والحقد .
فالتفتت جهان اليه وقد شق عليها ان يفشي ذلك لضرغام فيقلقه . وهذا شأن المرأة العاقلة فانها تكتم متاعبها عن رجلها ولا تظهر له الا ما يسره، ما لم تضطر الى غير ذلك .

وعجب ضرغام مما سمعه عن وصاية الافشين ، ونظر الى جهان مستفهما فقالت : «ان الافشين صديق لابي . وكان يثق فيه كثيرا . فأراد ان يكرمني ويهيىء لي اسباب الراحة بعد موته فأوصاه بي بعهد كتبه له وأشهد الموبذ عليه . وما في ذلك شيء غريب» .

فأطرق وأعمل فكرته ، فرأى ان الافشين معه في العراق ، فوصايته خير من وصاية رجل من اهل فرغانة لا سبيل له اليه . فمال الى السفر وأحب ان يسمع رأيها في سفرها معه ، فنظر اليها وعيناه تسبقانه الى الكلام وهي لا تحول نظرها عنه فقال : «اذا كان الامر كذلك فقد يبقى الافشين هنا اياما ليدبر ما عهد فيه اليه ، وفي هذا ما يطمئنك في بعدنا» .

فأدركت غرضه وقالت : «لا يطول بقائي هنا الا ريثما تنقضي عدة الحداد ، ثم أسافر الى بغداد . فاني لم اعد اطيق البقاء في هذا البلد بعد وفاة ابي ، وقد اصبحت رغم ما القاه من مؤانسة الفرغانيين ومحبتهم أشعر بأني غريبة بينهم ، ولاسيما بعد ان تسافر» .

وكان ساسان يسمع ما يدور بينهما ولا يشعر ، لان قلب الاجرود مغلق لا نافذة فيه ولا سبيل للحب اليه ، ولكنه رأى من الحكمة ان يجاريهما فلما سمع كلام أخته قال : «ان جهان ولا شك مشتاقة الى رؤية والدتك في بغداد ، فهي صديقتها وكانت تحبها وتأنس بها» .

فالتفتت جهان الى اخيها لفتة تأنيب وقالت : «انا لا احب غير الصراحة، لكأنك تظنني أخشى التصريح بحبي ضرغاما ، على اني لا ارى في الحب

عارا ، ولو مد أورمزد في أجل ابي عاما آخر لانتهى الامر على ما تمنيناه. فماذا ترى انت ؟»

فقال سامان : «لا ارى بأسا بحبك ضرغاما . انه اهل لذلك ولو لم تسبقيني الى حبه لسبقتك انا اليه . لولا انه لا يرضى بهذا البدل !»

فراقها مزاح اخيها ، على ما في قلبه من الغيظ منذ سمع الوصية . ولكنها كانت تعرف فيه الكظم والدهاء والحقد . فلما سمعت مزاحه نظرت اليه شذرا في غير غضب ، ثم وجهت كلامها الى ضرغام قائلة : «ان سفرك يسوءني ، ولكنه واجب ، ولا يمضي الا القليل حتى ألحق بك». فقطع سامان كلامها قائلا : «وأنا اكون في خدمتها حتى اصل بها اليك ، او الى والدتك» .

فأتمت كلامها قائلة : «ولا تظن شيئا من حطام الدنيا يحول بيني وبينك وقد أكتب اليك قبل سفري» . قالت ذلك وهي تشعر بما يهددها من التعب ولكنها كانت كثيرة التعويل على نفسها كبيرة الثقة بتدبيرها . أما ضرغام فكان يخشى ان تمنعه من السفر وهو راغب فيه تحقيقا لآماله، فلما رآها تدعوه اليه زهد فيه وآثر البقاء . فسكت وهو لا يعلم بماذا يجيب . فأدركت تردده فقالت : «ان بقاءك معي اكبر اسباب سعادتي ، ولكن القائد الباسل ليس من شأنه الا ان يلبي الدعوة ، فما بالك وهي موجهة اليه من الخليفة مالك رقاب الناس ؟»

وقال له سامان : «كن مطمئنا فاني في خدمتها حتى تصل اليك سالمة» .

ولم يكن ضرغام ممن يتخلفون عن أداء الواجب ، ولكنه ظن ان في سفره وحده ما يسوء جهان ، لانها لا تستطيع مصاحبته قبل انتهاء ايام الحداد ، فلما رآها ترغبه في السفر سرى عنه فقال : «اذا كان هذا ما تريدين فأنا طوع امرك ، وغدا أسافر ان شاء الله» .

وأحس سامان بثقل وجوده هناك في تلك الساعة ، فنهض بحجة ان لديه أمورا خاصة لا بد من ذهابه لانجازها ثم يعود ، فقالت له جهان : «لا تطل غيابك كعادتك فقد تغيرت الاحوال الان وأصبح وجودك في القصر ضروريا» •

فأشار مطيعا وخرج مسرعا يتعثر بأذيال قبائه • أما ضرغام فلما رأى نفسه في خلوة مع جهان شعر كأنه في عالم غير هذا العالم ، ونسي السفر والحرب والرتب والالقاب ، وتمنى لو تتحول تلك الساعة الى دهر او تمتد الى الابد ، لا يلتمس معها طعاما ولا شرابا ولا ثراء ، كأنه تجرد عن المادة ورأى في تقارب روحيهما معنى لا يشوبه شيء مما يفتقر اليه البدن او تجر اليه الشهوات • والحب تجاذب بين الارواح لا يفسده او يضعفه غير الجسد بشهواته وميوله • ولذلك لا يبرح قويا ما دام عذريا• فمن رغب في بقاء الحب فلينزهه عن شهوة الجسد • فاذا بادل المحب حبيبته حبا بحب اتته السعادة صاغرة وأنبأ الملأ الذين عجزوا عن تشيل النعيم انه استمتاع الارواح بالحب الطاهر المنزهعن أغراض الجسد ـــ وقد يعد الناس هذا الحب خيالا شعريا ، ولكن ما أدرانا ان هذا الخيال لا يكون حقيقة في وقت من الاوقات •

ولا خلاف على كل حال في ان اجتماع الحبيبين بعد فراق طويل ، مثل اجتماع جهان وضرغام ، يمثل السعادة الحقيقية • ولعل جهان كانت أشد شعورا بتلك السعادة بعد ما نال الحزن من قلبها بموت ابيها • والنفس الحزينة أحوج الى التعزية وأشد شعورا بها من سواها •

فأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وما حديثهما الا التشاكي ، وقد نسيا موقفهما وطال حديثهما ، ولو لم تدخل عليهما القهرمانة خيزران لبقيا في غفلة عن الوجود وأهله •

وكانت خيزران لا تترك جهان برهة طويلة وحدها لئلا تستسلم

للاحزان ، وكانت تحسبها وحدها بعد خروج ساسان فأتت تفتقدها ، فلما رأت ضرغاما عندها خجلت وتراجعت ، فنادتها جهان فدخلت وقد أذهلها ما رأته في ذينك المحبين من ظواهر الهيام كتورد الوجنتين وبريق العينين وشخوص كل منهما الى رفيقه ببصره وسمعه ، فأيقظهما دخولها ونقلهما من عالم الارواح الى عالم الاجساد • فحيت ضرغامـا وسألت جهان عن حالها وعما تحتاج اليه • فقالت هذه : «لا أحتاج الى شيء • ولكن كيف رأيت ضرغاما يا خيزران ؟»

فأجفلت القهرمانة لانها لم تكن تتوقع سماع هذا السؤال وقالت :

«تسألينني عن رجل وقع منك هذا الموقع وأنت أعلم مني بأقـدار الناس • فمن اين لمثلي ان تبدي رأيا ، وغاية جهدي ان أتوسل الـى أورمزد ليمنحكما ما تتمنيان» •

ثم سألتها عن ساسان فقالت : «خرج من القصر على ان يعود علـى عجل • فعسى ان يصدق» •

ووقفت فوقف ضرغام وقال : «أتأذنين لي في الانصراف ؟» • فقالت: «يعز علي سفرك ، ولكن ••» • ثم تجلدت وقالت : «سر محروسا وكن مطمئنا فاني لا ألبث ان ألحق بك فقد كرهت الاقامة بهذه البلاد» •

فودعها وخرج ، وكان وردان في انتظاره مع بعض اهل القصر فأمره باعداد ما يقتضيه الرحيل الى العراق •

- ٩ -

بين الافشين وجهان

عادت جهان الى القاعة وقد فارقها قلبها وفقدت رباطة جأشها ، فندمت

على ترغيب ضرغام في السفر ، وأخذت تفكر فيما هي فيه فعزمت على اخذ أمورها بالحزم والتعقل حتى تتخلص من تلك الوصية او ترى سبيلا آخـر ٠

ومضى النهار وساماان لم يعد ٠ وفي اليوم التالي نهضت مبكـــرة وضفرت شعرها ولبست ثوبا اسود وتزملت فوقه بمطـــرف من الخبز الاسود ، وغطت رأسها بنقاب اسود ووجهها من وراء ذلك الســـواد كالقمر ، لو ان في القمر تلك المعاني ، او لو كان فيه مثل تينك العينين الساحرتين !

وخرجت الى الحديقة تمشى بين اشجارها متشاغلة بالتنقل مـــن شجرة الى اخرى حتى وصلت الى مقعد فقعدت واستغرقت في تأملاتها ، واذا بالقهرمانة تأتي مسرعة تقول : «سيدتي ٠ انت هنا ؟»

قالت : «ما وراءك ؟»

قالت : «جاء ٠٠ جاء الافشين وهو يطلب ان يراك» ٠

لم تستغرب جهان الخبر لانها كانت تنتظره بل فرحت بقدومه لتعرف غرضه عسى ان ترى وسيلة للنجاة من وصاينه ٠ فنهضت وسألت : «اين هو ؟» ٠ قالت : «في الايوان ينتظر قدومك» ٠

فمشت مشية الجلال كأنها ملك يحف به الاعوان لا تبالي ما ينتظرها لاعتمادها على قوة جنانها وعزة نفسها ، حتى اتت القصر ، فصعـــدت الدرجات المؤدية الى الايوان متشاغلة بمخاطبة القهرمانة في شؤون لا اهمية لها ، حتى أطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالسا متصدرا٠ فلما رآها خف لاستقبالها ٠ وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد خضب لحيته حرصا على مظاهر الشباب ٠ وكان طويل القامـــة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق ، وقد تجعد جبينه وبرزت وجنتاه ، وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخز الموشى ، ولبس قباء بنـــي

اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه ، وفوق القباء جبـــة سوداء . تمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفا قبضته مرصعة . ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه ، يحسب الترحيب بها تلطفـــا او تنازلا . فلما دنا منها ابتسم وقال : «مرحبا بعروس فرغانة . كيف انت اليوم ؟» . ومد يده لمصافحتها فمدت يدها فأخذها وتباطأ في الافـراج عنها ، فاقشعر بدنها وأحست بنفور دلها عليه قلبها ولكنها أجابته عـــن سؤاله فقالت : «اني في خير ، تفضل اجلس» .

فتثاقل حتى جلست ، ثم جلس على كرسي امامها وعيناه لا تتحولان عن وجهها ، فلمحت فيهما معاني زادتها نفورا منه فأطرقت حياء وترفعا. فحمل ذلك منها على محمل الحزن فقال لها : «ان المصيبة التي أصابتك كبيرة يا عزيزتي ، لان موت ابيك رحمه الله خسارة لا تعوض ، وأنت تعلمين ما كان بيننا من صلات المودة ، ويؤكدها انه قد وكل الـــي الاهتمام بشؤونك بعده ، ولم يفعل الا لعلمه بمنزلتك عندي . ألـــم تسمعي ذلك منه في حياته ..؟ ألم يقل لك كم انا معجب بتعقلـــك وذكائك » .

فاستغربت دخوله في الحديث على هذه الصورة ، ولكنها سايرتـه فقالت : «كثيرا ما سمعت ابي يذكر مودتك ورفعة مقامـك ، والافشين صاحب أشروسنة مشهور ليس في فرغانة ولا أشروسنة من لا يعرف اسمه او سمع بأعماله» .

فسره اطراؤها وجرأه على التقدم خطوة اخرى نحو الغرض الـــذي طالما كتمه فقال : «لم اسألك هذا السؤال لأسمع اطراءك ومدحك وانما اردت سماع الجواب عن سؤالي . فهل لم تسمعي من ابيك عما لك من المنزلة عندي ؟»

فلم يفتها ما يعنيه او يضمره ، ولكنها تجاهلت وقالت : «لا أذكر اني

سمعت شيئا من ذلك ، ولا أظنك أحسنت الظن بي الا لانك تعدني من بعض اولادك كما تعد ابي اخا لك ، فشكرا لك على هذا الاحساس ، وهذا ما يشجعني على ان تجيبني الى طلب لي عندك» .

قال : «وما هو ؟» . قالت : «رأيتك تثني على تعقلي وذكائي ، فاذا كنت عند حسن ظنك فما معنى الوصاية علي ؟»

فضحك وقال : «ان الوصاية يا عزيزتي لا تسلبك شيئا من هـذه الخـلال ! »

فقالت : «انك ملك وقائد ، ولك من المهام والاعمال ما يشغلك عن الاهتمام بمثلي ، وأنت مقيم بالعراق وأنا بفرغانة ، فهل ألقيت أثقـال الوصاية عنك ؟»

فقال : «كلا .. كلا . اني لا استطيع ان أخالف وصية ابيك ، ومهما تكلفني من الاعباء فهي هينة ما دامت في سبيل خدمتك . وهذه أمنية طالما تمنيتها ، وأما البعد بين العراق وفرغانة فأمره سهل ، فاما ان تنتقلي الى العراق او أنتقل انا الى فرغانة ، ولا بد من ان نكون معا علـى كل حال ! »

فتحققت غرضه ولكنها لم تشأ ان تفهم مراده فقالت : «لا ارى باعثا على هذا الارتباط يا مولاي» .

فقال وهو يستعطفها : «لا تقولي مولاي» .

فقالت : «يا ابت او يا عماه كما تشاء . اني لا ارى داعيا لهـذا الارتباط » .

فقطب حاجبيه وابتسم ، ثم قرب كرسيه من كرسيها وقال : «ان قولك يا عماه يسيء الي اكثر من قولك يا مولاي . لماذا لا تخاطبينني كمـا أخاطبك ؟» . قال ذلك وأخرج من جيبه عقدا من الجوهر يساوي مالا كثيرا ومد يده نحوها والعقد يتلألآ في كفه وقال : «مالي أناديك يـا

عزيزتي فتنادينني يا عمي ؟»

فحولت جهان وجهها عنه وهي تنظر اليه شزرا وتباعد كرسيها ، ووضعت يديها وراء ظهرها وقالت : «لا يا سيدي ، لا حاجة لي الى الجواهر ، فاني حزينة ولا ارى مع ذلك مسوغا لهذا الخطاب» .

فأظهر استغرابه من نفورها وقال : «أهكذا تعاملين رجلا اقامه ابوك وصيا عليك ؟ هبي اني من عامة الناس فاحترمي وصية ابيك» .

فقالت بصوت هادىء يزينه وقار وترفع : «كان الاولى ان تبدأ انت باحترام تلك الوصية ايها الملك والقائد !»

فقال بنغمة الفائز الظافر : «أتظنين أباك لم يوص الا بما في تلك الورقة ؟. انه اوصاني وصية شفاهيه لا بد لي من تنفيذها» .

فقالت والازدراء باد في شفتيها وعينيها : «لو كان ابي حيا ما قبل منك ذلك» .

فابتسم وأبرقت عيناه بريقا أزعجها ، وقال بلحن الهائم الولهان : «هبي انه لم يقل شيئا من ذلك . ألا يكفي ان اقوله انا . يلوح لي ان ما ظننته من تعقلك وذكائك لم يكن في محله ؟. أيسوق اليك ملك أشروسنة عبارات التقرب والتودد وتجيبينه بالخشونة والنفور ؟»

فنظرت اليه نظرة ملؤها الاستغراب والدهشة وقالت وفي كلامها تهديد : «قف عند هذا الحد من التلميح ، واحذر ان تنزع الى التصريح. ان ملكك وان ضخم لا يساوي عندي شيئا» .

قال : «يظهر انك لم تفهمي مرادي . ألم تفهمي بعد ؟ اني احبك يا جهان . نعم اني احبك» . قال ذلك وقد ازدادت عيناه بريقا وبدا فيهما الاحمرار .

فلما سمعت ذلك نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الظبي من الاسد. وقالت : «قلت لك قف عند حد التلميح فلم تصغ . أما وقد تجاوزته ،

فاعلم اني لا أسمح لك بمثل هذا الخطاب . وهل يليق بك وقد اشتعل رأسك شيبا ان تخطب محبة فتاة اصغر من بعض ابنائك ؟»

فتنهد الافشين تنهدا حارا وقال وهو يتذلل ويتلطف : «آ يا جهان . أتحسبين الحب محرما على غير الشبان ؟ . اني ارى الكهولة أولى بــه وأقدر عليه . ان الناس مخطئون بما يتوهمون فلا شأن للسن بالحب» .

ثم اعتدل في مجلسه وأشار الى صدره وقال : «ان في هذا القلب من لواعج الغرام ما لا يتسع له صدور الشبان . ولقد كنت شابا وأنا اليوم كهل ، وأقسم لك بما تعبدين اني أشد كلفا وأعرق في الحب من قبل . ويدلك على ذلك اني وأنا الملك السيد والقائد الباسل أترامى عند قدميك لأخطب ودك وألتمس رضاك متذللا متصاغرا» . وترامى عنــد قدميها وقال : «فاذا اطعتني رأيتني عاشقا يبذل نفسه في سبيل سعادتك، وكنت الملكة النافذة الكلمة في العراقين وفارس وخراسان وأشروسنــة وفرغانة . وان أبيت وظللت على خطئك ..» .

فقطعت كلامه وهي تنظر في وجهه مستخفة وقالت : «انهض يـــا حيدر . انهض يا ابن كاروس . انهض يا ملك أشروسنة وارجع الى رشدك ودع ما تقول وأنا أصفح عنك وأغضي عما فرط منك وأكتم خبر جرأتك . انه لا ينبغي ان تكون فتاة مثلي أربط منك جأشا وأكثر تعقلا» .

فوقع كلامها وقع السهم في قلبه فنهض يحرق اسنانه وقال : «لقد قتلتني بعنادك ، فلا تحسبيني عاجزا عن ارغامك ؟ . وارجعي الى صوابك وفكري فيما عرضته عليك من اسباب السعادة ولا تعملي عمل اهـــل الجهالة ، واعلمي انك وما تملكين في قبضة يدي . فاذا أطعتني كنت انا وما أملك في قبضة يدك !»

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها بأن تزيده تأنيبا، لكنها امسكت لعلمها انها لا تقوى على مناوأته وهو ملك وعنده الجند

والاعوان ، وبيده عهد ابيها بالوصاية المطلقة عليها ، فلا ينصرها عليه حاكم ولا ينجيها منه سلطان ، الا اذا كانت في دار الخلافة فربما استعانت عليه بالخليفة فينصفها •

فرأت من الحكمة ان تستعين عليه بالتعقل والتدبـــير : فتمالكت جأشها بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصوت خافت : «سمعتك تستمهلني ريثما أفكر فيما عرضته علي ، وأنا أمهلك لتفكر فيما قلته لك، ونرى بعد ذلك ما يكون •• وسأكتم ما بدا منك وأبذل جهدي فـــي نسيانه حتى يكون مكتوما عني ايضا ، لاني أضن بصديق ابي ووصيه ان يقال عنه ما قد يقال عنك لو علم الناس افوالك • فهل تقبل مـــا اقوله لك ؟ واذا أبيت الا الطيش فأنا أولى بالطيش منك ولا تحسبني فتاة ضعيفة» •

فأحس الافشين بعظمة تلك الفتاة ، ولم يعد يقوى على النظر في عينيها ، كأن الغضب زاد كهربائيتهما فتطاير منهما الشرر • ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال : «ما انت فتاة ضعيفة ولا انا من اهـــل الطيش ، ولكنك ترين ما يرى سائر الناس ان الحب مقصور على الشبان، وأنا أريك رأي العين ان الكهول أشد هياما • ان بين جنبي قلبا يضحي بالملك وبالحياة في سبيل محبوبه • فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة لا يثبتون في الحب ولا يرعون زمام المحبوب • أما وقد استمهلتني فها أنذا اجيب طلبك راجيا ان ترجعي الى رشدك • وأيام الحزن على صديقي ابيك لم تنقض بعد فنحن الان في أوائلها ولعلي لا يخيب ظني بعد انقضاء أجل الحداد . وبعد ان تتحققي صفاء نيتي فيم أرجوه لك من الخير في دنياك • فاعملي فكرك على مهل » •

فأغضت عن طويل شرحه في بث عواطفه وآماله . وقالت بصـــوت هادىء وجأش رابط : «بقيت لي كلمة احب ان تسمعها بوصفك وصيي

الامين . هل فمت بحق الوصية فدبرت شؤون القصر وأهله ؟»

قال : «فعلت كل شيء فالزراع عاملون في الحقول ، والقيِّم يدير شؤون القصر ، وأنا أحرص على مالك منك» . ومد يده والعقد لا يزال فيها وقال : «والعقد ألا تقبلينه ؟ خذيه اذا شئت» .

فحولت وجهها عنه مشمئزة وقالت : «لا أريد قبول شيء يذكرني بهذا الاجتماع . ولو استطعت ان أجرد هذه القاعة من فراشها وأثاثها لفعلت حتى لا ارى شيئا شهد هذا الموقف او سمع هذا الكلام . والآن اسمح لي ان أشكر لك عنايتك بشؤون التركة ، وذلك ما كنت ارجوه من الافشين صديق ابي الامين على اهله . وأخيرا هل لي ان اعرف لماذا حرمتم اخي سامان ارثه ؟»

فأحس الافشين عند سماع اقوالها انه يتصاغر امامها ، وأنها هي تعظم وتعلو حتى كاد يتلعثم لسانه وأغلق عليه . وانما غلبته على بسالته وسلطانه بالعفة وأدب النفس ، فتجلد وقال : «انك تسألينني سؤال القاصر لولي امره وأنا مكلف ان أكتم السبب ، فلو سألتني سؤال الحبيب لحبه لاطلعتك على كل شيء» .

قالت : «اعمل بالوصية ودع الحب والمحبين» .

فدهش الافشين ولم يزدد الا هياما بها ، ولكنه تهيب الكلام معها ، فسكت ونهض مستأذنا في الانصراف . ثم خرج وقد غلب على امره وعلم انه لن ينال رضاها . وانما اطاعها وقبل التأجيل فرارا من الفشل .

- ١٠ -

المعتصم و «سامرا»

ظلت جهان واقفة تنظر الى الافشين حتى غادر غرفتها ، فرفعت بصرها

الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل وجه ابيها ، وتنهدت تنهداً عميقا وأحست بضعف مفاصلها كأنها خارجة من عمل شاق فألقت نفسها على الكرسي ، والتفتت الى ما حولها وناجت نفسها قائلة : «آه يـــا جهان . أواه يا عروس فرغانة ! ما الذي دهاني في هذين اليومين ؟. مات ابي ، وحسنت السفر لحبيبي . ولكن لا بأس من سفره حتى لا يعلم بما يضمره ذلك الشيخ الجاهل قبحه الله من ملك صعلوك وتبا له من قائد مغرور ! أيطمع في جهان وهي أبعد عنه من الثريا ؟. مالي لم اقل له ان قلبي لضرغام ؟. ولكني لو قلت ذلك لعرضت حبيبـــي للخطر . حبيبي ضرغام اين انت ؟» . ولما ذكرت اسمه وتذكرت بعده عنها انقبضت نفسها واستسلمت للبكاء . فأطلقت لدموعها العنان وهـــي تحاذر ان يسمع صوت بكائها احد . وكأنها نسيت نفسها وهون عليها البكـــاء آلامها فأغرقت فيه . وفيما هي في ذلك اعادها الى نفسها ان سمعت وقع خطوات مسرعة نحوها ، فالتفتت فاذا بالقهرمانة دخلت مذعورة وقـــد فتحت ذراعيها كأنها تهم بأن تضمها اليها . فترامت جهان بين ذراعيها وقد اخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة : «ما بالك يـــا سيدتي ، ماذا اصابك ؟»

فقالت وهي تتجلد وتمسح دموعها : «أتستغربين بكائي يا أماه وقد فقدت ابي بالامس ؟. ان مصيبتي بفقده مضاعفة !»

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بين جهان والافشين وان لم تسمعه، ولكنها ادركت شيئا منه لما رأت وجه الافشين عند خروجـــه فقالت : «صدقت ان وفاة سيدي المرزبان رزء عظيم ، خصوصا اذا خلفه مثل هذا الوصي !» . وغصت بريقها وهمت بجهان فضمتها وقبلتها وقالت : «انا أعلم سبب بكائك فلا تهتمي ، واعلمي اني أضحي بحياتي في خدمتك . وكذلك كل اهل هذا القصر بل اهل فرغانة جميعا يفدونك بأنفسهم» .

فتخلصت جهان من بين ذراعي خيزران بلطف ، وأشارت اليها ان تقعد الى جانبها ، فجلست وهي ترمق جهان ولا ترتوي من النظر فرأت وجهها تغير من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجد وأطرقت وبدا التفكير في عينيها وجبينها • وطال سكوتها وخيزران مصغية تنتظر ما يبدو منها وما تريد ان تقوله ، وأخيرا وقفت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظرا حادا وقالت : «لا مقام لي بهذه الديار بعد الان !»

فصعقت خيزران عند سماعها ذلك منها ووقفت وصاحت قائلة : «ماذا تقولين ؟»

قالت : «ينبغي ان اترك هذا القصر • يجب ان اسافر حالا» •

قالت : «والى اين ؟ كيف تتركينه وفيه كل مالك وقد ربيت فيه ؟• لمن تتركينه ؟»

قالت : «أتركه للطامعين فيه • أتركه للافشين والموبذ !»

قالت وقد اصفر وجهها وجلا : «كيف تتركينه وفيه ثروتك وأنت صاحبة الامر والنهي فيه ؟»

قالت والحزم باد في محياها : «لا تهمني الثروة ولا الامر والنهي ، وما الفائدة من الجدران والاشجار والاحجار ؟• ليست السعادة بهذه الامور » •

فأدركت انها تشير الى ما تخشاه من مطامع الافشين وهي بعيدة عن ضرغام ، فقالت : «اذا كان ذلك الرجل قد اساء اليك فانبذيه نبذ النواة • لا تعيريه التفاتة فأنت سيدة في قصرك ولن يجرؤ على اخراجك منه» •

فنظرت اليها شزرا وقالت : «هل هو يريدني ان ابقى فيه وأنا التي اطلب الذهاب» •

قالت : «كيف تذهبين يا سيدتي والى اين ؟»

فأطرقت ثم قالت : «اني ذاهبة . نعم ذاهبة .. لا محالة . وأما انت فامكثي هنا !»

فقطعت خيزران كلامها وقالت وهي تشرق بدموعها : «انا ابقى ؟ وماذا أفعل هنا من غيرك ؟. اني بين يديك حيثما تذهبين . وانما اردت ان أعلم الجهة التي تقصدين» .

قالت : «اني ذاهبة الى العراق» .

قالت : «انك تقولين ما يسهل لفظه ويصعب فعله ، أتعلمين المسافة بيننا وبين العراق ؟»

قالت : «لا أعلم . ولكني سأذهب اليها» .

قالت : «انك حكيمة لا تقدمين على امر الا بعد التفكير ، فهل تعلمين ان بيننا وبين العراق مسيرة بضعة اشهر ، يقطع معظمها في البراري الخطرة التي لا يستطيع سلوكها الا القوافل المحروسة لكثرة اللصوص وقاطعي الطرق ؟»

قالت : «مهما يكن من الامر فاني ذاهبة الى العراق» .

قالت : «تبصري يا سيدتي او يا حبيبتي ، وأشفقي على شبابك ولا تعرضي نفسك للهلاك .. ان القاصد الى العراق ينبغي له ان يقطع صحاري قاحلة يكثر فيها اللصوص من التركمان وغيرهم ، وكثيرا ما يعترضون قوافل التجار الذاهبة الى خراسان او فارس فيقتلون اصحابها ويسلبون اموالها فكيف تسافرين انت فيها ؟»

قالت : «أسافر كما يسافر الناس . وسندبر وسيلة السفر» .

فلما لم تر حيلة لارجاعها عن عزمها قالت : «اذا كنت تذهبين الى العراق خوفا من الافشين فالعراق مقره وهو صاحب النفوذ هناك» .

قالت : «لست اخافه هناك ، فان يد الخليفة فوق يده ، وهناك ضرغام ايضا» . قالت ذلك وسكتت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة : «لا أعني ان

أستعين بضرغام عليه ولكنني ألقي هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق . انه يغلبني هنا بجنوده ولكنه هناك لا يقدر على ذلك ، فلا تحاولي ان ترجعيني عن عزمي» . ومشت الى الباب فتبعتها خيزران وقد اخذتها الدهشة ولم تتمالك عن البكاء .

اما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يمينا ولا شمالا وقـــد تمثلت فيها الشجاعة وثبات الجنان ، ولم تجرؤ خيزران ان تعترضها وإلا ان تدخل في اثرها فتباطأت في مشيتها . واذا بجهان تناديها من الداخل فأسرعت اليها فرأتها جالسة على سريرها والحيرة تتجلى في عينيها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق ، فلما دخلت ابتدرتها جهان قائلة : «ألم يعد سامان بعد ؟»

قالت : «كلا يا سيدتي . لم أشاهده هذا الصباح» .

فهزت رأسها وقالت : «تعالي اجلسي بجانبي يا أماه» .

فجلست خيزران وهي تتهيب النظر اليها ، فقالت جهان : «احذري ان يعلم احد سبب سفري ، وأوصي المهتر (قيِّم القصر) بأن يستمر في تعهد أموالنا ومغارسنا ، واخبريه اننا خارجون الى بلد قريب ..»

قالت : «سأفعل ذلك يا مولاتي .. ومتى السفر ؟»

قالت : «في اقرب وقت . وقبل انقضاء عدة الحداد وهي لا تزال طويلة وسأحدده لك . انما أرجو منك ان تعدي ما ينبغي حمله مـــن الامتعة فاننا على سفر طويل» .

فأشارت برأسها مطيعة وسكتت تنتظر ما يأتي به الغد ، وان كانت لا تتوقع رجوع جهان عن عزمها لما خبرته من اقدامها وثباتها وحزمهـــا فتركتها في الغرفة وحدها وخرجت .

قضت جهان بقية اليوم تفكر في اخيها سامان لاحتياجها الى صحبته في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انه لا يقل عنها رغبة فيه . وأصبحت

في اليوم التالي فاذا سامان يقرع باب غرفتها فابتدرته بالعتاب على غيابه فقال : «اذا كان غيابي عنك يوما واحدا قد اقلقك فكيف اذا غبت عنك اشهرا ؟»

قالت : «هل اعتزمت السفر ؟»

قال : «وفيم الاقامة ببلد حرمت من خيراته فأنا غريب بين اهلي . أما انت فانك وريثة القصر والمال فامكثي ودعيني اضرب في الارض» . قال ذلك وهو يتظاهر بالحزن فلم يفتها قصده ولكن سفره وافق هواها فقالت : «وما قولك اذا سافرنا معا ؟»

قال : «أعازمة انت على السفر ايضا ؟» . قالت : «نعم» .

قال : «لا ارى باعثا على شكرك الا اذا كنت تقصدين العراق وهناك ضرغام حبيبك» .

قالت : «نعم انا عازمة على السفر الى العراق . وأنت ؟»

قال : «ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى الا بعد التأهب الكافي ، ولا بد لنا من صحبة قافلة لان الطريق وعر وطويل» .

قالت : «دبر ما تراه وليكن في القريب العاجل» .

فأبرقت أسرة سامان وهو انما بدأ بتلك المقدمة ليسمع هذه الخاتمة لحاجة في نفسه طالما سعى في قضائها ، ولولا رغبة جهان في السفر فرارا من الافشين لانكشف لها غرض اخيها ، ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة في النجاة ، والانسان كثيرا ما يطغى غرضه على تعقله ، فعهدت الى سامان بتدبير امر السفر وأخذت هي وخيزران تستعدان في الخفاء .

* * *

وكان المعتصم قد ترك بغداد وبنى مدينة «سر من رأى» او «سامرا»

على مسافة خمسين ميلا شمالها ، ليقيم بها رجاله الاتراك وغيرهم ، فكانت المدينة الثانية من مدن بني العباس ، وقسمها الى قطائع أقطعها لرجاله وهم فرق تنتسب كل فرقة منهم الى مواطنها التي حملت منها ، فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الاتراك ، وبعضهم من فرغانة ، وبعضهم من أشروسنة او غيرها ، وجعل على كل جماعة قائدا . وأشهر قواده الافشين وأصله من ملوك أشروسنة ، وأشناس وكان في الاصل مملوكا لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه ، وايتاخ ، وسما ، وكانا مملوكين ايضا .

ولما استقر رأيه على بناء «سامرا» أحضر المهندسين والفعلة والبنائين وأصحاب المهن من النجارين والحدادين ، وأمر بحمل الساج والخشب والجذوع من البصرة وبغداد وسائر السواد ، ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ، وأحضر الرخام من اللاذقية .

وأقام قصره وسط المدينة وبجانبه المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصور في بغداد ، وأفرد لقواده قطائع أبعدها عن قصره وعن منازل الناس وأهل الاسواق ، فأقام اشناس في محلة بأقصى شمال المدينة على بضعة أميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد . وأقام الافشين في الطرف الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو تلك المسافة من قصره . وأنشأ للفراغنة قطائع اقرب اليه من سواهم . وكذلك الاتراك والخراسانية والمغاربة . وأمر قواده ان يبنوا المساجد والاسواق في قطائعهم لرجالهم. وجعل لسامرا شوارع موازية لمجرى دجلة تقطعها دروب وأزقة اكبرها الشارع الاعظم يمتد من المطيرة شمالا على موازاة دجلة الى الكرخ ، وتمتد قطائع الناس يمنة ويسرة على هذا الشارع وتتصل اليه بدروب وأزقة تنفذ الى دجلة . وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتصم والمسجد وسوق الرقيق . ويلي الشارع الاعظم شارع اخر على

موازاته يعرف بشارع ابي حمد .

وبنـــي على دجله جسرا يوصل الشاطىء الشرقي بالغربي وأقام في هذا الجانب العمارات وغرس البساتين وحفر الآبار واستقدم مـــن كل بلد اصحاب الاعمال اللازمة للعمارة ، فاستقدم مهندسي الماء وصنـــاع القراطيس من مصر ، وصناع الزجاج والخزف من البصرة ، وأنزل اهل كل مهنة وصناعه مع عيالهم ، وجعل الابنية قصورا حولها البساتين وبينها الميادين . ولما تسامع الناس ببناء هذه المدينة تقاطروا اليها للبيع والشراء، وزاد فيها الواثق والمتوكل وغيرهما ممن خلف المعتصم كثيرا من الابنية الفخمة .

وكان في جملة ابنية الفراغنة بقرب قصر المعتصم بيت متوسط الحجم قائم في حديقة حولها سور ، له باب مطل على دجلة وعنده نخلتان . ولم يكن اهل سامرا يعرفون شيئا عن اهل هذا البيت اذ قلما كانوا يرون فيه احدا غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجه ، على ان القواد كانوا يعرفون انه منزل القائد ضرغام وكانوا يعجبون لرغبته عـــن زخارف الحياة خلافا لسائر القواد او الامراء الذين كانوا يستكثرون من الحاشية والموالي والمماليك . وكان اكثرهم يظنونه وحيدا فيه ، وربما زاره بعضهم اثناء اقامته بسامرا . أما بعد سفره الاخير فانهم انقطعوا عنه اذ لم يبق في البيت احد الا امرأة مكفوفة البصر هي امه ومعها جاريـــة عجوز تخدمها اسمها مسعودة .

- ١١ -

ام ضرغام

كانت أم ضرغام واسمها آفتاب قد كف بصرها في عنفوان شبابها قبل

ذهابها الى فرغانة ، ولم يكن اهل ذلك البلد اكثر معرفة بسابق حياتها من اهل سامرا ، حتى المرزبان وأهل قصره مع طول اقامتها بينهم • فقـــد كانت تكتم أصلها حتى عن ابنها ضرغام ، فكان اذا سألها عن ابيه زعمت انه كان من جند المسلمين وقتل في بعض الوقائع ، وانها نذرت لبس السواد عليه كل حياتها • ولم يصدق ضرغام قولها لما لاحظه من التجائها الى الايجاز عند ذكره ، فألح عليها ذات يوم واستحلفها ان تخبره الحقيقة، فوعدته ان تطلعه عليها فيما بعد ، وكان كلما ذكرها بوعدها استمهلته الى فرصة اخرى • وقضى شبابه في فرغانة وهو يطلب الشخوص الى العراق لينخرط في الجندية او يتعاطى عملا يرتزق منه كما فعل أمثاله من اهل النشاط والذكاء ، فلم توافقه على ذلك الا في الاعوام الاخيرة فجـاء معها وأقام بسامرا ، فظهرت مواهبه وارتقى في الجندية حتى صار رئيس الحرس ، وكان يسألها عن ابيه فتؤجل الجواب •

ولما استأذنها في الذهاب الى فرغانة في مهمته الاخيرة أذنت له وألحت عليه في ان يعجل بالرجوع ، وبقيت في ذلك القصر ليس معها غـــير جاريتها مسعودة • وكانت تقضي نهارها في البيت لا تخرج الى البستان الا نادرا ، والجارية تبذل جهدها في تسليتها ، وقد قضت في خدمتها أعواما عديدة لم ترها ضاحكة قط ، فلم تكن أقل استغرابا لحالها من الآخرين • على انها كانت تحترمها وتحبها حبا جما لما خبرته من لطفهـا وطيب عنصرها ، مع التزامها الصمت الا نادرا •

وكانت آفتاب على كهولتها وابتلائها بفقد بصرها جميلة الخلقـــة خفيفة الروح ، تدل ملامح وجهها على ما كانت عليه في شبابها من الجمال المفرط وكانت رشيقة القوام ممتلئة البدن محتفظة بآثار الجمال رغم ما مر بها من تكاليف الحياة ، فكانت جاريتها مسعودة تبذل جهدها فـــي تسليتها وتروي لها ما تسمعه من الاخبار ، فتلحظ منها الاصغاء لسماع

آخبار الخليفة المعتصم ، ولاسيما بعد ان صار ابنها رئيسا لحراسه • ولم تكن تسمع منها جوابا غير قولها وهي تتنهد : «متى يعود ضرغام ، لقـد طال غيابه» •

حتى اذا جاء البشير بقدومه كان اول من علم به مسعودة ، أخبرها به رسول أنفذه ضرغام قبل وصوله لعلمه ان امه تتلهف لرجوعه • فدخلت مسعوده على سيدتها مهرولة ، ولو تيسر لآفتاب ان ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر • ولكنها حرمت نعمة النظر لا لذنب او مرض وانمـــا قضت عليها بذلك مظالم ذلك العصر ، كما قضت تلك المظالم ايضا بأن تكتم سبب عماها وتخفي حقيقة حالها على كل انسان •

فلما دخلت مسعودة شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدثها قلبها بخبر تحمله اليها فبدت على وجهها ملامح الاهتمام ولم تمهل خادمتها حتـــى تتكلم فابتدرتها قائلة : «ما وراءك يا مسعودة ؟ هل اتى ضرغام ؟»

فصاحت : «نعم يا سيدتي ، من أنبأك بهذا ؟»

قالت: «أنبأني قلبي ! وهل لقلبي شغل سواه • اين هو ؟»

قالت : «انه على مقربة منا» •

فما تمالكت آفتاب عن النهوض فجأة وبدت في محياها علامات البشر ونقطر من بياض عينيها دمعتان سالتا على خديها فتلقتهما بطرف نقابها الاسود ، وصاحت وهي تبتسم : «اتى ضرغام ؟• الحمد لله • متـــى يصل الينا ؟»

قالت : «يصل هذا المســاء ان شاء الله» •

فقالت : «أعدي العشاء» • ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تعثر بشيء ولا يوقفها شيء ، على عادة العميان الاذكياء • فدخلت غرفتهـا وغسلت وجهها وبدلت ثيابها وشغلت نفسها ببعض المهام حتى لا يطول عليها الانتظار •

وكان من توقد ذهنها ورقة شعورها انها تتعرف مكان كل واحد من خدمها في الغرفة او الحديقة وهي جالسة في مجلسها ، فبعد ان فرغت من اصلاح شأنها جلست في الايوان ومسعودة في المطبخ تهيىء الطعام تفكر في قدوم مولاها مفعمة سرورا لفرح مولاتها ، فاذا بها تسمعها تنادي : «مسعودة ..»

فهرولت الجارية تقول : «امرك يا مولاتي» .

قالت : «ان ضرغاما آتي قولي للخدم يخرجوا لاستقباله» .

فعجبت مسعودة لكلامها لانها لم تكن ترى شيئا يدل على ذلك ، فخرجت الى الحديقة فلم تجد احدا فعادت تقول : «لم يأت بعد ولكنه آت قريبا» .

قالت : «اني أسمع وقع حوافر جواد !»

وكانت مسعودة قد تعودت منها كثيرا من أدلة الشعور البعيد ، فذهبت الى البستان وأمرت الخدم بالخروج لاستقبال سيدهم وهي لا ترى احدا قادما ، ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى نظرت الغبار من بعيد وسمعت وقع حوافر الخيل وتحققت قول سيدتها . ولم تمض هنيهة حتى رأت ضرغاما قادما على جواده بلباس السفر . ووراءه تابعه وردان على جواد آخر . فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب الدار وعيناها شائعتان نحو الجهة التي تسمع الصوت منها وهما تجولان بين الاجفان كأنهما تريان شيئا . وانما حركهما محرك البصيرة النقادة ولهفة الوالدة المشتاقة ، ولم تمهلها فسبقتها الى الكلام قائلة : «ألم اقل لك انه جاء ؟! واني أشعر بوقع حوافر جواده يمشي في مفاصلي وكأني أحس بحرارة أنفاسه ، حرسه الله» . قالت ذلك وكأنها تنطق بعينيها وحاجبيها ويديها وبكل جارحة من جوارحها ، فأثر منظرها في مسعودة وخفق قلبها شفقة عليها ، وودت لو تعيرها عينيها لترى بهما ابنها وتفرح

بمنظره •

ولما وصل ضرغام الى باب البستان ترجل وأعطى الخادم زمام جواده . ثم صعد درجات الدار حتى بلغ مكان أمه ، فأكب على يديها يقبلهما . فضمته الى صدرها وقبلته ومشت الى الايوان ترحب به وتكرر تقبيله وتستنشقه وتتفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه بيديها وتتحسس بأصابعها وجهه ولحيته وشاربيه وعينيه كأنها تحدق فيه بأناملها • حتى اذا دخل الايوان جلست على وسادة وأجلسته بجانبها وهي تضمه وتشمه كأنها تخاف ان يخطفه احد من بين يديها . بينما الدمع يتساقط من عينيها وهو لا يعرضها فيما تعمله ليسرها • ثم اخذت تسأله عن صحته فطمأنها وشرح لها تشوقه اليها وانها لم تبرح من خاطره اثناء ذلك السفر الطويل. فأمرت مسعودة ان تهيىء المائدة ، فاستأذنها ضرغام في تبديل ثيابه قبل الطعام فأذنت له ، ثم قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد أنير البيت بالشموع وهي اول ليلة آنير فيها منذ سفره . لان آفتاب في غنى عن الضوء ولم يكن يزورها احد فلم تكن تنار الشموع في غياب ضرغام الا نادرا •

وبعد العشاء خلت آفتاب الى ابنها وآخذا يتحدثان . فاتكأ ضرغام على وسادة . ووالدته بجانبه وهي قابضة بيدها على يده كأنها تعتاض عن المشاهدة باللمس ، وأخذت تسأله عن سفره وهو يقص عليها ما شاهده في طريقه من الغرائب والاخطار حتى وصل الى سامرا في ذلك المساء فقالت : «وهل اقمت بفرغانة كثيرا ؟»

فلما ذكرت فرغانة تذكر اشياء كثيرة فقال : «نعم اقمت بها بضعة ايام» • وسكت مترددا في اخبارها بموت المرزبان فأدركت تردده من صوته فقالت : «قص علي ما رأيته هناك • ماذا جرى ؟»

قال : «ماذا أقص عليك ان القوم يذكرون جيرتك ويتحدثون عنك

كثيرا » .

قالت : «وكيف المرزبان وأهله ؟»

قال : «كلهم في خير الا المرزبان فانه مريض مرضا ثقيلا عجز الطب والاطباء عن علاجه» .

قالت : «أظنه مات . أليس كذلك ؟»

قال : «ذا لم يكن مات فانه يموت قريبا لطول مرضه . والحق يقال انه رجل طيب القلب يكن لك احتراما كبيرا» .

قالت : «اراك تتلطف في ابلاغي خبر موته . رحمه الله . كيف فارقت اهلـه ؟ »

فلم يستغرب ضرغام شعورها بموت المرزبان ، وقد تعود منها مثـل هذا الشعور المرهف ، وأحب الاستطراق الى التحدث عن جهان فقال : «ان اهله في خير فقد ترك لهم مالا كثيرا» .

قالت : «وقد آل هذا الميراث الى جهان على ما اظن» .

فاستغرب نسيانها سامان فقال : «وهل نسيت سامان اخاها ؟»

فأدركت انها كادت تبوح بسر تكتمه ، وبان الارتباك في وجههـا فأطرقت وعيناها ترقصان في وجهها من الحيرة ثم قالت : «لـم أنس سامان ولكنني احسب ان أباه حرمه من الميراث» .

فازداد تعجبه وهو يعلم انها لا تلقي الكلام جزافا فقال : «أتقولين ذلك تخمينا ام ان هنالك سببا تكتمينه ؟»

فقالت : «ربما كان ذلك . وهب اني لم أكتم سببا فلو جاز لي ان اقوله لك لقلته ، دعنا الان من سامان وأخبرني عن جهان عروس فرغانة كيف هي ؟. اني احبها وأعجب بذكائها ولطفها» .

فلما سمع اطراءها جهان شغل بها عن رغبته في استطلاع خبر سامان وطاب له التحدث عن حبيبته فقال : «ان جهان جديرة باعجابك ، وهي

موضع اعجاب الفرغانيين على بكرة ابيهم . اني لم أر مثلها بين النساء ولا مثل جمالها وتعقلها . وكم تمنيت ان يمن الله عليـــك بالبصر لتشاهديها » .

وحينما سمعت اعجابه بها آنست منه ميلا شديدا اليها فقالت : «اراك كثير الاطراء لسجاياها ،ولا ألومك على ذلك اذ لم يفتني من مشتهيات المبصرين في هذه الدنيا الا رؤيتك ورؤيتها» . وتنهدت وقالت : «هذا نصيبي من دنياي وأحمد الله انه أنار بصيرتي ومن علي ببقائك . واذا فاتني ان اراك بعيني فلم تفتني رؤيتك بقلبي . أما جهان فلم احب فتاة مثل حبي لها وهي ايضا مرسومة في قلبي» . قالت ذلك ومدت يدها الى صدر ضرغام وهي تظهر انها تحاول ضمه فأحست بخفقان قلبه فتحققت حبه جهان وهو لا يفقه مرادها ثم قالت : «اني احب جهان يا ضرغام فهل انت تحبها ؟»

فقال : «نعم يا أماه . ولا أظنك ترين بأسا بذلك ، لانك وضعتها في قلبك معي كما تقولين» .

قالت : «لا ارى بأسا . ولكن هل هي تحبك ايضـــا ؟ انها بنت المرزبان وقد كنا أضيافا في قصر ابيها . فربما حسبت نفسها أرفع منك مقاما على عادة اهل اليسار . ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لانها لا تعرف أباك» . ولم تكد تقول ذلك حتى تصاعد الدم الـى وجهها ثم امسكت كأنها ندمت على ما فرط منها .

فقال : «اطمئني يا أماه ، ان جهان تحبني حبا شديدا ، وهي بحمد الله بمنجاة من الكبرياء وقد تعاقدنا على الزواج وهي لا تعرف نسبي ، والآن وقد جرنا الحديث الى ذلك ألا ترين انـــه قد آن لك ان تبري بوعدك ؟ »

فعلمت انه يستنجزها وعدها ليعرف اسم ابيه فقالت : «لم يجـــيء

الوقت يا ولدي ، وسيأتي قريبا . عد بي الى حديث جهان فان خبر خطبتها يفرحني وطالما تمنيت ذلك وأنا احسبه بعيدا . فهل حدث ذلك على يد ابيها ؟»

فقال : «أعترف لك الان بسرنا فقد تعاقدنا على الزواج قبل مجيئي معك الى سامرا ،ولم أبح لك قبلا لاني لم اكن احسب نفسي اهلا لها وأنا يومئذ لا شأن لي ، فلما وفقني الله الى المنصب الذي نلته عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لاعلمها وأتمم العقد على يد ابيها فذهبت فوجدتها عند عهدنا . وكدنا نعقد القران لولا مرض ابيها ووفاته فأجلنا هذا الامر الى فرصة اخرى» .

قالت : «وهل تنوي ان تزوجتما ان تقيما بفرغانة ، ام تأتي بهـــا الى هنا ؟»

قال : «هذا امر منوط برأيك ، فهي لا تخالف لك رأيا ، وكنت قد عزمت على البقاء هناك حتى تنقضي عدة الحداد فأعقد القران وآتي بها الى هنا . فجاء امر الخليفة يستعجلني الرجوع ، ولقيتها قبل سفـري فحبذته على ان نعمل بما نراه بعد ذلك» .

فأبرقت أسرة آفناب وابتسمت وقالت : «أحمد الله على هذا التوفيق وأطلب اليه ان يتم نعمته عليك بما في خاطري لتكون أسعد الناس» .

فعلم انها تشير الى سر ابيه فقال : «اني أسعد الناس بك . ولكن..»

فخافت ان يستأنف سؤالها عن ابيه فقطعت كلامه وقالت : «لمـــاذا استعجل الخليفة قدومك ؟»

قال : «لم أعلم بعد ، ولعله سيرسلني في مهمة عسكرية . هــل علمت شيئا عن هذا ؟»

قالت : «لم أسمع شيئا في غيابك لاني لم اكن أعلم احدا غـــير مسعودة» .

فقال : «وهل بعث في طلب الافشين ايضا ؟»
قالت : «لا أدري . اين هو الافشين الان ؟ أليس في سامرا ؟»
قال : «كلا اني لقيته في فرغانة» .
فأطرقت كأنها تفكر في امر خطر لها ثم قالت : «ان الافشين كان صديقا حميما للمرزبان . هل شهد موته ؟»
قال : «نعم . شهده وقد اقامه المرزبان وصيا على اهله بعده» .
فابتسمت ابتسام مطلع على أمور سابقة تؤيد ما قاله . فلحظ ضرغام ابتسامها فقال : «ما بالك تبتسمين ؟ هل عرفت شيئا عن هذا الامر من احد غيري ؟»
قالت : «لا ، ولكنني تذكرت اشياء كنت سمعتها من صديقتي ام جهان رحمها الله . فقد كانت تسر الي كل ما يهمها . وأنا ايضا كنت أكاشفها بأسراري . وكثيرا ما شكت الى ثقة زوجها بالافشين وهي لا تثق به لما تعلمه من جشعه وطمعه ولكنها لا تجسر على اعتراض المرزبان في اعماله» .
فلما سمع ذكر الجشع والطمع شغل باله لان الرجل اصبح وصيا على تركه كبيرة ربما تلاعب بأموالها ولكنه كان حسن الظن بالناس لسلامه طويته ، فأكبر ان يطمع ذلك القائد العظيم في مال أقيم وصيا عليه فقال:
«هل تظنين الافشين يمد يده الى شيء من التركه ؟»
قالت : «لا أدري . ولكنني ذكرت لك ما كانت تسره الي تلك المسكينة . وهي التي أسرت الي ما علمته عن سامان وسبب حرمانه من الارث» .
فانتبه ضرغام لشيء لحظه من سامان فقال لها : «لا شك ان سامان نفسه كان عالما بنية ابيه ، ولذلك كان يبذل جهده في منع الوصية فكان كلما بعث به ابوه لاستقدام الموبذ ، لم يفعل وانتحل أعذارا غير مقبولة!»

قالت : «وهل كتبت لوصية على يد الموبذ ؟»

قال : «نعم وأنا ارسلت وردان للمجيء به» •

فهزت رأسها وقالت : «أنعم به من موبذ ! وهكذا ايضا كانت تلك المسكينة تستثقل ظله وتنفر من رؤيته فاذا زارهم في عيد هربت من الايوان حتى لا تلتقي به • وقد أذكرتني وردان • اين هو ؟»

قال : «هنا عندنا ، وأظنه نام الان لانه متعب من السفر • انه والحق يقال همام غيور كنت كثير الاعتماد عليه في شؤوني • وأنا لا أدعوه خادما فهو أولى ان يدعى صديقا لانه أرقى كثيرا من طبقة الخدم، ولعل له شأنا» •

فقالت: «احتفظ به فقد يكون شهما خانه الدهر والدهر بالناس قلب» • ثم انتبهت الى ان قد دنا موعد الرقاد ، ولاسيما انه متعب من السفر فقالت : «اذهب يا حبيبي الى فراشك ، وغدا تخرج بحراسة الله الى المعتصم ، وأرجو ان تلقاه وأنت في خير وعافية» • قالت ذلك ونهضت وذهب كل الى فراشه •

- ١٢ -

المعتصم والاسد

نهض ضرغام في صباح اليوم التالي ، فقبل يد أمه وأفطر ، ثم ارتدى الثياب التي يدخل بها على الخليفة وأهمها : القلنسوة حولها العمامة ، والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القباء

والسراويل . وتقلد السيف ، ثم ركب جواده ، وركب وردان في اثره ، وسارا يلتمسان قصر الخليفة .

وكان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من سامرا ، ويقال له الجوسق ، ويحتوي على ابنية عدة يضمها سور واحد . وقد قلد في بنائه طراز الأكاسرة في المدائن فجعل بابه الخارجي مثلث القناطر : القنطرة الوسطى كبيرة لمرور الفرسان ، والى كل من جانبيها قنطرة صغيرة يمر تحتها المشاة . ويستطرق الداخل الى حديقة كبيرة بها ابنية كثيرة اكبرها البناء الذي يقيم به المعتصم ، وبقية الابنية للحاشية وفي جملتها بناء للاضياف وآخر للسباع . فقد كان المعتصم مولعا باقتنائها وكثيرا ما يخرج لاقتناصها .

وصل ضرغام الى ذلك القصر في الضحى ، فلما أقبل على الباب وقف له الحرس وحيوه ، فدخل على جواده ، وترجل وردان وقاد فرسه في أثره اما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فأخذ وردان فرسه وساق الفرسين الى الاصطبل ، فرحب الحاجب بضرغام ولما سأله عن المعتصم قال : «لقد خرج امس للقنص ولم يعد بعد» .

قال : «وهل تظنه يعود الان ؟»

قال : «لا يلبث ان يأتي» .

فأدخله الحاجب الى قاعة يستريح فيها ، ووقف بين يديه وأخذ يرحب به ويسأله عن سفره ، فطمأنه وسأله عن الاحوال الجارية لعله يفهم سبب طلبه فلم يجد ما يشفي غليله . ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما أحدث في القصر من الرياش الجديد . ثم رأى ان يخرج الى الحديقة يتفرج على ما فيها من الاشجار والرياحين فرافقه الحاجب الى بعض اطرافها واذا بأهل القصر في هرج ومرج وصاح بعضهم : «عاد الخليفة» . فتحول القوم نحو الممر المؤدي الى القصر وأخذت طلائع الموكب تتقاطر

بين فرسان ومشاة ثم أقبل الخليفة على جواده وعليه لباس الصيد فوق الدرع التي يلبسها اذا خرج للصيد خوفا من وثوب السباع او غيرها من الضواري .

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية ابيض أصهب مشربا حمرة تلوح الشجاعة في وجهه وتتجلى القوة العضلية في بدنه . وبلغ من فوته انه كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات . واذا اعتمد باصبعيه السبابة والوسطى على ساعد انسان دقه . وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقا ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته . وكان غضوبا شديد النقمه منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة . فلما وصل الى باب القصر ترجل وحيى الوقوف وأكثرهم من القواد والفرسان ، فوقع بصره على ضرغام فهش له وحياه فأسرع ضرغام اليه وهم بتقبيل يده . فمنعه وقال : «انت هنا» .

قال : «جئت يا مولاي طوعا لأمرك» .

قال : «وددت لو كنت البارحة معي في هذا الصيد» .

قال : «وأنا أشتهي ذلك يا امير المؤمنين .. لا زلت ظافرا غانما» .

وبعد ان حول الخليفة وجهه نحو القصر رجع كأنه تذكر شيئا وأشار الى الوقوف فانصرفوا واستبقى ضرغاما وقال له : «سأذكر لك الان شيئا يسرك . فقد اصطدت اسدا هائلا . ولا ارى اسدا الا تذكرتك لانك تسمى ببعض أسمائه» . ثم اشار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له : «قل لاصحاب الصيد ان يأتوا بالاسد الى تلك المصطبة» . ومشى الخليفة الى مصطبة في بعض جوانب الحديقة وهو يراعي ضرغاما ويكلمه، واغتنم فرصة الانتظار وأخذ يسأله عن سفره قائلا : «عسى ان تكون قد وفقت في هذه الرحلة الى ما يسرنا» .

قال : «صدعت بأمر مولاي فرافقنا توفيقه فابتعنا الجواري ...»

فقطع كلامه قائلا : «انت ابتعتهن ؟»

قال : «كلا يا مولاي فليس لي ان اكون تاجرا ، ولكنني ساعـدت الجماعة في ابتياع ما يلزم وسيصلون هنا عما قليل ، وانما تعجلت المجيء طوعا لامر امير المؤمنين» •

فلما قال ذلك بدا الاهتمام في وجه المعتصم وأطرق ثم قال : «ستتكلم في هذا بعد قليل» • والتفت الى باب الحديقة فأبرقت أسرته . وأشار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون قفصا من قضبان الحديد علـــى اعمدة • وفي القفص أسد هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه • فقطب ضرغام حاجبيه تهيبا وكأن شيئا جاش في خاطره اذ تمثلت له الشجاعة في وجه ذلك الحيوان المفترس •

فلبث المعتصم واقفا ، فلما اقتربوا بالقفص آمرهم بوضعه ، فوضعوه ارضا والاسد يزأر زئيرا تصطك له المسامع ، فقال المعتصم : «انه يزأر من شدة الالم لاني رمينه بنبل اصاب ليته وأخشى ان يموت منه . مع اني احب ان يبقى حيا لأتمتع بلذة هذا الصيد كلما رأيته» • قال ذلك ومشى الى القفص وضرغام بجانبه الى الوراء تأدبا حتى اصبحا على بضع أذرع من الاسد • وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الاسلحة سواه لان صاحب لباسه اخذ اسلحته ساعة وصوله واستبقى النبل بيده ينشاغل به• فلما دنا من القفص اخذ يداعب الاسد ويشير اليه بالنبل كأنه يهم بضربه والاسد يزأر ويتململ والدم يقطر من ليته وقد جمد بعضه على صدره وقائمتيه واحمرت عيناه وتناعستا ، فظن المعتصم انه سيموت فرمى النبل عليه لمداعبته فأصاب عينه فهب الاسد غضبا وألما ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد اشتد غضبه كأنه جن ، والمعتصم وضرغام ينظران اليه مستهزئين وقلباهما يخفقان ، فان للاسد رهبة حتى في حالة الاحتضار •

وفيما هم في ذلك وضرغام يتفرس في الاسد رائيـــا لما اصابه اذا بالاسد يضرب جانب القفص برأسه ضربـــة قوية حطمت منه قضيبين وأحدث فرجة نفذ منها خارجه ، فذعر الناس وفروا مسرعين يطأ بعضهم بعضا ، ما عدا ضرغاما والخليفة . ولم تكن الا لحظة حتى هجم الاسد على الخليفة ممسكا ذراعه بمخالبه ، وفتح فمه وهم بأن يلتقم رأسه ، فبغت المعتصم ، وذهبت قوته وأيقن بالهلاك ، اذ لم يجد شيئا يدفع به عن نفسه ولا وسيلة للنجاة من براثن الاسد وقد ولى الناس فرارا ورعبا. على ان ضرغاما ثبت في موقفه وانقض على الاسد فقبض على فكـــه الاسفل بيد وعلى الاعلى باليد الاخرى ، وهو يقول : «لبيك يا مولاي. سلمت باذن الله» . وما عتم الخليفة ان سمع تمزق شدقي الاسد . وشعر بأن ذراعه تخلصت من مخالبه ثم رآه يهجم على ضرغام ، ولكن هذا استل خنجره ومضى يطعنه في ليته وخاصرته وتحت ابطه ، وقد غلبت عليه سورة الغضب حتى اصبح منظره أشد رهبة من الاسد فوقف شارباه واحمرت عيناه وتقطب حاجباه .

وكان الجمود قد استولى على الحاضرين ، ولكنهم لما رأوا الاســد مضرجا بدمه وضرغام فوقه والخليفة واقف وعيناه شائعتان الى ضرغام تقاطروا راجعين وعلا صياحهم يهنئون الخليفة وينظرون الى ضرغـــام معجبين . وابتسم المعتصم لضرغام والاصفرار غالب على سحنته من أثر البغتة ، وقال : «بورك فيك يا ضرغام .. انك والله ضرغام حقيقة» .

فلما سمع اعجاب الخليفة به رجع الى رشده فوقف والخنجر في يده يقطر دما . فرماه وقال : «اني عبد امير المؤمنين ولم أفعـــل شيئا الا ببركته ، وانه أولى مني بالانتقام من هذا الوحش . ولو انفرد به لقتله ولكنني غلبت على رشدي فلم أستطع صبرا على ما رأيته من جرأته فنبت عن مولاي بقتله ، وهي جرأة أستغفر لها» .

فأعجب المعتصم بأسلوبه في الاعتذار وشكره ، ورأى ان يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة يختليانها ، وهم بالمسير فأحس بألم في ذراعه من أثر مخالب الاسد ولكنه تجلد ومشى وأمــــر القوم بالانصراف ، وتحول مع ضرغام الى قصره وأمر الحاجب ان يمنع الدخول عليه في ذلك اليوم الا للطبيب الذي أمر باحضاره ، فلما اتى هذا وكشف عن الجرح لم يجده يستحق الاهتمام لان الدرع صانت موقع المخالب . فهنـــــأه بالسلامة وأشار عليه ان يلزم الفراش بقية ذلك اليوم .

* * *

وتسامع اهل الجوسق بما وقع للخليفة ، فتقاطر الوزراء والقــواد للسؤال فأنبأهم الحاجب بما أوصاه به فرجعوا . ثم دعا ضرغاما الـى مخدعه فدخل بعد ان غسل يده وأصلح من شأنه ، فتحفز المعتصـــم للوقوف له اظهارا لاعجابه ، فأكب ضرغام على يده يقبلها ، ثم أمـــره الخليفة بالجلوس بجانبه فجلس متأدبا ، فقال له : «ان حياتي الان من يدك يا ضرغام» .

فأطرق ضرغام استحياء وقال : «عفوك يا مولاي اني لم أفعل مــــا يستحق هذا الاطراء فانما نبل امير المؤمنين أردى الاسد من قبل ، وما وثوبه هذا الا من حشرجة الاحتضار . وهب اني اتيت شيئا فأنا عبد امير المؤمنين أفديه بدمي» .

قال : «بورك فيك . اني طالما أعجبت بسالتك واخلاصك وأنا محاط بالمداهنين والملقين لا أثق الا بقليلين ، وان كنت اظهر وثوقي بهــــم جميعا . وان قائدا مثلك يندر في بلاط الخلفاء في مثل هذا الجيـــل الفاسد . ولم اكن أجهل اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حرسي

فأنت جدير بهذا المنصب ولا يليق الا بك» . ثم التفت الى الباب ثم الى النافذة كأنه يتفقد المكان ليتحقق خلوه من الرقباء وأطرق وضرغام ساكت يسترق النظر اليه ، ثم رفع المعتصم رأسه وقال : «أتعلم لماذا استعجلت مجيئك من فرغانة ؟» . قال : «كلا يا مولاي» .

قال : «أتعلم ان دولتنا قامت على كتم الاسرار» .

قال : «نعم أعلم ذلك ، وليتأكد مولاي اني أحفظ لسره من صدره» .

قال : «اني وثقت بك لاخلاصك وحسن بلائك منذ رأيتك للمرة الاولى وقد شعرت بشيء حببك الي» .

فتحفز ضرغام للوقوف اجلالا وشكرانا وقال : «تلك منة لا أستحقها ، ومن اين لجندي مثلي ان ينال هذه الحظوة عند امير المؤمنين ؟ وأي فضل لي اذا اخلصت الخدمة لخليفة الرسول ؟ أليس ذلك فرضا على كل مسلم ؟ »

فقال وهو يقعده بيده : «بلى . ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ، ولولا ذلك ما اضطررت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة ولا كان ثمة ما يدعو لتجنيد هؤلاء الاجناد من اقصى تركستان وفرغانة لأستعين بهم على قومي وعشيرتي ، وعلى اولئك الفرس الذين أطمعهم اخي المأمون في الدولة . اني محاط بالاعداء من كل ناحية . وكأنه ما كفاني الاعداء الأباعد في آذربيجان وطبرستان حتى ابتليت بهم في مدينتي وفي قصري ! . حتى هؤلاء الاتراك الذين جعلتهم بطانتي وعهدت اليهم في حمايتي ونصرة هذه الدولة ، لا ينصرونني الا طمعا في المال ! . وأنا انما أسايرهم وأخادعهم وأنفق الاموال فيهم ، وهم يظنون انهم يخدعونني !» . وسكت وبدا الجد في عينيه فأبرقتا بريقا يوهم الناظر اليهما ان الدمع يغشاهما فتهيب ضرغام من ذلك وأطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة فاستأنف هذا كلامه وقال : «ضرغام . هل

رأيت الافشين في فرغانة ؟» . قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «وما الذي ذهب به الى هناك ؟»

قال : «لم يخبرني عن سبب ذهابه ، ولكنني أظنه ذهب ليتعهد بلده وأهله في عيد النيروز . وأظنه قادما قريبا» .

قال : «انه قادم لا شك ، لانه لا يجد رزقا اوسع من هذا ولكن..»

قال : «وهل امير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟»

فقال : «اني اكاد ألمس ذلك بيدي ولكني أغالط نفسي وأظهر الثقة به ، لاننا في حرب لا غنى لنا فيها عن رجاله ، وليتني كنت مخطئا فالذي أبغيه منك الان ان تكون موضع سري وألا تفارق قصري» .

فأجابه على الفور : «اني عبد امير المؤمنين وطوع اشارته» .

قال : «انت منذ الان صاحبي فانه وان كان اسمك أليق الاسماء ببسالتك فقد اخترت لك اسم «الصاحب» لانك مصاحبي . فهمت يا صاحب ؟ »

فحنى ضرغام رأسه شكرا وقال : «لقد تكاثرت علي نعم امير المؤمنين ، ولا اراني اهلا لها ولكنه اراد ان يرفع صنيعته و ..»

فقطع الخليفة كلامه قائلا : «كيف لا تكون اهلا لذلك وقد أنقذتني من براثن الاسد ؟»

فأطرق ضرغام استحياء وقلبه يرقص طربا لما يتوقع من فرح جهان بارتفاعه في نظر الخليفة ، وبأنه صار اهلا لها بحق ــ والمحبون انما يطلبون العلا ارضاء لأحبائهم ــ ونظر الى الخليفة وقال : «لم أعد استطيع الشكر على نعم مولاي» .

فقال : «اذا كنت تعد هذه نعما ، فكيف بما أعددته لك من النعم الحقيقية ؟ »

فظل ضرغام ساكتا واستأنف الخليفة الكلام قائلا : «علمت انك لم

تتزوج بعد وانك تقيم مع والدتك • فأردت ان تقيما بقصر خاص بجوار هذا القصر ، وقد آن لك ان تتزوج • أليس كذلك ؟»

فأطرق ضرغام ادبا وقال : «الامر لمولاي» •

قال : «لقد استحسنت لك جارية تركية عرفت فيها الذكاء والجمال• رأيتها منذ عام وبعض العام فأضمرت ان أزوجك منها» •

فلما سمع ضرغام كلامه سقط في يده ، لان قلبه ليس له ، وقد احب جهان ولا يريد ان يحب سواها ، ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكتا وقد حار في امره •

فرأى المعتصم حيرته ، ولم يدر في خلده انه يمتنع • فقال : «لماذا لا تجيب ؟ ألم يرقك اقتراحي ؟»

قال : «كيف لا • ان جوار امير المؤمنين أمنية الاماني» • وسكت عن الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال : «والزواج •• لعلك لست كسائر الناس ؟ ليس في جندي واحد لا يتمنى الزواج ولذلك تراني أبعث في ابتياع الجواري لهم من تركستان ، لاني لا أريد لهم ان يختلطـوا بالسوقة ببغداد وغيرها فيغلب عليهم التخنث • أم لعلك تؤثر ان تختار جارية من الجواري اللواتي ابتعتموهن في هذه الرحلة • ولكنك لن تجد في تركستان كلها فتاة اجمل من التي اخترتهـا لك ولو جهدت • ويكفي ان اختياري وقع عليها • وقوادي يتنازعون عليها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصصتك بها دونهم !»

فلم يجد ضرغاما سبيلا للقبول او لابداء ما يجول في خاطره ، ثم تشجع وقال : «اننا في حرب او في تأهب لحرب ، ومتى فرغنا من ذلك فاني عبد امير المؤمنين» •

فاكتفى المعتصم بما سمعه وأعجبه منه تأهبه للحرب فقال : «وهب اننا في حرب فلست تفارق قصري • وأت بأمك وأهلك الى هنا وأخبرها

ان اسمك من اليوم (الصاحب) وسأوصي بطانتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك» • ثم تزحزح من مكانه فتحفز ضرغام للنهـوض وقال : «أيأذن امير المؤمنين في ان اذهب لأخبر والدتي بما أمر ؟»

قال : «سر اذا شئت وستهيىء القهرمانة لكم المنزل اليوم» •

فمشى ضرغام ووجهه الى المعتصم حتى خرج • ثم أرسل الى وردان فجاءه بالفرس فركبا قاصدين الى البيت وضرغام تتقاذفه الافكار ، وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته ليقيم بقربه كما ساءه امر الزواج ولكنه لم يعلق عليه كبير شأن اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه •

فلما وصل الى منزله تلقته امه بالترحاب وسألت وردان عن حالـه وكانت قد أعدت الطعام فجلست معه الى المائدة ، وشعرت من سكوته ان تغييرا طرأ عليه فقالت : «هل لقيت امير المؤمنين ؟» • قال : «نعـم يا أماه» •

قالت : «كيف حاله وهل اخبرك بسبب تعجيله باستقدامك ؟»

فأبطأ في الجواب لانه خاف ان قال لها كل شيء ان يخلف الوعد ويبوح بالسر ثم قال : «اخبرني ، ولكن حدث امر غريب» •

قالت : «ما هو ؟» • فقص عليها خبر الاسد وما كان من دفاعه عن الخليفة ، فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها • ثم اخبرها ان الخليفة غيَّر اسمه وسماه «صاحب» وذكر لها السبب فازداد سرورها ، ثم قال : «وقد دعاني للاقامة بجواره» •

وكانت تهم بلقمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت كلامـه ارتبكت وشخصت بعينيها البيضاوين اليه وقالت : «دعاك للاقامـة بجواره ؟• لمـاذا ؟ »

قال : «لاكون ملازما له • وذلك اكرام عظيم» •

قالت وقد توقفت عن ازدراد ما فيها من الطعام : «وهـل يريد ان

اكون انا معك ايضا ؟»

قال : «نعم فقد قال لي : (تسكن انت وأمك هنا)» .

فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبان قلقها من تسرعهـــا فيه وقالت : «اذهب انت وحدك ، ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة» .

قال : «ولماذا يا أماه ؟» اذا كنت لا تريدين الذهاب معي فأنا ايضا لا أذهب» .

قالت : «اذهب انت فان القرب من الخليفة شرف يتمناه القواد ، وأما انا فأمكث هنا على ان تتردد علي حينا بعد آخر لألمسك وأقبلك» .

فعجب ضرغام من استنكافها وابائها وقال : «بل تذهبين معي فنقيم هناك كما نقيم هنا ، وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى الاخلاف» .

فوجمت حينا ثم قالت : «ننظر في ذلك» .

قال : «ليس في الوقت متسع فاننا ذاهبون غدا ، فقولي لمسعودة تستعد ، وسأوصي وردان بأن يساعدها . ولا ريب انك ستأنسين بمن في قصر الخليفة من النساء فتقضين النهار في الحديث او سماع الغناء . وذلك خير من بقائك وحيدة هنا . هذا فضلا عن حاجتي الى وجودك هناك لأمر يهمني» .

فصعد الدم الى وجنتيها وتغيرت سحنتها وأدارت عينيها دورة تكاد تنطق بما اعتراه من الارتباك ، وقالت : «أما الاستئناس فلا أبغيه مـــن سواك فأنت تعزيتي الوحيدة لا اطلب سواها بل انا أشترط عليك اذا كان لا بد من ذهابي ان يكون لي الخيار في البقاء بالمنزل او الخروج منه . ولكن ما حاجتك الي وأنا مكفوفة البصر كما ترى ؟»

قال : «انت ضوئي ، وستكونين عوني على انقاذي من السعادة التي أعدها الخليفة لي» .

قالت : «انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعني ؟»

قال : «أعني ان الخليفة خطب لي جارية تركية ذكر انها اجمل نساء هذه المدينة واختصني بها دون قواده» .

قالت : «وبماذا اجبته ؟» . قال «أجلت الجواب لاني استحييت ان أرفض » .

قالت : «هل نويت الرفض ؟» قال : «وهل أقبل ؟»

فسكتت وذكرت انه عالق بجهان فقالت: «وكيف ترفض امر الخليفة؟»

قال : «وجهان ؟ أليست خطيبتي ؟»

قالت : «لذلك تريدني ان اكون معك ؟ . عسى ان أحتال لانقاذك من هذه الورطه . ذلك شيء يسير» .

فانشرح صدره وقال : «اذن غدا ننتقل جميعا . واحذري ان تناديني ضرغاما فان الخليفة قد سماني (الصاحب) وقد يساء اذا دعيتني بغير ما سماني » .

قالت : «لك علي ذلك» . وكانوا قد فرغوا من الطعام فأمرت مسعودة بالتأهب ، وأمر وردان بمساعدتها . وفي اليوم التالي انتقل الجميع الى قصر الخليفة وأقاموا بمنزل بجانبه وليس معهم من الخـــدم الا وردان ومسعودة . اكتفاء بخدم الخليفة .

- ١٣ -

احمد بن ابي دؤاد

قضى الصاحب في جوار الخليفة اياما يتوقع ان يسمع خبرا عن جهان

او نبأ بقدومها ، وقد ازداد رغبة في مجيئها لتنقذه من الجارية التـــي اختارها الخليفة . ولم يداخله شك في ان الخليفة اذا رأى جهان زهد في سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذ اذا ابى الزواج بسواها . وطال غيابها واستبطأها فقلق لتأخرها وانقطاع أخبارها وضاق صدره عن كتمان القلق ، فاستدعى وردان ذات يوم وقال له : «ما قولك في اهل فرغانة ؟»

فقهم وردان قصده وقال : «أتعني مولاتي جهان ؟»

قال : «أعني اني كنت على موعد معها هنا بعد انقضاء الحداد ، ولكنها لم تأت ولا سمعنا عنها خبرا ، فما رأيك ؟»

قال : «أتريد ان اذهب للبحث عنها ؟»

فأعجب الصاحب بتفانيه في خدمته وابتسم وقال : «بورك فيك يا وردان ، لا أكلفك هذه المشقة ولكنني استشيرك في الامر» .

فأطرق وردان يفكر ثم قال : «الرأي عندي ان نصبر مدة اخرى حتى يأتي مولانا الافشين من فرغانة» .

قال : «ومتى يكون هذا ؟»

قال : «جاءت البشائر بقرب وصوله ، فاذا جاء سألناه او سألنـــا بعض رجاله» .

فاستحسن ضرغام ذلك ، وقال له . «ارى ان تتولى انت امر البحث من بعض رجال الافشين» .

قال : «فهمت مرادك» .

فضحك الصاحب (ضرغام) وقال : «لا تكتم رأيا ترى فيه نفعا لي. واعلم اني أعدك رفيقا لي لا خادما فأنت ارقى من ذلك كثيرا» .

فأطرق وردان احتراما وقال : «انا خادمك أتفانى في خدمتك . اتأذن لي في ان أذهب للقاء حملة الافشين قبل وصولها ؟» . قال : «افعل ما يبدو لك» . فودعه وخرج .

ومكث ضرغام ساعة في القصر ، ثم جاءه رسول المعتصم يدعوه اليه: فلبس سواده وذهب الى القصر فقيل له ان الخليفة في خلوة مع قاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد في دار الخاصة .

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابي دؤاد عند الخليفة . وانه لا يختلي به الا لامر ذي بال ، فاستأذن ودخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في صدر القاعة ، وأحمد بن ابي دؤاد على كرسي بين يديه .

وكان احمد هذا معروفا بالمروءة وبعصبيته العربية اذ كان ينتسب الى بني اياد ، ولكن المعتصم وان أبعد العرب من مجلسه وقطع اعطياتهم وحط من أقدارهم واختص الاتراك ببطانته . كان شديد الثقة به لا يمضي امرا الا بمشورته ولا يشاور وزراءه .

وكانت نشأة ابن ابي دؤاد في قرية من أعمال قنسرين . ثم هاجر ابوه الى الشام للتجارة فأخذه معه اليها وهو غلام ، فنشأ في طلب العلم ولاسيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه ، واصبح معتزليا فصيحا قوي الحجة . ونال عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما احد . حتى صار يفتتح الكلام في حضرته وكانت العادة عند الخلفاء ألا يبدأهم احد بالكلام . ومن أمثلة دالته هذه ان المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد الشيباني وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه وأسباب اخرى . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضي احمد فشفع فيه فلم يجبه المعتصم . فلما جلس لعقوبته حضر القاضي احمد فجلس دون مجلسه الذي اعتاده فقال له المعتصم : «يا أبا عبد الله لم جلست في غير مجلسك؟ » . قال : «ما ينبغي لي ان أجلس الا دون مجلسي هذا !» . فقال له : «وكيف ؟» . قال : «لان الناس يزعمون ان ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع» . قال : «فارجع الى مجلسك» . قال : «مشفعا او غير مشفع ؟» . قال : «بل مشفعا» .

فارتفع الى مجلسه . ثم قال : «ان الناس لا يعلمون رضى امير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه» . فأمر بالخلع عليه فقال : «يا امير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة اشهر لا بد ان ينالوها ، وان أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة» . فقال : «قد امرت بها» . فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وكان الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل : «الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب» . فقال له: «اسكت : سيد العرب والله احمد بن ابي دؤاد» .

ولم يكن نفوذ ابن ابي دؤاد خافيا على ضرغام ، فلما دخل على المعتصم وهو عنده علم انه دعي لامر ذي بال ، فلما أقبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة قائلا : «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

فهش له المعتصم وناداه وأمره بالجلوس بجانب ابن ابي دؤاد وهو يقول : «مرحبا بالصاحب» . ثم التفت الى القاضي وقال : «أظنك تستغرب تسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رأيك فيه فقد طالما اثنيت على شهامته واخلاصه وقد رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض نفسه للموت لاجلي . انه انقذني من براثن الاسد ببسالته فقربته وسميته الصاحب وأسكنته بعض قصوري» .

وكان ابن ابي دؤاد في نحو الستين من عمره وقد خط الشيب لحيته وعارضيه ، فازداد اجلالا ووقارا وهو يلبس زي القضاة : العمامة الطويلة ، والطيلسان الرقيق ، فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه ، والتفت الى المعتصم فقال : «ألا يرى امير المؤمنين حسن ظني في محله ؟. اني أنزلته من نفسي منزلا رفيعا يوم رأيته ، وتوقعت له مستقبلا مجيدا . أعانه الله على خدمة امير المؤمنين» .

فقال المعتصم : «وبناء على ذلك ارى ألا تخفي عنه ما يدور بيننا» .

وكان ضرغام جالسا متأدبا ينتظر امر الخليفة فقال الخليفة : «اعلم يا صاحب اني كنت والقاضي نتشاور فيما بلغنا من أخبار ذلك المجوسي في أرمينيا» .

فأدرك ضرغام انه يعني بابك الخرمي القائم على الدوله في أردبيل . وكان عالما بانتقاضه وبوقائع جرت بينه وبين جند المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل امره فقال : «وهل أحدث هذا الرجل حادثا جديدا ؟ »

فقال القاضي : «لا يخفى عليك ان بابك الخرمي تمرد على امير المؤمنين بأرمينيا . فرماه بالافشين ورجاله مرة . وبغيرهم مرة اخرى . والشقة بيننا وبين أرمينيا واسعه فكانت الحرب سجالا ولا يزال الرجل معتصما هناك وأمير المؤمنين ..» . وسكت ونظر الى المعتصم فأتم هذا كلامه قائلا : «قلت لك يا صاحب اني لا أثق بالافشين هذا ولا أعلم كيف أستغني عنه وقد رأيته انت في بلاده بين اهله وعشيرته فكيف وجدته ؟ »

قال : «ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع ، فهم يعدونه ملكا كبيرا ويسمونه ملك الملوك وبعضهم يخاطبه باله الآلهه كما كانوا يفعلون قبل اسلامه ، ولعله الان يستنكف من هذا . وقد رأيت يا امير المؤمنين من سلطانه شيئا عظيما حتى يجتمع لندائه ألوف الالوف من الرجال . واذا رأى امير المؤمنين ان يخلعه فانه فاعل ما يشاء ، واذا شاء ان يرمي بي في مكانه بذلت دمي وروحي في خدمته . ولا أزعم اني اقدر من ذلك الرجل ولكنني طوع امير المؤمنين والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء» .

فقال القاضي للمعتصم : «ان الصاحب يبدي اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ، ولكنه لو سئل عن عاقبة هذا التبديل لما جهل الخطر الذي

يترتب عليه . لا ارى ان يعلم الافشين او احد من رجاله بما يجـــول بأذهاننا عنهم ، واذا أذن امير المؤمنين أبديت رأيا لعل فيه نفعا» .

فقال : «قل ما بدا لك» . والتفت الى ضرغام وقال : «ان القاضي أحمد يحل لدينا محل الوزراء والمشيرين ، فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد ولكنني لا اثق بأحد منهم وثوقي به . قل ايها القاضي» .

فقال : «ان الافشين ملك في بلده وعنده الجند والاعوان ، وقــد رضي ان يخدم امير المؤمنين طمعا في المال . ويتحدث بعض الناس بأنه لا يخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لشأنه لانضم الى بابك وحاربنا . وهو اذا صح اسلامه فانه لا يزال حديثا فيه ، فاذا جافيناه انقلب علينا ، واذا اتحد مع بابك اصبحا خطرا علينا مما لا يخفى على امير المؤمنين . والذي اراه ان نظهر له ثقتنا باخلاصه ونشتريه بالمال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرد في أرمينيا ، فاذا غلبوه كفونا شره ، واذا اتضح لامير المؤمنين بعد ذلك ان الافشين خائن ، سهل علينا الاقتصاص منه اذ يكون وحيدا . واذا أخلص حقا نال ما يستحقه» .

فلما سمع ضرغام كلام القاضي ادرك ان الرجل ينطق عن تعقـــل ودهاء ، ولو ترك هو لرأيه لم يصل الى هذا الحكم لانه من اهـــل الشجاعة وليس من اهل الرأي ، ويندر اجتماع الشجاعة والرأي في واحد . ثم قال الخليفة : «ارى قاضي القضاة يغالي بقوة هذا الفارسي او الأشروسني ويخشاه ، وفاته من في جندنا من القواد العظام وكل منهم يدفع عن دولتنا برجاله وعدته» .

قال : «صدق امير المؤمنين . فعنده أشناس التركي وايتاخ وبغا وسما وغيرهم ، ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لاحد منهم ما للأفشين من النفوذ في نفوس الجند ، وقد سمعنا الان بما لهذا الرجل من السطوة في قومه وهم ألوف الالوف ، فاذا أغضبناه لا يقوم هؤلاء مقامه . ولولا

تمرد بابك هذا لم نكن نخشى بأس الافشين • وأنت يا امير المؤمنين شجاع باسل أيدك الله بالخلافة فلا ترى الالتجاء الى الحيلة او الصبر على المكاره ، ولكنا نعلم من الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : (الحرب خدعة) • فهذا رأيي والامر من قبل ومن بعد لامير المؤمنين ، وأنا وسائر رجال الدولة رهن ما يريد ، نبذل دماءنا وأرواحنا في طاعته» •

فالتفت المعتصم الى ضرغام كأنه يستطلعه رأيه ، فقال ضرغام : «اني لا ارى ردا على قول قاضي القضاة ، ولم اكن لأفطن لما فطن هو له من حسن السياسة ، وقد سمع امير المؤمنين جوابي فاني رجل سيف أصدع بالامر ، فاذا رميت بي اذربيجان او تركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمي على كفي ، ولكن الصواب فيما قاله قاضي القضاة والرأي الاعلى لامير المؤمنين » •

فقال المعتصم : «قد استشرتكما في الامر لسببين : الاول ان طلائع الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله؛ والثاني ان قد جاءنا جاسوس من أرمينيا بأن بابك الملعون قد استفحل امره وربما تحرك نحونا فلا ينبغي ان نمكث هنا في انتظاره» •

قال القاضي : «لا أظنه يجسر على القدوم وانما هو يقنع بأن نتركه وشأنه ، وعلى كل حال ارى ان نحتفل بقدوم الافشين ونبالغ في اكرامه حتى نفرغ من حاجتنا اليه» •

* * *

وفيما هم في ذلك سمعوا صوت الأذان لصلاة العصر ، فتحفز الخليفة للقيام وصفق فجاء الحاجب فأمره بأن يخبر صاحب وضوئه انه

سيصلي العصر في المسجد الكبير •

فلم يبق لضرغام والقاضي بد من الذهاب الى الصلاة معه في ذلك المسجد . وكان المعتصم قد بناه وبالغ في اتقانه على شكل لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعل جدرانه ومحرابه من مرايا حتى اذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه • وبنى له منارة عظيمة على شكل لولبي مكشوف يصعد اليها على درج لولبي من ظاهرها • ولعل ابن طولون بنى منارة جامعة في مصر على مثال تلك • وكان المعتصم كثيرا ما يصلي في ذلك المسجد لقربه من قصره • فلما تحفز للنهوض استأذن احمد وضرغام في الانصراف وذهب كل منها الى منزله حيث توضأ ويمم المسجد •

دخل الخليفة اولا والناس وقوف للتبرك برؤيته . وفيهم القواد والوزراء حتى اذا دخل المقصورة الخاصة في أثره ، وفيهم القاضي احمد . ومحمد بن عبد الملك الزيات وزيره ، وقواده الاتراك الذين ذكرناهم • اما ضرغام فدخل حتى وقف في جملة الحاشية وكانت المرايا في الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كأن امامهم مسجدا اخر فيه أناس يصلون ووقف ضرغام في جملة الواقفين للصلاة •

وبينما ضرغام واقف يصلي وعيناه على المرايا في المحراب يرى الناس يدخلون من الباب وراءه ممن يعرفهم ولا يعرفهم ، وقع بصره على رجل لم يكد يتثبته حتى أجفل ولم يتسالك ان التفت الى الوراء ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب في تخيله • وكان قد رأى بالمرآة صورة سامان اخي جهان ، فاحتال في التقهقر رويدا رويدا حتى دنا من الباب ورآه سامان يتقهقر فسبقه الى صحن المسجد ، فخرج ضرغام في أثره وهو يحدق فيه ويكاد ينكره لما رأى في حاله من التغير • فقد فارقه في فرغانة وعليه لباس اهل الوجاهة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشيء ، ولكنه رآه

هذه الساعة في حالة يرثى لها من الضعف ورثاثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلا كئيبا ، فأثر منظره فيه وأخذته عليه الشفقة وخشي ان يكون قد اصاب جهان سوء فصاح به : «سامان ؟» . قال : «نعم انا سامان يا سيدي» .

فقال : «ما بالك ؟ ماذا جرى لك ؟ اين جهان ؟»

قال : «اذا اذنت لي في خلوة قصصت عليك كل شيء ، فقد تعبت من البحث عنك في سامرا . وأخيرا اتيت المسجد لعلي اراك» .

فأشار اليه ان يمشي وراءه في صحن الجامع وقال : «يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وأنا اليوم لا يعرفني احد بهذا الاسم، وانما اسمي الصاحب . اين جهان وما لي اراك رث السربال على هذه الحال ؟» . وكانا قد انتهيا من الصحن الى بناء مربع على هيئة الكعبة . فرأى الصاحب ان يدخل اليه ليختلي بسامان اذ لم يبق له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل وأشار اليه ان يجلس على دكة هناك وهو يقول: «اخبرني اين جهان وماذا جرى لكم؟ »

فجلس ينهد ويتمسكن وقال : «أحمل اليك خبرا لا يسرك» .

فاضطرب ضرغام وقال : «هل اصاب جهان سوء ؟»

قال : «لم يصبها سوء ولكن ..» . وبلع ريقه .

قال : «ولكن ماذا ؟ اين هي ؟ قل» .

قال : «لا أدري اين هي يا سيدي .. فقد خطفها مني اللصوص» . قال ذلك وتظاهر بالبكاء .

فزأر ضرغام كزأر الاسد وحملق عينيه ووقف شعر شاربيه وأصبح منظره مخيفا وقال : «اختطفوها ؟ من تجاسر على ذلك ؟»

قال : «لا أعلم يا سيدي من اولئك اللئام الذين اختطفوها . ولكن تمهل قليلا حتى أقص عليك الخبر كما وقع» .

قال : «قل وأوجز» .

قال : «فارقتنا يا مولاي وظللنا في فرغانة بعد سفرك بضعة ايـــام ذقنا فيها الأمرين» . قال ذلك وأرسل بصره الى صحن الجامع وخفض صوته كأنه يحاذر ان يسمعه احد . فلما تحقق خلو المكان من السامعين قال : «ان مصيبتنا اتت من اقرب الناس الينا . اتت من الرجل الـــذي أوصاه ابي بنا . فالأفشين لم يكتف بأنه حرمني من ميراث ابي حتى مد يده الى أختي !»

فاقشعر جسد ضرغام من هذا التعبير مع ظنه انه يعني تعديه علـــى حصتها من الميراث كما تعدى على حصة سامان ، ولم يخطر له شيء وراء ذلك فقال : «أظنه طمع في ميراثها ايضا ؟» .

فتشاغل سامان بحك ذقنه الاجرود وتنحنح وظل ساكتا ، فارتـــاب ضرغام في امره فقال : «أليس الامر كما اقول ؟»

قال : «لو انه اكتفى بالارث لكان خيرا ، ولكنه طمع فيها هـــي نفسها . ويحزنني ان أغضبك بهذا الخبر ولكنه الواقع وعلي ان أصدقك. فانه طلب الاقتران بأختي على علمه انها مخطوبة للبطل ضرغام وانهـــا يستحيل ان تقبل سواه» .

فقال ضرغام وهو يرتعد : «ثم ماذا ؟»

قال : «تداركنا الامر بالفرار ، ففررت انا وجهان في قافلة بما خف حمله من المال والمتاع ، ولم نخبر احدا من اهل القصر الا القهرمانـــة خيزران ، فأخذناها معنا وركبنا مسرعين نقصد الى سامرا قبل ان يعلم الافشين بنا ، فقطعنا البراري والقفار ، وقاسينا عذابا شديدا من الحر والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همذان . وهناك فارقتنا القافلة وحسبنا اننا صرنا في أمان ، فاعترضنا قوم من قطاع الطريق على خيولهم فدافعنا عن انفسنا دفاعا حسنا جهد طاقتنا حتى كلت يدي وجرح

رأسي ، وكنت أتمنى لو أقتل وتبقى جهان سالمة ولكن ..»

فصاح به : «ولكن ماذا ؟ هل اصابها سوء . أليست حية ؟»

قال : «هي حية يا سيدي ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقهرماتها ، وآخر ما سمعته منها قولها : (سلم على ضرغام وأخبره بما جرى)» .

فتعاظم غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال : «ومن هم اولئك اللصوص ؟ ألم تعرف احدا منهم ؟»

قال : «كلا فقد كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعنا لهم صوتا خوفا من انكشاف امرهم» .

* * *

وأطرق ضرغام برهة كان فيها كالضائع يحسب نفسه في حلم او كأنه انتقل الى عالم آخر ، ثم انتبه لجلبة الناس اثناء خروجهم من المسجد وتذكر ان الخليفة معهم ، فخاف ان يراه مختبئا فيشك في امره فخرج واختلط برجال الدولة وأشار الى سامان ان ينتظره فظل واقفا في مكانه. وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقا للخليفة ووقفوا للتحية فمر بهم المعتصم يتفرس في وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام فأشار اليه ان يتبعه ، فاستعاذ بالله وخاف ان يكون في تلك الدعوة ما يحول دون البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويدا رويدا حتى وصل الى القصر ولم يبق معه غير ضرغام ، فدخل وأشار اليه ان يلحقه ففعل حتى وصلوا الى غرفة خاصة فالتفت الخليفة اليه وقال : «رأيتك خرجت من المسجد قبل الفراغ من الصلاة» .

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاته ان الخليفة يرى الخارجين والداخلين بالمرايا كما رأى هو سامان ، ولكن رؤية سامان فجأة أنسته

نفسه وموقفه . فلما سأله الخليفة عن سبب خروجه اعتـــذر بقوله : «خرجت لمشاهدة رجل لم اكن أنتظر رؤيته ويهمني امره ، وكان ينبغي ان أتم الصلاة لأكون في معية امير المؤمنين ، فعفوا لمولاي واني أعـد ملاحظته التفاتا كبيرا الى صنيعته» .

قال : «اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي ، فأرجو ألا يكون عليك بأس مما رأيته او سمعته» .

فرأى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همذان فقال: «لا بأس علي ما دمت في ظل مولاي امير المؤمنين ، ولكن قوما مـــن اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فأصابهم ما أخر وصولهـــم فبعثوا يستعينون بي على ذلك ، فهل يأذن مولاي بذهابي بضعة ايام ؟»

فأطرق المعتصم ثم قال : «سر ولا تطل الغياب ، واذا رأيت ان تستعين بجند او بريد فافعل» .

فانحنى ضرغام شاكرا واستأذن وعاد الى المسجد حيث ترك سامان ، وقد سره اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب البال لما سمعه عن جهان والافشين ، ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرا بعد ، فرأى ضرغام المبادرة الى همذان فأمر باعداد أفراس البريد ينتقل بها هـــو وسامان ، وذهب لوداع أمه وذكر لها انه ذاهب في مهمة يعود منها بعد بضعة ايام ، فقبلته وودعته . فركب في ذلك المساء وقلبه يكاد يسبقه من شدة القلق الى همذان ، وكلما وصل الى محطة من محطات البريد لتبديل الركائب يسأل الناس هل سمعوا بلصوص يلجأون الى بعض الاماكن في تلك الناحية . وكان يواصل السير نهارا وليلا ولا ينام الا قليلا حتـى دنوا من همذان وبجانبها جبل وعر وطريق البريد بجانب ذلك الجبـل وفيه محطة لخيل البريد ، فلما وصل الى هناك سأل سامان : «ألا تذكر المكان الذي وقع فيه الحادث ؟»

قال : «وراء هذا الجبل على ما اظن» .

وكان وصولهم الى الجبل عند الغروب وقد أعد له اصحاب البريد منزلا يبيت فيه ، ولكنه لم يستطع صبرا الى الغد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية وأصحاب الاخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم سائر في طريق ، وعلم صاحب تلك المحطة ان الصاحب من خاصة الخليفة وقد جاء للبحث عن شيء يهمه ، وأنبأ الآخرين بذلك فأصبحوا يتوقون الى خدمته ، وسأل ضرغام صاحب المحطة : «هل انت هنا من زمن طويل ؟»

فقال : «من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد تتنقل دائما . فهل يأمر مولاي بخدمة نقوم بها ؟»

قال : «شكرا لك . هل سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون في بعض هذه الاودية او الجبال او يمرون من هذه الامكنة ؟»

قال : «قلما نسمع بشيء من هذا ، ولكني علمت بالامس ان جماعة من قطاع الطريق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن» .

فلما سمع ضرغام كلامه قال له : «ارسل معي رجلا يهديني الى مكان أولئك اللصوص» . ومشى .

فأعجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال : «ألا ترى يا سيدي ان نرسل احدا للبحث عنهم وتمكث انت هنا ؟»

قال : «كلا ، يكفي ان ترسل معنا رجلا يدلنا على الطريق» . ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه ، وتبعه سامان ورجل من حراس تلك المحطة ، سار امامهما في شعاب وعرة وقد غابت الشمس وأخذ الظلام يتكاثف ، وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم ، حتى انتهوا الى منعطف في ذلك الجبل فوقف الدليل وأشار بيده الى نور

ضعيف على أكمة امامهم وقال : «هذا مقر القوم يا سيدي ، وأخاف ان يبطشوا بنا » .

- ١٤ -

المعتصم والعرب

أظهر سامان انه يود الذهاب مع ضرغام ، ولكن هذا ابقاه هنـاك ومشى وحده يتعثر بالحصى ويسمع لوقوع نعاله قرقعة كأن غضبه أعماه عن الخطر الذي يهدده بالسير وحده ، ولكنه كان شديد الاعتداد بقوته كثير الاعتماد على بسالته . حتى اذا صار على مرمى سهم من مقـــر اللصوص ، رأى أشباحا تتراوح بينه وبين المصباح وسمع هرير الكلاب فلم يبال . ورآه القوم قادما وحده فلم يخطر لهم انه عدو لعلمهم ان العدو لا يجسر على القدوم وحيدا فتصدر واحد منهم وصاح : «من هذا؟»

فقال ضرغام : «قادم يبحث عن ضائع .. اين كبيركم ؟»

ومضت لحظة رأى في اثنائها القوم في حركة وتهامس ، ثم تقدم واحد منهم وبيده قبس وقد تلثم بكوفية والتف بعباءة ، فتفرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه جعل يده على قبضة سيفه وهو يتحفز للوثوب او الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصل الى ضرغام حتى قال له : «اهلا بضرغام ، اهلا بالصاحب» .

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبه واستأنس به ولكنه لم يعرفه فقال:

«من انت ؟»

وكان قد وصل اليه فأزاح اللثام وأدنى القبس من وجهه وقال : «ألم تعرفني ؟ »

فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح : «حماد ؟ ما الذي اتى بك الى هنا ؟ »

قال : «اتى بي الى هنا ظلم صاحبك . تفضل» . قال ذلك وصفر صفيرا أبطل نباح الكلاب ، وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض على يد ضرغام يرشده الى الطريق ، وضرغام يعجب لما يراه لانه يعرف حمادا من وجوه رجال الدولة في سامرا ، وقد رآه فيها منذ اسابيع وكان صديقا حميما له ، فتبعه مطمئنا حتى وصلا الى بناء قديم حجارته ضخمة وجدرانه مهدمة . ولو تفرس القادم فيما بقي من أنقاضه على ضوء القبس لرأى عليها نقوشا وصورا من آثار قدامى الفرس . ولكن ضرغاما لم ينتبه الى شيء من ذلك . واذا بصاحبه قد أوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الاثاث او الرياش ، ولكنه شاهد في ارضها آكياسا من الحبوب وصناديق فيها الآنية والمتاع كأنها اخذت من اصحابها التجار في تلك الساعة . فأشار حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صندوق اخر وقال : «أظنك تعجب لما تراه ؟»

فقال : «كيف لا أعجب وقد بلغني عن هذا المكان انه مأوى اللصوص وأراك فيه كواحد من اهله» .

قال : «بل انا زعيم اصحابه . ولم اكن لأكاشفك بذلك وأدخلك هذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم مغبة ظلم صاحبك» .

قال : «أتعني امير المؤمنين ؟»

قال : «بل أعني امير الاتراك والفراغنة ، واذا أحرجتني قلت انه امير الكافرين مثل اخيه المأمون» .

فشغل ضرغام بهذا الامر الغريب عن الغرض الذي جاء من اجله فقال: «اني لا ارى مسوغا لهذه النقمة ، ولولا ما تعلمه من حبي لك ما صبرت على ما أسمعه منك ، ولكنني أذكر صداقتك وأحب ان تصرح لي بما يكنه ضميرك عساي ان أذهب ما في نفسك من الغل على الخليفة . ونحن في حاجة الى رأيك وسيفك وأعداؤنا كثيرون فلا ينبغي ان تتفرق» .

فاعتدل حماد في مجلسه وبان الاهتمام في وجهه وقال : «لا ألومك على دفاعك عن المعتصم لانه صديق الاتراك والفراغنة ، وقد عادى اهله وعشيرته من اجلهم . وأنت الان صاحبه ومن اقرب المقربين اليه . لا اقول انك لا تستحق ذلك بل انت اهل لاكثر منه ، ولكنك لو كنت في مكاننا نحن العرب لما قبلت ما يأتيه هذا الرجل من المظالم . لم يكفه انه صادرنا في ديننا وجلد الامام احمد بن حنبل الرجل التقي البار حتى غاب عن رشده وسال دمه ونقطع جلده ثم قيده وحبسه واضطهد كل من لم يقل بخلق القرآن ، لم يكفه ذلك حتى قطع العطاء عن العرب كافة ، ومنع المسلمين من رواتبهم ولم يفعل ذلك احد قبله . ولا أذكرك بما كان للعرب من العز والسؤدد في عهد الراشدين والامويين يوم كان الفرس والترك وسائر الاعاجم يعدون من العبيد او الموالي ، ولا يستنكفون ان يكون العرب سادتهم بل كانوا يتشرفون بالانتماء اليهم . وانما أذكرك بما كان لهم من الزعامة في صدر الدولة العباسية مع انها قامت بسيوف الفرس . حتى المأمون الذي حارب العرب وحاربوه لم ينقص شيئا من أعطياتهم كما فعل المعتصم هذا ، مع ان المأمون كان معتزليا مثله يقول بخلق القرآن ويضطهد الأئمة القائلين بقدمه ، ولكنه كان يعلم ان العرب مادة الاسلام وأصل هذه الدولة وروح هذه الامة . أما صاحبك فقد قطع العطاء عن كل عربي ، ولم يفعل ذلك عن فقر او جدب فانه ينفق الاموال الطائلة في اصطناع الاتراك والأشروسنية والفراغنة وقد بنى لهم

سامرا وأحضر لهم النساء والجواري وأسال النضار في خزائنهم . ولو كنت انت اعرابيا ما صبرت على ذلك».

فلم ير ضرغام حجة يدفع بها قول حماد ، لعلمه انه يقول الحق ، ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على انتحال الاعذار فقال : «لا أنكر عليك ما ذكرته من مواضع النقد على امير المؤمنين . ولكنك حملت ذلك منه على سوء القصد فهو قطع العطاء عن بعض العرب بعد ان تحقق عداوتهم للدولة ، ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه . أما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريبهم والانعام عليهم. هذا القاضي احمد بن ابي داؤد لا ازيدك علما بمنزلته عند الخليفه وهو عربي . وأنت ؟ الم تكن مقربا ونلت منصب رفيع ؟»

فهز حماد راسه وقال : «اراك تحسن الدفاع عن صديقك الخليفه . وقد اتيت بالقاضي احمد شاهدا وهو عربي من بين الوف قد لحقهم الذل والعار والفقر . أما انا فقد كان لي منصب وبئس المنصب لو بقي . جعلني سادن الكعبة التي انشأها في سامرا ليحول المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز لانهم يرتزقون من الحجاج فأنشأ الكعبة في سامرا ليغني المسلمين عن الحجاز .. »

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «ولكنه ليس اول من فعل ذلك من الخلفاء او الامراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا» .

فقال : «وهذا لن يفلح ايضا لان بيت الله في مكة فلا يقدر ان يجعله في سامرا» .

* * *

ورأى ضرغام ان الحديث قد طال فيما لا يهمه بقدر ما يهمه الامر

الذي جاء لاجله ، فأراد ان يختصر الكلام فقال : «ومع ذلك لا اجـد فيما ذكرته مسوغا يجيز لك اللصوصية» .

فقال : «لا تقل اللصوصية . اننا لم نرتكب شيئا من ذلك علـى الاطلاق » .

فتضاحك ضرغام وهز رأسه استخفافا بدفاع حماد . فابتدره هذا قائلا : «لا تضحك يا صديقي . اننا لا نسرق وما نحن لصوص وانما نحن نستولي على حقوقنا بأيدينا» .

فاستغرب قوله ونظر اليه وتطاول بعنقه نحوه كأنه يستفهمه فقال حماد : «ان هذه الاموال التي تجدها ملقاة هنا انما هي حق الفقراء وأبناء السبيل بأمر الله تعالى في كتابه ، وهي عشور الاموال او أخماس الفيء، فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من اصحاب الامـوال والتجار ويفرقونها صدقة او عطاء ، وقد قطع المعتصم هذه الأعطيات ، فهل يموت المسلمون جوعا لانهم عرب ؟. فنحن انما نستولي على حقوق الفقراء بالقوة لأن الامام اراد ضياعنا !»

فتعجب ضرغام لقوة تلك الحجة ولكنه اراد وقف الجدال فقال : «مالنا وذاك . لقد علمت انك كنت في سامرا من عهد قريب ولم يقطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج ؟»

فوقف حماد وتنهد وتغيرت سحنته من الغضب الى الكآبة ونظر الى ضرغام وقال : «ان ما حملني على هذا الخروج وأثار فيّ هذه الضغائن امر اصاب مني مقتلا . اصاب قلبي فأذهب رشدي فأنا ناقم على الرجل الظالم ما دمت حيا» . قال ذلك وقد تصبب العرق مـن جبينه ، فازداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عبارته انه يشكو من حبيب فارقه فقال : «وما ذاك يا اخي ؟. قل وأوجز فاني اتيتك لأمر يهمنـي كثيرا فشغلتني بأمورك» .

قال : «مهما يكن من امرك فلست بالغا امري . احببت جارية لبعض البغداديين وأحبتني ، فلما اقدمت على الزواج بها ، تصدى لي رجل من خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي أظنك تعرفه وطلبها لنفسه وأخذها مني عنوة ، فشكوت امري الى الخليفة على يد القاضي احمد الذي ذكرته فأجابني بقوله : (ابحث عن جارية اخرى فان هذه لا تكون لك) . مع علمه بأنها تحبني حبا شديدا» . ثم تنهد وقال : «آه يا ياقوتة» .

فقال ضرغام : «هل اسمها ياقوتة ؟»

قال : «نعم هذا اسمها . فهب اني اغضيت عن كل السيئات التي ذكرتها فهل أقدر ان أغضي عن هذه ؟ اني والله ناقم على الخليفة ودولته ، وما خرجت لأكون لصا وانما خرجت لانتقم من هذه الدولة ما وجدت الى ذلك سبيلا ، وأعداؤها كثيرون» .

فتأثر ضرغام من حكاية يافوتة لانه واقع في مثلها . والانسان انما يشارك الناس في المصائب التي أصيب بمثلها او يخشى ان يصاب بها . فالأعزب لا يشعر بمصاب الآباء بفقد ابنائهم كما يشعر من تزوج وله ولد ، ولا يشارك المحب في شعوره الا الذي جرب الهوى . فقال ضرغام لحماد : «هون عليك ولعلي أنفعك في شيء من شكواك . وقد آن لي ان اسألك عن الامر الذي جئت في هذا الليل لاجله فأعرني سمعك واعلم اني اول من يشاركك احساسك لاني واقع في مثل ما انت فيه» .

فقال حماد : «قل ايها البطل فاني سامع» .

قال : «لي خطيبة كانت في فرغانة وأنا في سامرا ، فركبت مع اخيها وجاريتها ، فلما وصلوا الى همذان هجم عليهم اللصوص واختطفوا الفتاة وجاريتها وجاء الي اخوها بالخبر فأسرعت للبحث عن الجناة فأنبأني صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟ »

قال : «اما نحن فلا نختطف نساء . وقد اخبرتك بما نفعله ، وأنا على يقين انه ليس في هذا الحوار لصوص او قاطعو طريق» .

قال : «ولكن أخا الفتاة شهد الوقعة وهو الذي نجا من المعركة وأخبرني» .

فهز رأسه هزة الانكار وقال : «نحن هنا منذ اسابيع ، ولم نسمع بحدوث شيء من ذلك وأظن الراوي كاذبا» .

فانتبه ضرغام الى ما يعلمه من سوء نية سامان من يوم عرفه فقال: «ان الراوي واقف في مدخل هذه الشعب . وسأستقدمه اليك لتسأله» .

فأشار حماد الى بعض رجاله ان ينادي الرجل الواقف هناك فذهب وعاد يقول انه لم يجد احدا . فذهب ضرغام بنفسه فلم يجد سامان . وسأل الدليل عنه فقال انه مضى الى حيث لا يعلم . فبعث في البحث عنه فلم يقف له على أثر ، فرجح لديه ان في الامر سرا غامضا وأن الرجل قد يكون كاذبا فيما رواه حتى عن الافشين ، فقلت ثقته بما رواه عن جهان . ولم ير بدا من الرجوع الى سامرا ، فاستأنف الكلام مع صديقه ونصح له ان يرجع معه فلم يرض وقال : «لا ارى في رجوعي فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك علي خسارة المال لتحملته ولكنه طعنني في قلبي وأنت تقدر شعوري . فلا تلمني» .

فتذكر ضرغام مصيبته وتصور نقمته على خاطف حبيبته فعذره وقال: «صدقت اني معك فيما ذكرت ، ولو علمت ان الخليفة صادرني في خطيبتي لنقمت عليه مثل نقمتك وأشد منها . فافعل ما بدا لك . وعلى كل حال أرجو ان تذكرني ولك مني مثل ذلك» . وأطرق قليلا ثم قال: «واذا حدث ما يدعو الى الاتصال بك او المجيء اليك فهل اجدك هنا؟»

فأجاب : «لا أعلم اين يكون مقري بعد الليلة ، وما قيامي هنا الا الى أجل موقوت . وأنا اذا وفقت الى امر يسرك وأردت ان اراك فأين

تكــون ؟ »
قال : «في سامرا» .

* * *

ودع ضرغام صاحبه وهو يفكر فيما سمعه ، وصورة جهان لا تذهب من مخيلته ،لانه في المكان الذي قيل له انها اخذت فيه والليل مظلم مثل ظلام الليلة التي خطفت فيها . فتصور حالها وهم يقبضون عليها وتوهم انه يسمعها تستغيث به وتناديه باسمه فاقشعر بدنه وحـــرق اسنانه . وقضى في تلك الهواجس مدة وهو يلبس ذلك الطريق الوعر على هدي الدليل يسير بين يديه حتى ادرك محطه البريد فركب وعاد الى سامرا . وطريق البيت في الرجوع اليه أقصر منها في الخروج منه ولكن ضرغاما استطال الطريق واستبطأ وصوله لشدة رغبته في ملاقاة وردان لكــــي يستشيره في الامر وقد تعود ذكاءه وصدق فراسته .

وأشرف ضرغام او الصاحب على سامرا نحو الغروب والشمس تقابله وقد ضعف نورها وتبددت أشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعاظم حرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم . ونظر الى ابنية سامرا وأعظمها قصر الخليفة والمسجد الاعظم ومنارته تناطـــح السحاب . ويخترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة وعلـــى ضفافه اشجار النخيل واقفة وقوف الجند يحملون سهامهم في عمائمهم . فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فأحس بارتياح فوقف هنيهة والبريدي على بغلته الى جانبه لم يدهشه ذلك المنظر لانه تعوده والنفس يختلف تأثرها بمناظر الطبيعة باختلاف حالها . والمحبون اكثر الناس مشاركـة للطبيعة في أحوالها .

وأحس ضرغام بميل الى الانفراد هناك ، فأشار الـى البريدي ان يسبقه الى سامرا فأطاع ، وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعـة الغروب وهي تتراءى لعينيه من وراء جذوع النخل عن بعد ، بألوانها القزحية وان غلب عليها لون الارجوان • حتى اذا ادركت حافتها الأفق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الأفق وهبطت في أثره الهوينا وقد اخذت الظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها أفقا اخذ احمراره في الاكفهرار شيئا فشيئا ، من الدموي الـى الارجواني فالبنفسجي فالازرق على اختلاف ألوانه ، حتـى استحالت الظلال الى ظلام • فأحس ضرغام بانقباض نبهه الى المسير فوخز الفرس وخزا خفيفا فمشى مشيا بطيئا حتى تخالل مغارس المدينة من طرفها الاسفل، وتراءى له دجلة في مكان لا يغشاه النخيل فيممه على ان يسير علـى ضفته الى الجوسق •

وكان الجو هادئا فلما دنا من دجلة عادالى تخيله فلج في نيار فكره والجواد يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه • وقد هب النسيم عليلا وسكنت الطبيعة فلم يعد يسمع الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس • ولم يكن ضرغام يسمع شيئا لذهوله ، واذا بجلبة فاجأته من ورائـه وسمع صوتا وقع وقوع السهم في قلبه وأجفله لانه صوت امـرأة تستغيث قائلة : «خافوا من الله •• اتركوني •• يا ناس •• اتركوني••» ثم اختنق الصوت • فارتعدت فرائص ضرغام لان الصوت كثير الشبه بصوت جهان ، وتذكر ما اصابها من اللصوص ، وتصور انها استغاثت بمثل هذا الكلام ولم ينجدها احد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعل الله يوفق جهان الى منجد ينقذها • وسرعان ما ترجل عن جواده وركض الى جهة الصوت شاهرا في يده حسامه وهو يقول : «لبيـك لبيك • اتركوها ايها اللئام» •

قال ذلك وهو لا يرى احدا لشدة الظلام فخاف ان تكون قد خدعته أوهامه وان ما سمعه هاتف يمثل له جهان . لكنه ما عتم ان سمع الصوت يقترب منه ورأى شبح امرأة تعدو من ضفة النهر باسطة يديها اليـــه وتصيح : «بالله اغثني اشفق على حياتي» . ورأى رجلين يجريان فــي أثرها وقد شهر احدهما السيف ويقول : «الى اين تهربين يا خائنة . سأقتلك لا محالة» .

فصاح ضرغام : «دعها يا رجل والا ضربت عنقك» .

فلم يبال الرجل وظل مسرعا حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت الى ضرغام وترامت على قدميه . فلما رآه ضرغام هاجما والسيف بيده ناوله بضربة اطارت رأسه فوقع مجندلا بدمه ، وهجم على رفيقه وهم بأن يضربه فرآه أعزل فأمسك وصاح فيه : «من انتم ؟» . فقال : «مالك ولنا ؟ ليس هذا من شأنك . دع الجارية وامض في سبيلـــك وسترى عاقبة امرك» .

قال : «قف حيث انت والا قتلتك . او قل اي من انت وما خبر هذه الفتاة ؟ »

قال : «انها جارية هربت من بيت مولاها فبعثنا للبحث عنها فأدركناها هنا وأبت الرجوع فهددها رفيقي تخويفا لها . ولولاك لرجعت صاغــرة ولكنها سببت قتل رفيقي . وسوف تعلم مصيرك» .

فلما سمعت الجارية كلامه وكانت مستلقية على العشب من التعب نهضت وصاحت : «كذبتم ايها الغادرون ليس الامر كذلك» .

فلما سمع كلامها شبه له صوت جهان واختلج قلبه في صـــدره واستبعد ان تكون هي نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل: «قل الحق ولا تخوفني بأحد والا ألحقتك برفيقك» .

قال : «لا تغتر بما سمعته ، ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة

فمن يجسر على حمايتها ؟»

قال : «انا اجسر ، دعها وسر في طريقك» .

فصاح الرجل : «من انت حتى تجسر على ذلك ؟»

فحول ضرغام وجهه عنه وأمسك الفتاة بيدها ومشى وهو يقول : «قل للخليفة او لسواه ممن يدعي السيادة على هذه الفتاة انها في حماية الصاحب» .

فلما سمع الرجل اسمه تراجع وبهت كأنه صعق ثم قال : «عفوك يا مولاي عن جرأتي اذ لم اكن اعلم ان مولانا الصاحب يخاطبني» . قال ذلك وقفل راجعا .

أما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى جواده وكان لا يزال واقفا في مكانه فقاده بلجامه وسار وقال للجارية : «امشي يا بنية لا تخافي . وأخبريني عن حقيقة امرك فقد سلمت الان من الخطر» .

فقالت وصوتها مختنق : «أشكر الله اذ ارسلك لانقاذي ، ولولاك لذهبت ضحية الظلم» .

فأطربه صوتها وأحب ان ينظر الى وجهها وفلقه على جهان يوهمه انها قد تكون هي بعينها ولكن الظلام كان يحول دون ذلك فقال لها : «قولي ما خبرك ؟»

قالت : «كنت جارية لبعض الناس وأعتقني سيدي لوجه الله . فطلبني شاب عرفني وعرفته وتحابينا وتواعدنا على الزواج ، ثم رآني رجل من بطانة امير المؤمنين يقال له الحارث السمرقندي ، فتقرب الي وخطبني لنفسه فأبيت عليه ذلك» .

فلما سمع ضرغام اسم الحارث ذكر ما سمعه من حماد فقال : «وما اسم خطيبك ؟» . قالت : «حماد» .

قال : «فأنت اذن ياقوتة ؟!»

فلما سمعته يذكر اسمها دهشت وتلعثم لسانها وقالت : «كيف عرفت ذلك يا مولاي ؟ هل تعرف حمادا . اين هو ؟»

قال : «عرفته ولكن لا سبيل اليه الان . وسأقص عليك خبره فيما بعد . فأتمي حديثك» .

فلم تعد تعرف كيف تتكلم لشدة فرحها فقالت : «فلما ابيت على الحارث ما اراد وسّط القاضي احمد لدى امير المؤمنين . فطلب الخليفة ان يراني ، فلما مثلت بين يديه نظر الي طويلا ثم أودع أذن القاضي كلاما وأمرني ان ابقى عند الحارث بلا زواج حتى يبدي رأيه فيّ . فأخذني الحارث الى منزله وحبسني وأخذ يحاول اقناعي بأن أقترن به . تارة بالحسنى وطورا بالتهديد . حتى جاءني منذ بضعة اسابيع وهو يهزأ بي ويقول : (ان خطيبك غادر سامرا) فلم أصدقه وعزمت على الفرار الى حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة . فأدركني هذان الرجلان وهما من أعوان الحارث وأرادا ارجاعي ، ولما رفضت الرجوع هدداني فصحت الصيحة التي سمعتها وجئت لانقاذي جزاك الله عني خيرا» .

فلما فرغت من حديثها سره انه انقذها اكراما لصديقه . ولكنه تذكر ان حمادا برح همذان في الليلة التي فارقه فيها ولا يعرف مقره فظل ساكتا وهو يفكر في ذلك وصورة جهان امام عينيه وهو يناجي نفسه : «هل يتاح لجهان من ينقذها يا ترى كما انقذت انا هذه الفتاة ؟» . ظل برهة يفكر في ذلك وياقوتة ماشية الى جانبه وقلبها يخفق سرورا وقلقا وهي تتوقع ان تسمع منه ما يعلمه عن حبيبها . فلما استبطأته قالت :
«وعدتني يا مولاي ان تخبرني عن حماد . هل خرج من سامرا ؟»

قال : «نعم خرج منها كما قال لك الحارث» .

قالت : «وأين هو ؟» . قال : «لا ادري . وقد لقيته منذ بضعة ايام في مكان خارج بغداد وأخبرني انه مسافر الى حيث لا يعلم ، وقد قص

علي غضبه من الحارث والخليفة من اجلك • كوني على ثقة انه شديد المحافظة على ودك» •

فلطمت خدها بكفها وقالت : «ويلاه وأين اذهب وأين ابيت وكيف أعرف مقره ؟»

فقال : «لا بأس عليك ، انك تمكثين في منزلي مع امي حتى يأتي الله بالفرج ، فاني على موعد مع حماد ان يكتب الي عند الحاجة لانـــه صديقي » •

فقالت : «جزاك الله خيرا يا سيدي ولكن ••»

قال : «لا تخافي يا أخية انما تكونين مع امي في خير وأمان لا يمسك احد بسوء ، ان امي وحيدة في البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لهـــا وتستأنس بك كثيرا» •

واتبهت ياقوتة في تلك اللحظة الى انها على مقربة من الجوســق فوقفت وقالت : «اراني بجانب قصر الخليفة ؟»

قال : «اني أقيم بقصر داخل هذا الجوسق» •

فتراجعت وقالت : «اكون اذن في خطر اذا عرف الخليفة بأمري ؟»

قال : «كوني مطمئنة • انك في مأمن عندي» • وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما رآى الحراس ضرغاما وسعوا له وتقدم احدهم فأخذ الجواد الى الاصطبل • وسار ضرغام مع ياقوتة حتى اتى منزله ، فلمــا رآه الخدم اسرع بعضهم الى أمه فبشروها وأناروا الشموع ، فدخـــل والفتاة في أثره حتى توسط الدار وأول شيء فعله انه تفرس في الفتاة على نور الشموع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدت البغتة في وجهه لشدة المشابهة بينها وبين جهان ، فقال في نفسه : «سبحان الخالق ما هذه الصدفة ؟ وأحس بارتياح الى الفتاة ، وأعجبه ما قرأه في محياها من الهيبة والجمال رغم ما كان يغشاها من الاضطراب • ويكفي لارتياحــه

اليها مشابهتها حبيبته بالوجه والصوت • وزاده استئناسا بها ما قاساه في سبيل انقاذها • والمرء بفطرته يحب الذين يشقى في سبيل راحتهم ، ولذلك كان الرجل اكثر انعطافا الى أشد اولاده حاجة اليه • وكلما تعب الوالد في سبيل ابنه ازداد تعلقا به • ولو لم يكن قلب ضرغام مشتغلا بجهان لتعلق بياقوتة •

أما آفتاب فكانت قد تهيأت لاستقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته اسرعت اليه وقبلته • ثم شعرت بحركة في الدار فقالت : «من رفيقك ؟» قال : «بل هي رفيقة لك» •

فظنت انه جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التي كانت تسمعها كأنها تستقبل الضيفة وصاحت : «هل هي جهان ؟»

فوقع قولها وقعا شديدا على قلب ضرغام فسح جراحه فتنهد وقال : «كلا يا آماه ولكنها عزيزة علي لانها خطيبة بعض اصدقائي» •

ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورحبت بها وقالت : «ما اسمك يا حبيبتي» •

قالت : «اسمي ياقوتة يا سيدتي» •

فلما سمعت صوتها دهشت وبان الاستغراب حول مبسمها وفي اختلاج عينيها البيضاوين وقالت : «سبحان الله كأني أعرف هذا الصوت ! »

فقال ضرغام : «أظنك تعنين صوت جهان فانه كثير الشبه به وقد لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم للمرة الاولى» •

فسكتت آفتاب ولم تجبه ، وأخذت الفتاة بيدها وأجلستها الى جانبها وجعلت تضمها وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت : «كيف لقيت هذه الياقوتة ، وأين كانت ؟»

فقال : «اتفق لي وأنا عائد من المهمة التي اخبرتك عنها اني مررت

بأسفل المدينة ، فسمعت الفتاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان اخذها الى رجل يريد ان يتزوجها رغم ارادتها ، فأنقذتها منهما وجئت بها» .

قالت : «ومن هو ذلك الرجل ؟»

قال : «يقال له الحارث السمرقندي من أعوان امير المؤمنين» .

قالت : «ولماذا لم تقبله فانه ذو جاه ومال» .

قال : «لانها احبت رجلا اسمه حماد العربي ، ألا تعرفينه ؟»

قالت : «أظنني سمعت صوته مرة وقد جاء معك . اين هو الان ؟»

قال : «غائب ، وستبقى ياقوتة هنا حتى يعود . هل يسرك ذلك ؟»

قالت : «يسرني كثيرا لانها تكون تسليتي اذا خرجت انه في مهمة . ولقد شعرت من هذه اللحظة كأني اعرفها منذ أعوام ، اهلا وسهلا بك يا حبيبتي » .

* * *

وأمرت مسعودة فأخذتها لتبدل ثيابها وتصلح من شانها ثم جيء لهم بالطعام فقال ضرغام لأمه : «ألم يأت وردان ؟»

قالت : «جاء منذ بضعة ايام وسألني عنك فلم آقدر ان اخبره عن مكانك » .

قال« : هل اخبرك بشيء عن الافشين ؟»

قالت : «أخبرني انه جاء وعسكر خارج سامرا على ان ينتقل بعد بضعة ايام الينا ، وأظن ان وردان قد عاد اليه او لعله يريد الذهاب اليه غدا او بعد غد» .

ولم يطيلوا السهرة التماسا للراحة . وأصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت اليه هواجسه وأصبح شديد الاهتمام بلقاء وردان ليسأله عما

سمعه من اصحاب الافشين عن جهان .

وفي أصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضـــوره فلبس سواده وقلنسوته وذهب اليه في دار العامة ، فاستأذن ودخل فوجـــد القاضي احمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وأمره بالجلوس فجلس . فقال له الخليفة وهو يبش في وجهه : «متى عدت من السفر ؟»

قال : «اتيت مساء البارحة يا مولاي وكنت عازما على المثول بين يدي امير المؤمنين قبل ان يأتيني رسوله» .

قال : «من لقيت في طريقك ؟»

ففطن الى انه يشير الى ياقوتة ، لعلمه ان الحارث لا بد من ان يشكوه فقال : «لقيت فتاة بين يدي رجلين يعذبانها» .

قال : «وهل انقذتها كعهدك ؟ بارك الله فيك» .

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليه في انقاذه من مخالب الاسد ، فخجل وتجاهل وقال : «لم أتمالك يا امير المؤمنين عن انقاذها . ثم علمت انها تنتمي الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملي طمعا في حلم امير المؤمنين وهو ذنب أستغفر له» .

فضحك المعتصم وقال : «لقد اصطدت حلالا انت أولى النـــاس باحرازه ، كيف رأيت الفتاة أهي جميلة ؟»

قال : «لا بأس بها يا مولاي» . قال : «قد وجب عليك اقرارك» .

فلم يفهم ضرغام قصده فابتدره القاضي : «أتذكر ان امير المؤمنين خطب لك جارية ؟» قال : «نعم» .

قال : «هذه هي الفتاة بعينها» . فاستغرب ضرغام ذلك الاتفـــاق الغريب ، وتحير في الجواب فقال القاضي : «ان امير المؤمنين رأى هذه الفتاة للمرة الاولى منذ اسابيع وقد جاء بها الحارث يخطبها لنفسه ، وكان رجل اخر يدعي انها له ، وكنت حاضرا فقال لي امير المؤمنين : (انهـــا

تصلح للصاحب) • وأمر الحارث ان يحتفظ بها حتى يطلبها • وفي هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لانك خطفت ياقوتة منه فقال له : (انهــا للصاحب ولا سبيل لك اليها) • فخرج مفحما ، ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيدا حلالا ووجب اقرارك عليك» •

فلم يسع ضرغام الا الدعاء للمعتصم على التفاته اليه وقال : «ان امير المؤمنين يتصرف بعبيده ومواليه كما يشاء» •

فقال المعتصم : «احرزت اجمل نساء سامرا بارك الله لك فيها» •

ثم صفق فجاء الحاجب فأشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد غلام يحمل طبقا عليه عقد من الجوهر يتلألآ كالشمس فأشار الخليفة الى الغلام ان يقدمه الى الصاحب فقدمه فبهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراما فابتدره المعتصم قائلا : «هذا عقد تلبسه ياقوتة وتتحلى به» •

فانحنى ضرغام احتراما وامتنانا وقال : «قد غمرنـــي امير المؤمنين بانعامه » •

قال : «انك اهل لاكثر من ذلك» •

فتناول ضرغام العقد ولفه بمنديله وكرر الدعاء • ثم استأذن وخرج فقصد الى منزله والهواجس تتقاذفه ، على ان أمر الزواج بياقوتة لــم يزده قلقا لانه رأى استبقاءها في بيته حتى يجد خطيبها فيجمعه بها دون ان يعلم الخليفة هل تزوجها ام لا • فوصل الى المنزل ولقي أمه فسألته وياقوتة جالسة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال : «دعاني لأمر يتعلق بياقوتة » •

فأجفلت ياقوتة لانها كانت تخاف وشاية الحارث ، لكنها اطمأنت لما رأته يتبسم ونظرت اليه مستعطفة ، ثم سألته امه عما جرى فقال : «شكانا السمرقندي الى امير المؤمنين فأرجعه خائبا ، وأوصاني بياقوتة خيرا» •

فانشرح صدر الفتاة وازدادت اعجابا بضرغام وسمو منزلته عنـــد

الخليفة ونفوذ كلمته في الدولة وأعجبت بهيبته وجلال طلعته . والاعجاب اذا اقترن بالالفة وبالعادة تحول الى غرام ، ولكن ياقوتة كانت مشتغلة القلب بحماد ورأت ضرغاما فوق ما ترجوه لنفسها . ولما سمعت قوله عن الخليفة توردت وجنتاها حياء ولم يمنعها الحياء عن الكلام لانها كانت عاقلة رابطة الجأش فقالت : «أشكر لمولاي الصاحب فضله فقد انقذني من العار والموت ؛ ورفع منزلتي اذ جعلني تحت حمايته» .

فمد ضرغام يده الى جيبه وأخرج العقد وقدمه اليها وقال : «هذه هدية امير المؤمنين اليك» .

فأصبحت ياقوتة لا تدري كيف تعبر عن احساسها فتناولت العقد ودفعته الى آفتاب فأخذته وتلمست حباته وقالت : «يظهر انه عقد جدير بك» . وتقدمت نحوها وقلدتها اياه .

كل ذلك لم يشغل ضرغاما عن قلقه وكل ما حدث في مساء الامس وصباح اليوم يذكره بحبيبته وخاصة العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه : «لماذا لا تكون جهان هنا وتلبسه» . فلما تخيل ذلك اضطرب وترك الغرفة وخرج ليسأل الخدم عن وردان فلقيه داخلا وفي وجهه ذعر . ولما رأى ضرغاما حياه فقال ضرغام : «قد طال غيابك فما الذي أعاقك ؟» . ثم مضى الى حجرة منعزلة جلسا فيها ، فقال وردان : «قد عاقني تأخر الافشين عن الحضور لانه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة ايام ، ولم أتمكن من اتمام مهمتي الا اليوم» .

فقال : «وما الذي عرفته عن جهان ؟»

فتوقف وردان لحظة ثم قال : «عرفت من صديق لي في حاشية الافشين لا تخفي عليه من أحواله خافية ان جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها» .

قال ضرغام : «عرفت ذلك اثناء غيابك من سامان اخيها» .

فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال : «سامان هنا ؟ اين هو ؟ اين هو ؟» لأقبض روحه .. لعنه الله من منافق» .

فاستغرب ضرغام غضبه وقال : «ولماذا تريد قتله ، ماذا فعل ؟»

قال : «سأقص عليك فعله وانما ارجو ان تخبرني عما قصه هـو عليك » .

قال : «اخبرني انه خرج من فرغانة مع أخته فرارا من الافشين ، فلقيهم اللصوص في همذان فأسروا جهان وقهرمانتها ونجا هو ليخبرنا» .

قال : «فأنت عالم بما فعل اللصوص . بقي علي ان أخبرك عما فعله هذا اللعين اليوم . سرت امس لاتمم مهمتي في البحث كما أمرتني : فلم أستطع الا صباح اليوم اذ لقيت صديقي فقص علي الخبر . وبينما هو يكلمني لمحت سامان مارا على فرسه يطلب عرض البر ولـم أتحققه : فسألت صاحبي في شأنه فأخبرني بأنه هو بعينه وانه جاء البارحة في أواخر الليل واجتمع بالافشين وقص عليه خبر اختطاف جهان ولكنـه جعل الذنب في ذلك لك . وأساء القول فيك ، ولم أعلم ذلك الا بعد ان غاب عن بصري ولم يبق سبيل اليه : ولولا فراره لضربت عنقه ، او قتلته خنقا ، قبحه الله من أجرود لئيم» .

وكان ضرغام قد لمس من قبل نفاق سامان وسوء نيته فأصبح لا يصدق شيئا من اقواله : ولكنه لم يستطع تكذيبه في اختطاف جهان فقال : «قد عرفت نفاق هذا الشاب من قبل ، ولكن هل تظنه كاذبا فيما رواه عـن اختطاف جهان ؟»

وجاءت الاخبار اثناء ذلك بقيام بابك واستفحال امره فأصدر الخليفة امره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ، ولم يتـسن لضرغـام الاجتماع به .

- ١٥ -

فراق فرغانة

كانت جهان حين عزمت على الفرار من فرغانة مع اخيها وقهرماتتها قد أعدت كل ما نحتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه . وعولت على اخيها في تدبير قافلة يسيرون في ظلها تجنبا لخطر البوادي التي لا بد من قطعها قبل الوصول الى العراق . فجاءها سامان وذكر انه هيأ كل شيء . فأخذوا في نقل الاحمال محتجين بالسفر الى مصيف قريب . ولمـــا دنا وقت الرحيل وعلمت انها لن تعود الى بلدها بعد ذاك عظم عليها فراق مسقط رأسها وهجر قصر ابيها وقد ألفت هواءه وماءه وظلاله وعاشت بين اهله ومنازله وأسواقه ، فقضت ايامها الاخيرة منقبضة الصدر . وقد ذهبت بنشاشتها وأخوها يسهل عليها الخروج وقهرماتتها ترى في خروجها شططاً وأما هي فلم تردد في الامر لحظة واحدة رغم ما أحست به من الوحشة.

وفي الليلة التي قضوها على أهبة الرحيل استدعت قيّم الدار اليها وأوصته بالقصر وأهله خيرا وأسرت اليه ان قد يطول غيابها فليكن أمينا بسيطا . فأسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاء مرا على فراقها لانه كان يجلها حتى العبادة . وكذلك كان احساس كل من عرفها او عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال .

وفي الصباح التالي خرجت على جوادها الادهم كأنها ذاهبة الى متنزه او مصيف . وركب معها اخوها وقهرماتتها ولم تتمالك عند خروجها من باب المدينة ان التفتت ودمعت عيناها حزنا على ما خلفته هناك من ثمار شبابها وجنى ابيها . لكنها تماسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما ستلقاه من اسباب السعادة بقرب حبيبها .

وكانت القافلة التي سافروا فيها قادمة من بلاد الهند بأحمال العطريات والبهارات والانسجة قاصدة الى خراسان ، فضموا أحمالهم الى أجمالها، وقد اعتمدت جهان في ذلك على اخيها ولبست ثيـــاب السفر وأقلعت القافلة في مساء ذلك اليوم وهي مؤلفة من قطارين مسلسلين مـــن الجمال والبغال على بعضها الاحمال وعلى البعض الآخر الرجال ، غـير المشاة من المكارين والسياس على أقدامهم ومعهم الكلاب وأدوات الطبخ والنوم ، فان القافلة كالبلد يمشي بأهله ودوابه وأثاثه • تمشي ساعات من النهار وساعات من الليل تختلف مقاديرها باختلاف فصول السنة ، حسب أوجه القمر ، يحدق بها حراس من الرجال تعودوا الاسفـــار والاخطار أشداء الابدان يعرفون الطرق ولهم صداقة ورهبة عند قبائل التركمان بدو الترك المتفرقين في البادية بين نهر جيحون ونهر الشاش• والمسافة بين النهرين تقطع في اسابيع وقد تستغرق الشهرين • ناهيك بما فيها من اللصوص وقطاع الطرق • ولذلك لا يجسر على السفر هناك غير القوافل الكبيرة • وتحتذي القافلة اثناء السير نظام الجند للحرب • وفي ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الاغنام او الابقـار وتنصب القدور على النار ويشتغل القوم بالاكل والنوم •

ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقت مثله ولا سمعت به في حياتها ، فكانت تحمل ثقله متجملة بالصبر ، وتعزي نفسها بلقاء الحبيب• كل ذلك من معجزات الحب وان امره لعجيب •

ولو اردنا تفصيل ما لقوه في سفرهم الطويل من حر النهار وبـرد الليل وخوف قطاع السابلة وأهل الغزو وما اصابهم من عطش او جوع لفراغ مؤونتهم من الماء او الطعام قبل بلوغ المكان الذي يتزودون منه لضاق بنا المقام • فنقول موجزين انه لما بلغت القافلة (الري) اشار سامان على أخته بالتخلي عنها ليسيرا وحدهما لان القافلة تمشي متثاقلة وليس

طريقها طريقهم الى العراق اذ تتوجه شمالا . فأذعنت جهان لرأي اخيها وانفردوا بأحمالهم ودوابهم عن القافلة . وفي مساء ذلك اليوم بغتهم جماعة من الرجال على الخيول في مكان بعيد عن همذان ، وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال . وأظهر سامان دفاعا حاميا. ولكنهم غلبوا على أمرهم فقبضوا على جهان وقهرمانتها وشدوا وثاقهما وفر سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام .

فلما رأت جهان نفسها في الاسر صاحت بكبير القوم وهم جميعا ملثمون وقالت له : «ما الذي حملكم على هذا العمل ؟» اذا كنتم تطلبون المال فهذه احمالنا خذوها وأطلقوا سراحنا ولن نطالبكم بشيء منها» .

فأجابها الفارس وهي اول مرة سمعت كلامه وقال : «لسنا لصوصا يا سيدتي . ولا حاجة بنا الى المال وانما أمرنا ان نحمل عروس فرغانة الى اعظم رجل في الارض لم ترض به طوعا فعساها ان ترضى به كرها» .

فلما سمعت كلامه ادركت ان فخا نصب لها . وكانت تؤثر ان يكون القوم لصوصا يبغون المال على ان تكون هي بغيتهم . ليس لانها تخاف ان تغلب على امرها فانها كانت من رباطة الجأش وثبات الجنان على ما علمت . ولكن شق عليها فراق حبيبها . فأرادت ان تزداد بيانا فقالت : «ولكن ما تأتونه يا صاح لا يشبه أعمال العظماء» .

قال : «وماذا يعمل الرجل اذا اضطر ولم ير مركبا يركبه الا هذه الوسيلة ؟ ماذا يفعل اذا تقدم خاطبا فرد خائبا ، وهو كبير القدر تأبى نفسه الفشل ؟»

قالت : «يترك الخطبة والخطيبة» .

قال : «واذا كان مفتونا قد غلب على امره» .

قالت : دعنا من ذلك فاني لا اراكم الا لصوصا تطلبون المال فهذه الاموال لديكم وأنا الكفيلة بأضعافها اذا اطلقتم سراحنا» .

قال : «اما اذا اعطيتنا المال فنشكرك كثيرا ، ولكننا لا نستطيع ان نطلق سراحك • ولا ينبغي يا سيدتي ان تحزني على شيء أضعته بهذا الانتقال فأنت ذاهبة الى اعظم رجل في العالم فاذا احسنت معاملته ملكت الرقاب » •

فأشكل عليها فهم حقيقة ما يعنيه فقالت : «لم أفهم مرادك ، من هو ذلك الذي تعنيه ؟»

قال : «ستعلمين كل شيء بعد بضعة ايام • فاطمئني وستكونين معنا معززة مكرمة ، ثم متى وصلنا الى المكان المقصود كنت في أرغد عيش وأسعد حال» •

فضت عدة ايام مع قهرمانتها واولئك القوم على أتم ما يرام مـــن الاعزاز والاكرام . وكانوا قد حلوا وثاقهما في صباح اليوم التالي وقاموا بخدمتهما احسن قيام من الطعام والشراب والمبيت •

وقد أتيح لجهان الفرار لو آطاعتها نفسها عليه . ولكنها اكبرته وخافت مغبته • وكبير النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت •

مرت في اثناء هذه الرحلة بمدن وقرى وجبال وأوديه وسهول وحزون. ورأت أقواما من أمم شتى فعلمت من القرائن انها مرت باذربيجان وجاء العريف ذات يوم واخبرها انها صارت في ارمينيا وآنها لا تلبث ان تدخل أردبيل • فعلمت انهم سائرون بها الى بابك الخرمي . فتذكرت انه كان قد طلبها من ابيها ولم تقبله ، فتحققت انها محمولة اليه فأخذت تتأهب لدفعه وعلمت انها مكيدة من اخيها فندمت على الركون اليه •

وقد اصاب ظنها بساسان فانه طبع على اللؤم وزاده فعل ابيه نقمة عليه وعلى أخته . وكان صاحب آطماع لم يستطع تحقيقها بعلو الهمة والبسالة مثل كبار الرجال فالتمسها بالحيلة والخداع • وليس أشأم على الامة من ان يعجز رجال المطامع فيها عن نيلها بأعمال تنفق ومصلحتها . لانهم حينئذ

يضحون بمصلحتها في سبيل مطامعهم . فانتظم سامان في سلك الخرمية. وهي جمعية سرية قامت على مقاومة اصحاب السيادة ، وزعيمها في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب أردبيل . وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته سرا . وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في استجلابها فاذا لم يستطع ذلك بالجاه طلبها بالمال فاذا أعجزه احضارها بالمال حملها بالقوة . فشاع خبره في الآفاق ، وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض ابوها فدس الى سامان انه اذا اتاه بها رفع قدره وأغناه وقلده منصبا عاليا . ولم يكن سامان قادرا على شيء في حياة ابيه فلما توفي ابوه وقد حرمه من الارث ازداد رغبة في الانتقام ، ولقي الاصبهبذ نائب بابك في فرغانة ايام النيروز في بعض جلسات الخرمية التي كان يحضرها سرا فيغيب عن البيت اياما وأبوه لا يعلم وانما كان يقضيها في الكيد والتواطؤ . فتواطآ معه على ان يحتال في حمل جهان الى أردبيل وهو لا يبالي عواطف المحبين لدناءة طبعه وهو ناقص الرجولة . وعزم على ذلك خاصة بعد مقابلته للافشين واطلاعه على وصية ابيه ، فأصبح همه الانتقام من الافشين فوجد في تنفيذ المؤامرة مع الاصبهبذ سبيلا لنيل ما يساه من الثروة والنفوذ والانتقام من عدوه . فاتفق مع الاصبهبذ على ان يهيىء رجالا يكمنون في الطريق بين الري وهمذان ليأسروا جهان اثناء سفرها الى العراق ليظهر للملأ انهم اخذوها منه قهرا . وبعد ان اخذوها لم يكن غرضه من الذهاب الى العراق الا القاء الفتنة بين ضرغام والافشين . وهو يعلم بسالة ضرغام وتفانيه في سبيل جهان فان علم ان الافشين أسرها أسرع الى قتله . وكان سامان ضعيف العزم قليل الدهاء . فلم يحسن سبك حيلته ، فلم ينطل امر اختفائها على ضرغام . فرجع من العراق وهو يعتقد انه اتم مهمته وفاز بمرامه .

أما جهان فلما علمت انها على مقربة من أردبيل قصبة أرمينيا في ذلك الحين اخذت تتهيأ لدفع ما يهددها . وكانت تسمع ببابك وتعرف انغماسه وتهتكه وتعلم انه مقيم بأردبيل . وما عتم الركب ان وصلوا الى غيضة كثيرة الادغال والاشجار اذا دهم اهل أردبيل امر لجأوا اليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد أذاهم فهي معقلهم ومنها يقطعون الخشب الذي يصنعون منه الصواني والقصاع ، واستغرقت جهان في تفكيرها وهي تنظر الى تلك الغيضة فيما تخاطب به بابك لتدفع أذاه ، وذكرت ضرغاما وقالت في نفسها : «ماذا هو فاعل اذا بلغه ما انا فيه ؟»

وفيما هي في ذلك رأت الركب يتحول عن الطريق المؤدي الى أردبيل ويدخلون الغيضة . وأتاها رجل منهم اومأ اليها ان تحول شكيمة جوادها الادهم نحو الغيضة ففعلت وهي لا تعرف السبب . وساروا في طريق وعر يخترقون الاشجار المشتبكة وجهان تلتفت يمينا وشمالا لعلها تعرف سبب هذا السير ، واذا بعريف الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها قائلا : «اراك تستغربين اتجاهنا الى هذا الطريق او لعلك تخافين ؟»

قالت : «اني لا اخاف شيئا ، ولكنني أستغرب دخولكم هذا الطريق الوعر بعد ان كنا على مقربة من أردبيل» .

فأكبر العريف جرأتها وكبر نفسها وقال : «أظنك لم تشاهدي الراية المنصوبة على مقربة من الطريق» .

قالت : «كلا وأين هي ؟»

فأومأ اليها ان تنظر وصعد بها الى آكمة هناك فلما صعدا قال لها : «ألا ترين هذه الراية ؟»

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لانها راية الافشين فقالت : «انها راية المسلمين» .

قال : «نعم وقد جاءنا احد الكوهبانية (وهم اصحاب الاخبار عند

قدامى الفرس يشبهون قلم المخابرات في هذه الايام) وأخبرنا ان مولانا قد غادر أردبيل واحتلها المسلمون بعده» .

قالت : «أظنك تعني بابك . والى اين ذهب ؟»

قال : «أخبرنا الكوهباني انه أوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له «البذ» عند نهر (ارس) ونحن ذاهبون اليه» .

وآنست من الرجل لطفا واكراما كثيرا فطمعت في ان يطلق سراحها بعد ان شغل القوم بالحرب فقالت : «فأنتم اذن ذاهبون بنا الى البذ ؟»

قال : «نعم يا سيدتي وهي على بعد ايام من هنا» .

قالت : «وهل حتم ان أذهب معكم ؟»

فأدرك الرجل انها تشير الى امكان تسريحها فقال : «ان امر مولانا قضاء لا سبيل الى نقضه ، هذا ولو اننا اخلينا سبيلك هنا لكنت في خطر شديد ، ان لم يكن من اللصوص فمن الوحوش» .

وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان . فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران قائلة : «وما الذي تخافينه عند (بابك) ومثلك لا يخشى عليه ؟ »

فتشجعت جهان بكلام خيزران وأدركت انها لم تقل ذلك اعتباطا . ثم عادوا الى المسير صعدا وجهان تلتفت الى ما حولها تتأمل وحشة ذلك المكان وسعة تلك الغيضة . فوقع بصرها من بعد على مدينة أردبيل ، ورأت ساحتها الكبرى غاصة بالجند وبالرايات الاسلامية ، وهي تعلم ان الافشين نفسه ليس هناك لانها تركته في فرغانه . وان النازلين بأردبيل فرقة من جنده .

وكان الوقت ظهرا فحث الركب خيولهم للخروج من الغيضة قبل دخول الليل خوفا من المبيت فيها . ولما اجتازوها وواصلوا السير بعدها مروا بمدن كثيرة منها ارشق وخش وبرزند . ورأت جهان رايات

المسلمين على أسوار هذه المدن التي ليست الا محطات لاختزان مؤونة الجند اثناء انتقاله لمحاربة بابك . فكانت كلما تقدمت أحست ببرد الطقس حتى اشرفوا على البذ . فرأتها أشبه بالمعقل او القلعة منها بالمدينة لانها مؤلفة من قصور عدة كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليه الابراج والابواب وفوقها أعلام الخرمية . والارض في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب مرور الجند فيها بأثقاله وأحماله . فعلمت ان بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعته حتى يكاد يستحيل على المسلمين اخذه .

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول ويسأل ايـن ينزلون جهان ، ثم عاد وأشار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه . ولما صارت جهان داخل السور شعرت كأنها في قفص فاستوحشت ، وأحست خيزران بوحشتها فساقت فرسها الى جانبهـا وسألت كبير القوم : «اين انتم ذاهبون ؟» . فقال : «ان مولانا الان في خارج البذ وقد أمر ان تأخذ عروسه الجميلة الى قصر النساء هنـا فتمكث فيه مكرمة معززة حتى يأتي» .

فأجفلت جهان عند سماعها قوله : «عروسه» . ولكنها تجلدت وظلت ساكتة حتى اقبلوا على القصر . وله سور خاص ورحبة وحديقة . وكأنه حصن قائم بنفسه . فوقف لهم الحراس ووسعوا . فدخلت جهـــان وقهرمانتها على فرسيهما من الباب الكبير . حتى اذا دنت من البـــاب الصغير المؤدي الى المساكن ترجلت وترجلت خيزران معها . وأسرع بعض الخدم لتناول الفرسين وقد ادهشهم ما رأوه في تلك القادمة من الجمال والهيبة لانها لا تحتجب .

وأسرع عريف الركب الى الوقوف بين يدي جهان باحترام وقال : «ارجو ان تكون سيدتي قد أغضت عن جرأتي في حملها على غير ما تريد فاني مكره على هذا بأمر سيدنا ومولانا ، ولكنني بذلت جهدي فـــي

راحتها ، وأرجو ان تذكرني بالخير لدى الامير ؛ فلا شك في انهـــا ستكون الآمرة الناهية !»

قالت : «ما اسمك ؟» . فقال : «بهزاد يا سيدتي» .

قالت : «والى اين تذهب الآن ؟» . قال : «الى قهرمانة القصر وهي تقوم بما تحتاجين اليه من اسباب الراحة» .

وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما فقالت للرجل : «ألا تعرف من اهل هذا القصر امرأة صديقة ؟»

فقال : «أعرف اكثرهن ؛ وهن من امم شتى ولكنني اظن مولاتنا ستأنس بالسيدة هيلانة فانها من بيت الامراء . وقد عرفت بيت زوجها بأرمينيا قبل ان آمر مولانا بابك بضمها الى اهله . وكنت ممن حملوها اليه وتعارفنا في اثناء الطريق . فرأيتها عاقلة لطيفة وأظن مولاتنا تستأنس بها . والآن أستأذن في الانصراف فقد اقبلت القهرمانه . وأنا اسمي بهزاد يا سيدتي ..!» وانصرف .

ظلت جهان واقفة هادئة رزينة وقوف الملكة بباب قصرها ؛ حتـــى وصلت القهرمانة اليها ، وهي عجوز طويلة القامة ؛ تدل ملامحها على ما كانت عليه من الجمال في شبابها . وقد لبست ثوبا يتلألأ بالوشـــي والتطريز ، وحول جيدها العقود وفي يدها الاساور وفي أذنيها الاقراط .

فلما وقع نظرها على جهان اكبرت ما هي عليه من المهابة والجمال رغم آثار السفر الطويل ؛ ورأت في عينيها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من عشرات النساء اللاتي عندها . واستغربت رباطة جأشها مع انها جاءت مكرهة ، وكانت تعلم علو منزلتها وكيف طلبها بابك من ابيها فلم ترض به ، فتوقعت ان تراها منكسرة القلب باكية حزينة . فلما رأتها رابطة الجأش هادئة ظنتها راضية بما قسم لها . ولما دنت منها رحبت بهـــا وقالت : «مرحبا بعروس فرغانة . يشق علي ان تحملي الينا قسرا وأرجو

ان تكوني قد غيرت رأيك» •

فلم تجبها جهان ، ولكنها ابتسمت ومشت معهـــا في دهليز القصر مطرقة • ولو تلفتت لرأت نساء القصر يتشابقن ويتزاحمن للنظر الـــى ضرتهن • فلما شاهدن جمالها وهيئتها حسدنها لانها سيكون لها المقــام الاول عند بابك • اما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى أدخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشا حسنا وقالت لها : «هذه غرفتك يــا حبيبتي فاستريحي فيها» •

قالت : «وأين ثيابي ؟• فقد اخذوها في جملة الاحمال» •

قالت : «ستكون عندك بعد قليل» • وخرجت وأرسلت اليهـــــا صناديقها •

ولما خلت جهان الى خيزران في تلك الغرفة ، أيقنت انها وقعت في الفخ فانقبضت نفسها ولم تتمالك عن البكاء برغم تجلدهـــا ، فوقفت خيزران بجانبها تواسيها متجلدة ، ولكنها لما رأت دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وأخذت تقبل طرف ثوبها وتقول : «آه يا سيدتي ما الذي اصابنا ؟• كيف جئنا وكيف أخذنا ؟ وأين نحن؟• اين ضرغام الان ؟» • واسترسلت في النحيب ، وجهان تبكي ولا تتكلم• ثم شعرت خيزران بأنها اخطأت باظهار ذلك الضعف بين يدي سيدتهـــا فتماسكت وقالت : «ولكنني واثقة بتعقلك وقوة جنانك ، وأنا رهينـــة اشارتك » •

قالت : «سمعت بهزاد يثني على امرأة من نساء هذا القصر اسمهـــا هيلانة ،• فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها • هل لك ان تبحثي عنها وتأتيني بها؟ وقبل ذهابك هيئي لي ثيابي» •

فأعدت لها ما تحتاج اليه ومضت ، وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وأخذ الخدم في انارة القصر بالشموع ، فبدلت جهان ثيابهـــا واستلقت

والتفتت الى ما حولها ، فلما رأت نفسها في تلك الحيرة وبينها وبين فرغانة سير بضعة اشهر ، وكذلك بينها وبين سامرا ، فكرت في ضرغام وساءلت نفسها : ترى هل علم بما اصابها ؟. او هل من سبيل الى انبائه بمكانها وما هي فيه فلعله يستطيع انقاذها . ثم تذكرت اخاها سامان وساءلت نفسها ما دهاه ؟ وهل قتل في المعركة ام فر الى مكان آخر ؟

وفيما هي في ذلك قرع الباب ودخلت خيزران تقول : «قد جئتك بالسيدة هيلانة يا مولاتي» .

فهمت جهان بالوقوف لملاقاتها ؛ فأسرعت هيلانة وأجلستها وجلست الى جانبها وهي تهش لها وترحب بها كأنها تعرفها من قبل . واستأنست جهان بها وأحست كأنها في قصر ابيها بفرغانة بين اهلها لانها آنست في وجه تلك المرأة لطفا ومودة واخلاصا ، فضلا عن الجمال . وكانت هيلانة شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء البشرة لا يبارح الابتسام فمها ؛ فابتسمت جهان لها وشكرت تلطفها ، فقالت هيلانة وهي تبتسم تشجيعا وايناسا : «مرحبا بعروس فرغانة ، لقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك ، وقد مضى وقت ونحن في انتظارك» .

فقالت : «ما زلت أحسبني ذاهبة الى الجحيم حتى رأيتك فخفت المصيبة عني» .

فأحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة ، وشعرت بجاذب نحوها وكأنها تذكرت بلواها هي فانقبضت نفسها وقالت : «هكذا اراد المولى يا حبيبتي ، ولو انك قست بليتك ببلية سواك لهان عليك امرك . لو عرفت ما فعلوا بي لرأيت انهم رحموك» .

فسألتها جهان ان تقص حديثها عليها عسى ان يخفف ما بها ، فتنهدت هيلانة وقالت : «لا بد انك عرفت من وجهي وضعف لغتي الفارسية اني غير فارسية ، وما انا تركية ولا ارمنية وان كنت اخذت من ارمينيا ،

ولكنني يونانية نشأت في بيت ابي في عمورية ، وخطبني بطريق من بطارقة ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده . ولم أكد أقيم معه عامين حتى بلغ هذا الخرمي خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطلبني من زوجي فلما أباني عليه بعث قوة من رجاله اغتنموا غياب زوجي وحملوني اليه بالقوة فحبسني هنا منذ بضعة أعوام فلا انا أعرف اين زوجي ، ولا ما فعله بعدي . وهو يعرف مقري طبعا ولكنه لا يجد سبيلا الي . هذا اذا كان لا يزال حيا» . قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها وابتسمت وقالت : «ما قصدت ان أكدرك بهذا الحديث ، ولكنني اردت ان أخفف مصابك» .

أما جهان فأعظمت مصاب هيلانة وهمت بأن تقص عليها حديثها فأرجعها الحياء . فتنهدت وأحبت تغيير الحديث فقالت : «اين هو بابك هذا ، وكيف تعيشون هنا ؟»

قالت : «ان الرجل يقيم بقصر غير هذا قريب من أسوار هذا البلد، وذلك ليراقب تحصيناته ، وهو ينقل من يشاء من نساء هذا القصر اليه لتقيم عنده يوما او بضعة ايام على ما يتراءى له» .

قالت : «بلغني انه اليوم في شاغل عن هذا القصر وأهله بأمر ذي بال» .

قالت : «نعم انه يتأهب لحرب شديدة» .

قالت : «مع من ؟» . قالت : «جاء جواسيسه بالامس ، وكان قد ارسلهم ليتجسسوا أحوال المسلمين في العراق ، فأخبروه ان المسلمين يتأهبون لارسال حملة عظيمة عليه ، يقودها الافشين صاحب أشروسنة بنفسه » .

فلما سمعت اسم الافشين ارتجفت وتذكرت انه علة بلواها ، ولو انتبهت هيلانة لرأت أثر ذلك التغير في عينيها ، ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا انها بنت مرزبان في فرغانة طلبها بابك ولم ترض به فاختطفها

قسرا . فقالت جهان : «وهل جاء الافشين نفسه ؟»

قالت : «لا أدري ولكنه آت ولا شك في ذلك ، وقد خرج بابك من البذ في جماعة من رجاله ليقيم العراقيل وينصب الارصاد في الطريق . وقد لا يعود الينا قبل بضعة ايام» .

ففرحت للخبر ونبهها ذكر الجواسيس الذين عادوا من العـــــراق فسألت : «هل تعرفين احدا من الجواسيس الذين عادوا من العراق ؟»

قالت : «خادمتي تعرف واحدا منهم» .

وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع الحديث ، فلما سمعت هيلانة تقول ان خادمتها تعرف احد الجواسيس ابتدرتها قائلة : «أي خادمة يا سيدتي ؟»

قالت : «التي دلتك علي» .

قالت «عرفتها ، حقا انها لطيفة كأنها اقتبست من سيدتها» .

فقالت هيلانة وهي تضحك : «لذا وقع الجاسوس في هواها ولا يزال يحمل اليها الهدايا ويأتمر بأمرها ويريد ان يتزوجها» .

فسرى عن جهان عند سماعها ذلك ، ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر اليها فتفاهمتا فقالت خيزران : «أريد ان أقترح عليها امرا تكلف خطيبها به في طريقه الى العراق . هل تساعدينني في ذلك ؟»

قالت : «حبا وكرامة ، أعدي ما تريدين اعداده» .

فتهلل وجه خيزران فرحا لعلمها انها تستطيع ارسال خبر سيدتها الى ضرغام . ثم وضعت المائدة فتناولن العشاء معا ، وتذكرت هيلانـة ان جهان في حاجة الى الراحة من تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على ان تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها .

- ١٦ -

بين بابك وجهان

باتت جهان ليلتها تتقاذفها الهموم من كل جانب ، فأرادت ان تكتب الى ضرغام كتابا ولكنها خافت ان يقع الكتاب عمدا او سهوا في يــــد غريبة فتكون العاقبة وخيمة . فصممت اخيرا ان تبعث الرسالة شفاها . فلما نهضت في الصباح اخبرت خيزران بما استقر عليه رأيها : فاستحسنته وقالت : «يكفي ان نخبر سيدي ضرغام بأن جهان في البذ عند بابك» . قالت : «هذا الذي اراه» .

فقالت : «آلا تزورين هيلانة ؟. ومتى كنا عندها أقابل الخادمه وأفهمها ما تصنعه ؟»

قالت : «حسنا» . وآخذت في اصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا بأحد الخصيان قد دخل وقال : «اين السيدة جهان ؟»

فلما سمعت جهان اسمها أجفلت وظنت بابك اتى او انه بعث يطلبها. فسكتت وتصدت خيزران للرسول وسألته عما يريد فقال : «ان اخاها يريد مقابلتها !»

وما سمعت جهان ذكر اخيها حتى تنازعها عاملا الفرح والغضب ـــ فرحت لعلها تسمع منه خبرا عن ضرغام ، وغضبت لانه خدعها ، فقالت للرسول : «اين هو ؟.. فليدخل» .

فدخل سامان وعيناه تذرفان الدموع وقد احمرتا من البكاء ، ولما أقبل عليها ترامى بين يديها وهو يبكي ، فشغلها بذلك عن تعنيفه . ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة : «ما بالك ، ما الذي يبكيك ؟»

قال وصوته مختنق من البكاء : «لا ادري ..»

قالت : «كيف لا تدري •• قل •• قل» •

فلم يجبها وسكت وجعل يمسح دموعه بكمه وهو مطرق ، فقالت : «من اين اتيت ؟» • قال : «من سامرا» •

فقالت : «وكيف ضرغام ؟ هل لقيته ؟» • فلما ذكرت ضرغاما عاد الى البكاء فاختلج قلبها في صدرها ووقفت فجأة وصاحت فيه : «قل ما بالك؟ كيف ضرغام •• اين هو ؟»

فتراجع وأمسك بيدها كأنه يستمهلها حتى يسكن روعه ثم قال : «لا أعلم اين هو» •

قالت : «ألم نقل انك كنت في سامرا ؟»

قال : «نعم كنت فيها • ولكنه ليس هناك» •

فقالت : «ضرغام ليس في سامرا ؟»

قال : «نعم يا أختي ليس هناك ؛ وقد سألت الناس كافة فلم اجد بينهم من يعلم اين هو» •

فأخذتها الدهشة ، وبقيت تنظر اليه متسائلة ، فعاد الى الكلام فقال: «ماذا اقول ؟• ان ضرغاما ليس في سامرا ؛ ولم يره احد رجع اليها بعد ذهابه الى فرغانة» •

فلما سمعت قوله على الدم في عروقها ، وكاد الغضب يغلب على رشدها ، لكنها تجلدت وأمسكت نفسها ، فتقدمت خيزران وأخذته بيده نحوها وقالت : «صرح • ما الذي سمعته ؟»

فقال وهو يخفض صوته محاذرا ان تسمعه أخته وهي واقفة تسمع : «لما سطا علينا اللصوص وقبضوا على حبيبتي جهان وعليك رأيت حتما علي أن أبلغ الامر الى البطل ضرغام ، فأسرعت الى سامرا وقصدت الى بيته فيها فوجدته خاليا خاويا ، فسألت عنه كثيرين فلم اقف له على خبر• وأخبرني احدهم ••» • قال ذلك وبلع ريقه وسكت مطرقا • فلما توقف

عند هذا أصغت اليه جهان وتطاولت بعنقها وأشارت اليه خيزران ان يصرح بما سمعه فقال : «اخبرني ان عدونا الاكبر سبب مصائبنا جميعا قد بعث اليه جماعة من رجاله كمنوا له في منحنى الطريق وغدروا به» . قال ذلك وبكى .

فلما سمعت جهان قوله ورأته يبكي امسكت نفسها حتى كف عن البكاء ، ثم تفرست في وجهه تفرس ناقد وهو مطرق لا يستطيع النظر اليها كأن أشعة نارية تنبعث من عينيها فتبهر بصره — والمنافق لا يستطيع تثبيت بصره في عيني احد ولاسيما اذا كان في غضون نفاقه — فلما لاحظت ذلك تنبه ذهنها الى احتمال كذب سامان . وبدلا من ان يقيمها الخبر ويقعدها حتى يخرجها عن الصواب ، كما توقع . اخذت تراجع اعمال اخيها السابقة ، فرجحت انه يكذب عليها لحاجة في نفسه فقالت : «هل تقول الحق يا سامان ؟»

قال : «وهل أختلق الاخبار من عندي ؟ لقد قصصت عليك ما رأيته وسمعته ، وآتسنى من صميم فؤادي ان يكون كذبا» .

فأطرقت هنيهة ثم قالت : «من الذي أنبأك اني هنا ، ومن ادخلك القصر ؟ »

فلما سمع سؤالها ارتج عليه وأخذ على غرة ، لان معرفته مكانها تدل على علاقة بينه وبين اللصوص ، فتوقف حينا . ولكنها لم تمهله حتى يهيء الجواب فقالت : «لا اطلب منك جوابا . ويكفي ما فهمته فاذهب الآن الى اصحابك الخرمية لعلهم يكافئونك على صنيعك . اذهب» . قالت ذلك وخرجت من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب الى هيلانة . فخرج سامان وهو يهز رأسه ويتظاهر بتعجبه من تصرف أخته وانكارها ما يقول .

فلما خلت خيزران الى جهان قالت : «ارى يا سيدتي ألا نستخف بما

ذكره سامان وأن نرسل من يأتينا بحقيقة حال ضرغام» .

قالت : «لا ريب عندي في كذب سامان . ولكنني ارى ان نكلفي الجاسوس ان يذهب الى سامرا ويسأل عن ضرغام رئيس حرس الخايفة» .

وذهبتا معا الى زيارة هيلانة فرحبت بهما . وجلست السيدتـــان للحديث وأست خيزران مهمتها مع الجاسوس .

* * *

كانت قهرمانة بابك سيدة قصره الآمرة الناهيه فيه . وكان جميع من يضمهم من النساء والخصيان يحسبون بأسها ويخشون لخدمها لانهـــا الوسيلة بينهم وبين بابك . الا جهان فانها بقيت على سليقتها متلطفـــه متحفظة . ومع هذا كانت القهرمانة تجل قدرها وتبالغ في اكرامها . وبعد ايام جاءت الى جهان ووجهها يتهلل بشرا فحيتهـــا وقالت : «ابشري ان العريس قد جاء !»

فاجفلت جهان ولم تجب ، فحملت القهرمانه ذلك منها على محمـــل الحياء فقالت : «جئتك من قبل مولانا بابك . فانه رجع من سفره ولما علم بمجيئك سر سرورا عظيما وأمرني ان ادعوك اليه» .

فأجابتها جهان بهدوء وسكينه : «الى أين ؟» . قالت : «الى قصره» .

قالت : «أليس هذا الذي نحن فيه قصره كذلك ؟»

قالت : «بلى ولكنه الف ان تنتقل نساؤه للاقامه معه هناك» .

فهزت جهان رأسها انكارا واباء وقالت : «لا» . ولم تزد .

فعجبت القهرمانة لجوابها وهي في الاسر بين مخالب الاسد . وقالت لها : «ان بين هذا القصر وقصر بابك دهليزا مسقوفا تسير فيه المـــرأه مكشوفة كأنها في غرفتها ولا يراها احد . فهيا ولا تخشي شيئا» .

فظلت جهان جالسة لا تبدي حراكا ، فغضبت القهرمانة لهـــذا الاستخفاف وقالت بصوت عال : «أنصح لك يا بنيـــة بأن تنهضي ولا تستخفي بهذا الرجل فانه فتاك لا يبالي احدا اذا غضب» • ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كتفها تتحبب اليها وقالت : «انني شديدة الحرص عليك لاني احببتك منذ رأيتك ــ قومي يا حبيبتـــي قومي» • فرفعت جهان بصرها اليها وقالت : «أشكر لك شعورك ، ولكنني لست بخارجة من هذه الغرفة» •

فنفرت القهرمانة من الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت ، وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما ، وساءها ما ابدته سيدتها من الانفة والشدة وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة . فسبقتها جهان قائلة : «لا تقولي شيئا يا أماه . فاني لا أبالي ما يكون من هذا الجلف العاتي • انه يريد ان آذهب اليه مختارة • ولكني لن أذهب وما قدر يكون • على اني رغم وحدتي وأسري هنا أشعر بأني لي قوة وسلطانا ، كما لو كنت في قصر ابي بين اهلي وأعواني • ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانـــة وخطيبه ضرغام لا تذل لانسان !»

ونهضت فالتفت فوق ثوبها بمطرف من الخز : وتخمرت بشـــال مزركش التماسا للدفء لانها في اقليم بارد • ومشت في ارض الغرفة مطرقة تفكر فيما عسى ان يفعل بابك اذا بلغه اباؤها ، وعزمت على الدفاع والثبات لآخر لحظة في حياتها •

وفيما هي في ذلك وخيزران واقفة لا تبدي حراكا ، سمعت سعالا قويا لم تسمعه في القصر من قبل ، فعلمت انه سعال بابك . وآنست فـــي القصر حركة وجلبة لان اهله لم يألفوا دخول بابك عليهم ، ثم سمعت صوت القهرمانة تخاطب بابك ونظرت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قادما ، والخدم على كل من الجانبين يخرون سجدا ، والنساء

يحنين رؤوسهن احتراما ، والجميع يحيونــــه كما يحيون معبودهم ، وأكثرهم من المجوس ، وهو يمشي مشية المختال الفخور .

فلما وقع نظرها عليه ارتجفت غضبا ، وكانت قد ألفت منظر سجود الناس في قصر ابيها فلم تستغربه ولكنها ابت ان تكون هي ايضا في جملة الساجدين . بل غالت في الترفع شأن الانسان اذا كان في رفعة وانحطت منزلته بعض الشيء فانه يصبح اكثر محافظة على مقامه .

وكان بابك ضخم الجثة ، عظيم الهامة كبير الوجه . جاحظ العينين ضخم الشفتين ، كبير الكتفين بارز الصدر اذا مشى ترنح في مشيتـــه ترنح الخيلاء والكبرياء . وقد عتاد الصداره في موقفه او مجلسه حتى لو اراد الانتناء لتناول شيء وقع منه لم تطاوعه اعضاؤه . ولا غرابة في ان يكون هذا شأن من لا يفتح عينيه الا على المسبحين باسمه ، المتفانين في طاعته ، مثل بابك رئيس الخرمية وقائدهم في حروبهم . فضلا عن انه كان شجاعا شديد البطش قوي العضل آبي النفس . ولولا انغماسه في الملذات والشهوات لكان من اعاظ الرجال . ولكنه أدمن الخمر وأسرف في احتسائها ولاسيما في ايام السلم . وكان في هذا اليوم قد أعد مائدة الشراب في قصره وبعث في طلب جهان وجلس في انتظارها يشرب . فلما جاءته القهرمانة بخبر رفضها كانت الخمر قد لعبت برأسه فأكبر اباءهـا وجاء غاضبا ليعاقبها .

فلما دنا من غرفتها تقدمت القهرمانة وفتحت الباب وقالت : «هي هنا يا مولاي» . ورجعت واشارت الى خيزران ان تخــــرج معها فخرجت وتباعدت .

وكانت جهان واقفة فلما رأته داخلا قعدت فاستنكر استخفافها به ، ولكنه لم يكد يرى جمالها الرائع ومهابتها وما ينجلي في عينيها من الذكاء والسحر حتى دهش . وعلى كثرة من رأى من جميلات النساء ، الفارسيات

منهن والكرجيات والشركسيات والروميات ، وبعضهن اجمل من جهان تكوينا وأصفى لونا . شعر بأن عينيه لم تقع على فتاة في مثل جاذبيتها فخف غضبه ، وان اخذته العزة بالاثم ، لتعوده خضوع الناس له على طول الخط فقال : «وتقعدين ايضا في حضرتي ؟»

أما جهان فانتفضت كالعصفور بلله القطر : لفرط تأثرها رغم رباطة جأشها ، ثم تشاغلت باصلاح شعرها ورفعت بصرها اليه وحدقت وهو ينظر في عينيها : فأحس بسهم اخترق صدره وكأن الغضب تسرب من صدره حتى خرج من اطراف انامله وسرى عنه . وقالت : «هل ينفعك وقوفي ان لم تملك فؤادي ؟»

فتوسم من جوابها فرجا فقعد على وسادة بجانبها وقال : «ارجو ان يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد . فلا اظن احدا اجدر به مني . وأنت تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود المسلمين . وانه ليحزنني ان حملتك الي قهرا ولكني لم أقدم على ذلك الا بعد ان فشلت في نيلك بالحسنى . فكيف ترينني ؟»

فلما رأت تلطفه وتقربه قالت : «اراك بطلا باسلا قاهرا ، وما انت الا اسير» .

فأجفل وقال : «اسير ؟! ماذا تقولين ؟»

قالت : «نعم انك اسير شهواتك . فمن كان ملكا عظيما قاهرا لا يليق به ان يكون عبدا لشهواته .. اني أشتم رائحة الخمر منبعثة منك» .

قال : «يلوح لي انك من اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين فيحرمون الخمر . وهل في ملذات العالم اشهى منها بل هي أم الملذات لانها تشحذ القوى وتستحث مطالب الجسد فتضرم الرغبة فيما تشتهيه النفوس من الطيبات» .

فقالت : «كيف تكون صاحب السلطان وقاهر المسلمين ، ثم ترى

هذه الشهوات زينة الحياة ؟. ان هدف البطل هو ان يكون سيدا جليلا نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب» .

فقطع كلامها قائلا : «ألست كذلك ؟»

قالت : «كلا . فقد يخافك البعيد ولكن القريب لا يحبك . والذين حولك يسبحون باسمك ويعظمونك تملقا . فاذا غبت قالوا فيك كل قبيح لانك لم تفعل ما يحببك اليهم» .

فسل بابك في امر هو مغلوب فيه . ورأى من الجهة الاخرى انه بالغ في التزلف لتلك الفتاة ، وأكبر ان تكون منه بمنزلة الواعظ او المرشد فقال : «مالنا ولهذا الجدال الآن ؟ هيا بنا يا جهان» . ووقف وهو يمد يده ليمسك بيدها ويعينها على النهوض . فجذبت يدها منه وظلت قاعدة.

فمد يده ثانية ليمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وقالت : «قف عند حدك يا بابك ، انك بهذا العمل تؤيد قولا انت تنكره على الناس . لا تدن مني» .

فقال : «ومن يدنو منك اذن غيري ؟ انت عروسي وقد بعثت فأتيت بك من أقصى بلاد الترك لأجعلك سعيدة ، فلا تجعليني شقيا !»

قالت : «من كانت مطالبه جسدية وكان ذا سلطان فقد لا يشقى . لأن يده تنال ما يريده ان لم يكن بالمال فبالسيف ، فكيف تشقي لاني لم أرضخ لك وفي قصورك مئات من النساء الجميلات ؛ فافرض اني لست هنـــا واتركني وشأني» .

قال : «لو لم اكن أتوقع السعادة بقربك . او لو كان لي غنى عنك ما تكبدت المشقة في استقدامك ، ولم اكن لأنال ذلك اولا حبيبنـــا سامان » .

فتحققت عند ذلك ان اخاها هو الذي أسلمها . فتحولت نقمتها اليه وأصبحت لا تدري ممن تنتقم ولا كيف تنتقم ، فتجاهلت ما فهمته عن

ساسان وقالت : «تكبدت كل ذلك من اجلي لتجعلني مثل نساء قصرك ؟»

قال : «بل أبالغ في اكرامك وأهدي اليك الجواهر وألبسك احسن الملابس وأختصك بالتقرب والمحبة ، وأجعلك سيدة هذه المدينة ، ولا أمنعك شيئا تطلبينه» .

قالت : «تلبسني الجواهر ؟ ما الجواهر عندي الا حجارة لامعة لا ترفع نفسا ولا تعلي مقاما ، وهذا صندوقي مملوء من الجواهر ، وقد تركت قصري وعقاري في فرغانة . ولو بقيت هناك لكنت ملكة من الملكات ولكني رأيت هذه الاموال من اسباب شقائي فتركتها !»

فقطع كلامها قائلا : «بلغني ان أباك المرزبان اقام عليك الافشين صاحب أشروسنة وصيا . ما لنا ولكل ذلك تعالي تتناول الطعام معا» .

ودنا منها فتراجعت مغضبة فنظر اليها شزرا وقال : «اذا كنت لا تأتين طوعا اخذتك كرها ، وأنت تعلمين اني اذا قلت فعلت . فقد كنت في فرغانة وأتيت بك الى أرمينيا . فهل يشق علي ان انقلك من قصر الى قصر وبينهما مائة خطوة ؟»

قالت : «أظنك تحسبني وانا على مرأى منك اقرب اليك مني يوم كنت في فرغانة . أعلم انني لا ازال بعيدة عنك كأنني في فرغانة او ابعد منها ! »

قال : «تقولين ذلك وأنت بين يدي . ولو شئت لقبضت عليك بيد من حديد او أمرت رجالي فحملوك الي موثقة ؟ ولكنني لا ازال ارجو رجوعك الى رشدك» .

فنظرت اليه نظرة حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت : «قد نقبض على عنقي ، وربما استعنت برجالك فأوثقني او قتلتني . ولكنك تنال كل ذلك قبل ان تستطيع لمسة او نظرة مما كنت ترجوه مني . اقتلني اذا شئت ، واذا جبنت عن قتلي فأنا لا أجبن عن قتل نفسي فلا تحتقرني او

تهددني ، واعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفسا وأربط جأشا وأقوى جنانا ، واذا كنت تحسبها كسائر من في قصرك من اللقيطات او المسبيات او الرقيقات فقد اخطأت . انك تكلم ابنة مرزبان فرغانه . وقد قادتها المقادير اليك فاكسب صداقتها ودع غير ذلك . او فامض في سبيلك وأرحني وأرح نفسك» .

وكانت تتكلم كمن له سلطان ، وبابك يشعر بأنه يكاد يغلب على امره بين يديها وكلما ارسلت اليه نظرة حلت من عزائمه عقدة فقال : «والآن .. ماذا تريدين ؟»

قالت : «أريد ان تتركني وشأني» .

قال : «اتركك اياما تفكرين في امرك لعلك ترجعين الى صوابك وتعلمين انك اذا أطعتني نلت السعادة» . قال ذلك وتحول حتى خرج من الغرفة وقد امتقع لونه . وكانت القهرمانة وخيزران وافتين تسمعان شيئا من الحديث وكلتاهما معجبة ببسالة جهان وأنفتها . وبعد ان كانت القهرمانة ضدها اصبحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاطفها وتراعيها من ذلك الحين .

اما جهان فلم تقل ما قالته لبابك تهديدا ، ولكنها كانت قد اخذت عدتها للدفاع او الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستمهال قصدا ريثما يعود الجاسوس وتعلم ماذا جرى لضرغام ثم تنظر فيما يكون .

ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان في القصر ولم تبق واحدة من النساء الا أعجبت بها . وأصبحن ينظرن اليها نظر الصغير الى الكبير او نظر الجاهل الى العاقل ، ولاسيما صديقتها هيلانة فانها حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان وأخذت تسألها عما جرى وجهان تتواضع في التفسير وتتلمس الاعذار لبابك على جرأته . فلم يكن ذلك الا ليزيد هيلانة احتراما لها وتقديرا .

وهكذا اصبحت جهان حديث اهل البذ ومضرب أمثالهم . وهي لا تعبأ بشيء من ذلك وكل همها ضرغام وابلاغ خبرها اليه ولم تعد ترى سامان .

مكثت حينا في انتظار رجوع الجاسوس وكانت قد بادلت هيلانه ودا بود . فقصت عليها متاعبها : فشاركتها هذه آلامها وأصبحت شديـــدة الاهتمام بأمرها . ولم تكن أقل شوقا لرجوع الجاسوس من جهـــان نفسها . وعاد الجاسوس واتفق يوم رجوعه ان كانت جهان عند هيلانه في غرفتها وخادمتها قائمة على الخدمة وخيزران غائبة . فلاحظت جهان في وجه الخادمة تغيرا فقالت لهيلانة : «اسأليها ماذا قال لها خطيبها ؟»

فدهشت هيلانة لتلك المفاجأة وقالت : «وهل تظنينه جاء ؟»

قالت : «نعم جاء ، ويظهر انه لم يأتنا بخبر مفرح» .

فاستغربت تكهنها وأشارت الى خادمتها فأتت فقالت لها : «هل عاد صاحبنا من سامرا ؟ ومتى ؟»

قالت : «نعم يا سيدتي اتى منذ ساعتين» .

فقالت : «ولماذا لم تخبرينا» .

وكانت جهان تسمع ذلك . فاضطربت فصعد الدم الى وجنتيها وقالت: «ماذا قص عليك ؟»

قالت : «قال لي انه سأل عن الرجل الذي طلبت منه البحث عنه في سامرا كلها فلم يقف له على خبر» .

قالت : «هل يمكن ان نراه ونسأله» .

قالت : «لا ادري هل تأذن القهرمانة في ذلك أم لا ؟»

فقالت هيلانة : «هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة لانهـا سحرتها . فاذكري للقهرمانة انها تطلب مقابلة صاحبك لتسأله في امر» .

فذهبت الخادمة وعادت به ، فسألته جهان عما علمه فقال : «سألت

عن ضرغام يا سيدتي فلم اجد احدا يعرفه» .

قالت : «ألم تسأل عنه في قصر الخليفة ؟»

قال : «سألت عنه فلم اقف على خبره» .

قالت : «أظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليه» .

قال : «سألت عن رئيس الحرس فقيل لي ان اسمه الصاحب» .

قالت : «هل انت واثق مما تقول ؟»

قال : «نعم يا سيدتي وقد دققت البحث عن رئيس الحرس نظرا الى ما رأيت ما اهتمام الناس به : فقيل لي انه رجل شجاع باسل وان الخليفة يحبه حبا جما وقد زوجه فتاة جميلة من بنات قصره وأهداه هدايا ثمينة» .

فثبت عندها انه صادق فيما يقول ، وقد كان من الجائز ان يتبادر الى ذهنها ان الصاحب هو ضرغام نفسه لولا حديث زواجه وهي لا تتخيل ان ضرغاما يتزوج ويتركها ، فتأكد عندها ما قصه عليها اخوها من ان الافشين سعى في قتله ، فازدادت ميلا للنقمة وغلب اليأس عليها ونسيت موقفها ، ولم تنتبه الا وخيزران تدعوها فخجلت ونهضت تقصد الى غرفتها للاختلاء فيها . ونسيت ان خيزران نادتها ، فلما خرجت من عند هيلانة لقيتها خيزران فقالت : «الى اين يا سيدتي ؟»

قالت : «أظنك دعوتني وقد نسيت . ماذا تريدين ؟»

قالت : «كنت في حديقة القصر فرأيت بابك خارجا من قصره فظننته خارجا الى الحصون والمعاقل ، واذا به دخل هذا القصر وذكر للقهرمانة انه يريد ان يراك الان ، فأوعزت الي ان ابلغك ذلك» .

فأجفلت وقالت : «بابك يطلب ان يراني ؟»

قالت : «نعم وهو في غرفتك» .

قالت : «وفي غرفتي ايضا ؟ . ما العمل يا أورمزد ساعدني . انــي

اراني في ورطة يصعب التخلص منها . أعلمت الخبر الذي جاء بـــــه الجاسوس ؟»

قالت : «نعم يا سيدتي علمته» .

قالت : «وما رأيك ؟» . قالت : «يظهر ان مولاي ضرغاما ليس في سامرا» .

قالت : «لا يخيفني غيابه عنها ، وانما يخيفني ان تصدق رواية اخي سامان ألم تسمعيها ؟»

قالت : «سمعتها ولكن من يعلم الصحيح ؟»

كانت جهان وخيزران تتكلمان وهما تمشيان على مهل ، حتى اشرفتا على الغرفة فتراجعت جهان وقالت : «والآن لا بد من مقابلة بابك ؟ ماذا اقول له ؟» لعل عنده خبرا جديدا» .

وسمعت صوت بابك ينادي من داخل غرفتها : «جهان . جهان» . فأسرعت وركبتاها تصطكان ولكنها تتجلد ، حتى اقبلت على باب الغرفة فأطلت على بابك ، وكان جالسا فوقف لها واستقبلها وهو يبش ويبتسم، فلما رأت ابتسامه اطمأن قلبها ولاسيما عندما وقـــف لها ورحب بها . وابتدرها قائلا : «اني افف لعروس فرغانة وان كانت هي تحتقر بابك ولا تقف له» .

قالت : «ان جهان لم تحتقر بابك وانما احتقرت خصالا فيه ذكرتها» .

قال وهو يجلس ويدعوها الى الجلوس : «واذا نزع تلك الخصال منه هل تحبينه ؟»

ولاح لها من خلال كلامه انه جاد فيما يقول ، فأظهرت ارتيابها قائلة : «اراك تسخر من فتاة اغضبتك فأحببت التشفي منها ، ولكنني اخلصت لك النصيحة وعرضت نفسي للخطر» .

وقال والاهتمام باد في محياه : «لا يا جهان ، اني لا أسخر منك

ولكنني أعملت الفكرة فيما قلته لي فقضيت مدة غيابي عنك وأنا أفكر في اقوالك وحقيقتها تتجلى لي رويدا رويدا . وكلما انجلت شعرت بالخجل من نفسي وندمت على ما فرط مني . كنت منغمسا في الملذات والاكثار من النساء لاني لم اجد واحدة تملأ عيني وتملك قلبي . ولا أدري ما الذي غيرته انت من وجداني .. اراني قد حدث لي انقلاب لم أعهد مثله من قبل ، كأنك روح مرسلة الي من عند أورمزد . وانما أربي الان ان تقولي لي انك تحبينني ..» . قال ذلك والعرق يتلألأ على جبينه .

فاستغربت انقلابه ولم تخف مداجاته او خداعه لانها قرأت الاخلاص في عينيه وأكبرت ان ترى ذلك الرجل الفظ يتقرب اليها بمثل هذا الكلام.

قالت : «هل تعني حقا ما تقول ؟»

قال : «نعم . وأنت تفهمين اني لا أداجي . وقد عملت بنصيحتك بعد ان نزلت منزلة الدم من قلبي والسواد من عيني ، فهجرت الخمر وسأترك النساء من اجلك . صدقت يا جهان ان العيشة الهنيئة في الحب المتبادل . وها أنذا احبك فهل تحبينني ؟.. لا عذر لك في الرفض الان».

فأطرقت ، وفكرت فيما سمعته من امر فقد ضرغام ويأسها من وجوده . ورأت ان هذا الجبار يخطب ودها ويعاهدها على الانقطاع لخدمتها وهجر الخمر والنساء لاجلها . فحدثتها نفسها بأن تجيبه بالايجاب ، فاعترضها خيال حبيبها فتصورت انه كان ضالا فوجد فكيف تقابله وبأي عين تنظر اليه . فظلت حينا تتردد وبابك صابر ينظر اليها ويراقب حركة عينيها ، فلما استبطأ جوابها قال : «أظنك تفكرين في الافشين » .

فلما سمعته يذكر الافشين ظنته يعلم شيئا عنه فقالت : «وكيف عرفت اني أفكر فيه وما علاقته بي ؟»

قال : «أليس هو الوصي عليك ؟» . قالت : «وماذا في هذا ؟»

قال : «لا اخفي عليك ما سمعته وان كنت تحاولين اخفاءه . علمت ان الافشين بعد ان جعله ابوك وصيا عليك طمع في زواجك فرفضت ، أليس كذلك ؟»

فأطرقت وبدا الحياء في محياها ولاح الغضب في عينيها ولم تجب ، فقال بابك : «وان فتاة ترفض الافشين ملك أشروسنة ، ثم ترفض بابك صاحب أرمينيا عفافا ورغبة في الفضيلة لجديرة بالعبادة . وقد بلغت ان الافشين انتقم منك انتقاما جارحا . ولسوف أنتقم لك منه أشـــد الانتقام » .

فلما سمعته يلوح بالانتقام من الافشين مالت الى القبول ، ولكنها بقيت في قلبها ترجو لقاء ضرغام فقالت : «اذا كنت تعني ما تقول وانك تنتقم لي من الافشين فاسمح لي ان أنبهك الى امر . انت تعلم انـــي فارسية مثلك وان ابي مرزبان كبير لم تكن تخفى عليه خافية من نوايـا الفرس على العرب . فأنت متآمر مع الافشين والمازيار صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين . أليس كذلك ؟ أصدقني» .

قال : «صدقت هذا هو الواقع» .

قالت : «فما معنى ان يحاربك الافشين بجيش من المسلمين ؟»

قال : «انه يتظاهر بنصرته للمسلمين ليجمع اموالهم ويرسلها الـــى بلده ومتى توافر المال اتحدنا جميعا وقلبنا هذه الدولة» .

فنظرت اليه نظرا نافذا والارتياب باد في عينيها وقالت : «أتكون قائد هذا الجند وزعيم العصبة الخرمية والناس يجلون قدرك ويسجدون لك ، ثم تنطلي عليك هذه الحيلة ؟»

قال : «ولماذا تعدينها حيلة ؟» اني أعرف الافشين من قبل . وقـــد اجمعنا وأقسمنا على هذا الامر منذ بضع عشرة سنة ومعنـــا صاحب طبرستان ، وما زلنا نجدد العهد كل عام فأي نفع له في خداعنا ؟»

فتفرست في عينيه وقالت : «ان الافشين يخدعك ليكسب المال ، لانك ان لم تقم لحرب المسلمين لا يبقى له باب للارتزاق ، أما المازيار صاحب طبرستان فقد يكون أخلص طوية ولكنه لا شأن له في عملك • فـــاذا شئت ان اجيبك الى ما طلبته مني فلا أريد لك ان تكون مخدوعا تحارب برجالك فاذا فزت طالبك الافشين بحق الشركة واذا هزمت استفاد من هزيمتك » •

فانتبه بابك كأنه هب من رقاد ، ورآها قد ازالت غشاوة عن عينيه، وشعر بسلطانها عليه فقال : «بورك فيك • نعم الرأي رأيك • لا شك ان الافشين مداج» •

قالت : «فمثلك يجب ان يكون صاحب الامر واليه المرجع لا شريك له يقاسمه ولا منازع ينازعه • فاذا رأيت ذلك كنت انا عونك في سراء السلم وضراء الحرب ، على ألا يتم زواج بيننا الا بعد الفراغ من هذه الحرب ، وعند ذلك أفخر بأني حظيت بأكبر رجل في فارس» •

فتوقدت حماسة بابك وقال : «ولكن قولي قبل كل شيء • هـــل تحبينني منذ الان ؟»

وقالت وفي شفتيها ابتسامة الظفر : «ومتى كان الحب يهمك ؟»

قال : «عندما وجدت المرأة التي تستحق محبتي ، فأرجو ان أستحق محبتها • فهل تحبينني ؟»

فأمسكت نفسها لحظة ثم قالت : «نعم •• لا ••» • ولم يطاوعهـــا لسانها فقالت : «احبك محبة الاخ حتى تفرغ من هذه الحرب» •

قال : «يكفيني ذلك يا جهان» •

فاستدركت وقالت : «وأرجو ألا يعرفني الناس بهذا الاسم لاني قد أخطب في الجند وربما شاع ذكري ، فلا احب ان يعرفني الافشين او غيره • فليكن اسمي منذ الان جلنار» •

قال : «اتفقنا يا جلنار» • وشعر لساعته براحة ولذة فكأنه انتقل من زمرة الاشرار الفاسقين الى صحبة الابرار المحبين • وليس من حافز على هذا الانقلاب الخير الا نعمة الحب الصادق ، فانه لم يكن يعرف من اللذة الا الانغماس في شهوات الجسد ، ولم يذق طعم الحب العذري المتبادل بينه وبين فتاة تملك قلبه وتملأ عينيه •• فتبدلت حاله وعادت اليـــه أريحيته وأصبح منقادا لجهان لا يقطع امرا الا برأيها ولم يعرفها اهل البذ الا باسم «جلنار» لانهم لم يكونوا قد عرفوها من قبل •

وتحفز بابك للذهاب وهو يقول : «اليوم بدء ايام سعادتي يـــا جلنار ، فاني لم اكن اسعد حالا مني في هذه الساعة» • ووقف وأتـم حديثه فقال : «انما لي رجاء لا أظنك تخالفينني فيه ، ذلك ان خاصتي تعودوا مجلس الشراب ، وفيهم المولعون بالخمر ، ولم يوفقوا الى من يهديهم الصراط المستقيم بعد ، وأخشى ان فاجأتهم بابطال هذه العادة ان يغضبوا • وأنا في حاجة اليهم في هذه الحرب ، فأرى ان أسايرهـــم وأجالسهم وأوهمهم اني أشرب معهم حتى نرى ما يكون» •

قالت : «لا بأس ، على ان تتلطف في جعلهم يقلعون عما ألفـــوا بالتدريج » •

فأشار مطيعا ، وتمت المعجزة اذ انقلب مثال الاستبداد والعنف الى مثال لين العريكة • وفي هذا ما يدل على قوة سلطان المرأة العاقلة اذا هي احسنت الاسلوب في رد الرجل عن النقائص • ولن تستطيع شيئا من ذلك الا بأن تجعله يحبها فمتى ملكت قلبه ملكت زمامه • اما اذا ارادت اصلاحه بالانتقاد فقد تزيده تمسكا بزلاته •

ولا تسل عن فرح جهان بما حدث لبابك وقبوله ما اشترطته ، لما فيه من صيانة نفسها حتى تتحقق امر حبيبهـــا والانتقام من الافشين • وتذكرت في تلك اللحظة اخاها سامان فاستوقفت بابك وقالت : «لـــي

طلبة ارجو ان تقضيها» •

قال : «لك ما تريدين» •

قالت : «سامان • اخي • انت تعرفه وتعرف انه خانني وغدر بي • لا اطلب الانتقام منه ولكنني أريد ابعاده عن هذه المدينة ، لان في وجوده خطرا على الجيش • لا أطلب قتله او سجنه بل أكتفي بابعاده لنأمن شره » •

قال : «هذا ما كنت عازما عليه ، وان كنت قد أفدت من خيانته •• اذ اولاه لم أحظ بعروس فرغانة ، وقد يخونني كما خان اخته ، وسأنفيه من هذه الديار ، والآن ألا تريدين الاقامة معي بقصري ؟»

قالت : «دعني في هذا القصر كما انا ، فاني مستأنسة بأهله ، وان اردتني لمشورة او تدبير فانا نلتقي على موعد» •

فأذعن وهو يبتسم وينظر في وجهها نظـــر المحب المتهيب • فوقفت وهشت له فودعها وهو يقول : «نحن على وفاق منذ الان • فهل انت تحبينني ؟ »

قالت : «اننا اخوان • انت اخي بابك احبك محبة الاخ لأخيه وأرعاك رعاية الاخت لاخيها ، وسترى اني أبذل نفسي في سبيل راحتك» •

- ١٧ -

ياس ضرغام

كان ضرغام قد بث العيون والجواسيس يبحثون عن جهان في انحاء

المشرق ، وفيهم من سافروا الى فرغانة ، فلبث حقبة من الدهر ينتظر رجوعهم فعادوا وما فيهم من سمع خبرا او عرف شيئا يهديه الى مكانها فضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت وغلب عليه اليأس وأخذ يفكر في المجرم الذي سبب فقدها ، فلم يجد غير الافشين ، ثم تذكر ما عرفه عن سامان ونفاقه وغدره فارتاب في أمره . وكان يقضي ايامه وحيدا في منزله الا اذا خرج المعتصم واصطحبه للصيد او الرياضة او الصلاة ، وكان يستأنس بياقوتة استئناسا كثيرا لكمالها ومشابهتها لجهان ، وكلما نظر اليها تذكر صاحبه حمادا وود من صميم فؤاده ان يجمعها به لعله يوفق الى من يجمعه بحبيبته .

ولما طال انتظاره وانقطعت أخبار جهان عنه ويئس من وجودها ، استولت عليه السوداء ولم يعد يرى للحياة معنى ، وود لو انه يشغل نفسه بحرب او نكبة او مرض ، او ان يموت ويتخلص من عذاب الشوق والقلق . وسبيل الموت الانتحار وهو يعده جبنا لا يقدم عليه غير الضعفاء اذا غلبوا على امرهم او خولطوا في عقولهم . ومع هذا فان في نفسه بقية امل في العثور على جهان . وكبر عليه ان يموت ولا يثأر لها فوقع في حيرة وظهرت حيرته في وجهه فلم يكن يراه احد الا تبين في محياه القلق رغم ما يحاوله من التكتم ، ولاسيما امام أمه لئلا يحزنها ، ولم تكن هي لتخفي حاله عليها . فكان اذا سألته عن جهان وأخبارها قال : «انهم لم يقفوا لها على خبر وقد أرسلت آخرين لجهات اخرى ، فلعلهم ان يعثروا عليها» . وكانت أمه توهمه انها صدقت قوله وتزيده املا بلقائها فأصبح ولا تعزية له غير وردان ، وأصبح على طول العشرة اقرب الناس اليه . فكان اذا سئم او قلق شكا اليه حاله واستشاره في امره ، فيخفف وردان عنه . فسمعه مرة يتذمر ويسأم الحياة وهو يتمشى في حديقة القصر معه فقال له : «مثلك لا يجوز ان يضعف الى هذا الحد يا مولاي» .

قال : «لا تقل مولاي . لانك صديقي يا وردان • ولذا تراني اشكو اليك همي وأكشف لك نفسي ، اني لا ارى معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان» •

قال : «لكل نفس أجلها لا تؤخر ساعة ولا تقدم ساعة . فاصبر ان الله مع الصابرين» •

قال : «لقد مللت الصبر ، ولا ارى راحة الا في الموت • ولكني أحتقر المنتحرين» •

فأحب وردان ان يبدي رأيا يرتاح اليه ضرعام ويصادف هوى في نفسه هو منذ جاء العراق فقال : «أمثلك يكره الحياة ويعجزه السبيل الى الموت وهو من خاصه المعتصم وكبار قواد المسلمين والحرب فانه لا يخمد سعيرها بينهم وبين جيرانهم من الفرس او الروم او العرب ؟»

فنبه كلامه ضرعاما • وكان ينبغي ان ينتبه من قبل فقال : «صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لمثلي . ولكن امير المؤمنين يلزمني صحبته . فقد جعلني صاحبه ومنعني من السفر» •

فقال : «لا أظنه يمنعك بعد الآن» • قال : «ولماذا ؟»

قال : «لان الاخبار تتوالى باستفحال امر الخرميه في ارمينيا حتى ضاق الافشين ذرعا ببابك وحصونه» •

قال : «من أنبأك بهذا ؟• كنت أحسب الامر على عكس ما تقول والخليفة لا يخفي علي شيئا» •

قال : «ان الخليفة لا يخفي عليك امرا يعرفه ، ولكنه لا يعرف ذلك !»

قال : «هل تعرف شيئا عن هذه الحرب لا يعرفه الخليفة ؟»

قال : «نعم يا سيدي . لان الوزراء ورجال الخاصة يرون من حسن السياسه كتمان بعض الاخبار عن الخليفة» •

قال : «صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير

اليــه » •

قال : «ولا أظنه يبلغك من سواي لاني سمعته من مصدر لا علاقة له برجال البريد الذين يحملون الاخبار الى الخليفة» •

فاستغرب ضرغام ذلك وقال : «ماذا سمعت ؟»

قال : «سمعت ان بابك الخرمي تضاعفت قوته بعد ان انتقل مـــن اردبيل الى البذ واتخذها حصنا له» •

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «هذا سمعناه بالامس» •

قال : «وهل عرفت سبب قوته بعد ان كاد يعمد الى الفرار ؟»

قال : «نعم • انه استقوى بمن انضم اليه من الاقوام النافمين على المسلمين » •

فابتسم وردان وقال : «هذا هو السبب الفرعي ، ولعله يبلغ الخليفة اليوم على يد صاحب البريد • أما السبب الاصلي فهو غير ذلك» •

قال : «وما هو ؟» • قال : »أخبرني بعض القادمين من ارمينيا خبرا كدت أنكره لولا ثقتي بالناقل • ذلك ان بابك المشهور بالتهتك والانغماس بالمسكر والفحشاء قد تاب وأناب وأصبح اذا جالس رجاله لا يشرب معهم ، وقد انقطع الى تدبير أمور جنده واستجماع قـــواه واستنهاض الناس على المسلمين • اخبرني بذلك رجل يعرف دخائل البذ • وهـــم ينسبون هذا التغيير الى امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير اسمها جانـــار ملكت فياده وتصرفت في أموره« •

فأطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لانه كان يرجو ان تكون عونا لهم عليه • وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة من التفاح يتلقى بضرب ثمارها المتدانية بخيزرانة في يده ووردان واقف بجانبه • واذا بغلام من غلمان الخليفة جاء مسرعا • فلما رآه ضرغام علم انه قادم من عند الخليفة يدعوه ، فالتفت الى وردان وقال : «اظن الخليفة

يدعوني لاطلاعي على أخبار الحرب» .

قال : «اذا رأى مولاي ان يكون في هذه الحرب فليأمر ان اكون في خدمته ، لاني أعلم أحوال تلك البلاد وطرقها وقد أنفعه» .

قال : «حسنا» . واتجه الى المنزل ولبس قلنسوته وسواده ، وقصد الى دار الخاصة في قصر الخليفة ، فوسع له الحاجب وأدخله بلا استئذان. فلم يجد عند الخليفة الا القاضي احمد ؛ ولكنه قرأ في محياه القلق والغضب . فلما أقبل وحيى بش له الخليفة وأمره بالجلوس فجلس ، فقال له الخليفة : «ارى الصاحب قد مل القعود في هذا القصر وشبعت نفسه ترفا فاشتاق الى ميدان الوغى وحوض المعامع» .

فأدرك ضرغام ان الخليفة يمهد له طلب السفر الى القتال ، وانه لم يفعل الا وهو يرى الحاجة ماسه الى نجدته فقال : «ان البقاء الى جوار امير المؤمنين نعمة وبركة ، ولكن الضرب بسيفه فرض مقدس . وقد طالما حدثت نفسي ان ألتمس من امير المؤمنين ان يرمي بي في هذه الحرب القائمة بأرمينيا ، فاذا أذن لي في ذلك فانه يغمرني بفضله وأنا في كل حال صنيعته وربيب نعمته» .

فاستحسن الخليفة ذكاءه ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال : «ان امير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك ، ولكنني لحظت منك في هذه الايام انقباضا حسبته ناتجا عن هذا الانحباس ، فان القائد الشجاع لا يسر الا بخوض المعامع والظفر في الحرب . ونحن الان في حرب بأرمينية ، وقد صبرنا على ذلك المتمرد لاعتصامه في حصونه . فأشرت على امير المؤمنين بأن يوجهك اليه فيأتي النصر على يدك» .

فقال : «اني على ما يريد امير المؤمنين وأنا على أهبة السفر هذه الساعة» .

فقال الخليفة : «انت تعلم ان جند المسلمين في أرمينية بقيادة

الافشين ، فهل يشق عليك ان تكون من قواده» .

قال : «انما انا سيف من سيوف امير المؤمنين ، فليستلني رئيسا او مرؤوسا » .

فهش له الخليفة وقال : «بورك فيك : وسأبعث الـــى الافشين ان يعرف قدر الصاحب قبل سائر القواد» .

فوقف ضرغام وقال : «يأذن لي مولاي في ان أسافر مصحوبا بدعائه وبركته ، وأرجو ألا اعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل بابك الطاغية» .

فابتسم له الخليفة وأمر ان يخلع عليه ، فخرج وقد زال قلقه .

وكان وردان في انتظاره بباب القصر . فأخبره بما تم ، وقال له : «كنت احب ان تبقى قريبا من أمي هنا» .

فقال : «لا بأس عليها فهي في قصر الخليفة وبين يديها الخـــــدم والموالي » .

ومضى الى أمه فأخبرها بأن الخليفة أتخصه الى ميـــدان القتال . فاستحسنت الامر وشجعته وقالت : «اطلب الى الله ان يعيدك ظافرا» .

ثم تقدم الى يافوتة وحياها . فلما علمت بانه يتأهب للسفر دمعت عيناها فقال : «ادعي لي بالتوفيق لعلي ارى حمادا في طريقـــــي . لا تحسبيني غافلا عن امره» . قال ذلك وتنهد تنهدا خفيا وتذكر مصيبته بفقد حبيبته .

فأجابته يافوتة بدمعتين ارسلتهما على خديها وهي مطرقة لا تتكلم . فتركها وخرج فأمر وردان بالاستعداد للسفر ، وبعد ايام ودع امـــــه واوصاها بيافوتة خيرا . وسافر في فرقة من خاصة رجال المراغنـــــة الأشداء .

* * *

جرت بين جند المسلمين والخرمية مواقع عديدة في أردبيل وغيرها انتهت بتخلي الخرمية عن أردبيل ، واستقروا في البذ مدينة بابك وهي مدينة حصينة او قلعة كبيرة مؤلفة من قصور وقلاع حولها سور ضخم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليها وعر بين الجبال والاودية . واقتفى جند المسلمين اثر بابك عندما فر الى البذ . وبين البذ وأردبيل محطات عدة جعلها المسلمون نقطا عسكرية تحفظ لهم خط الرجعة ، وتضمن الاتصال مع سامرا مقر الخليفة . فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت أرمينية أنزلوها في أردبيل . ومن هناك ينقلونها الى نقطة عسكرية اسمها «حصن النهر» ثم يعود حراسها الى أردبيل ويتولى حراستها جند آخرون من «حصن النهر» الى آرشف وهكذا الى خش فبرزند الى «روذ الروذ» وهي آخر محطة قبل البذ وبينهما بضعـــه فراسخ .

وكان الافشين قد كلّف جواسيسه ان يختاروا مكانا حصينا يعسكر فيه ، فاختاروا في «روذ الروذ» ثلاثة جبال عليها أنقاض ابنية قديمة . فأقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها وبين البذ بالاحجـــار الضخمة حتى صارت كالحصون ، ثم حفر خندقا وراء الحجارة عند كل طريق ما عدا طريقا واحدا يخرج منه رجاله اذا اراد الهجوم ، وقد بذل في هذا العمل جهدا شديدا فكان الرجال ينقلون الحجارة ويحفـــرون الخنادق ، والعساكر يحرسونها ليلا ونهارا .

وكان «روذ الروذ» واد بين آكام وعرة . فعبى رجاله وعهد الى كل قائد من قواده ، بفرقة منهم ، وهم ثلاثة : جعفر الخياط ، وأبو سعيد ، وأحمد بن الخليل . اقامهم في محطات بينه وبين البذ قبل الـــوادي الفاصل بينهما ، فأصبح معسكر الافشين كبيرا جدا اذا اراد النهوض او السير به جعل الاشارة ضرب الطبول لبعد المسافات واحتجاب الفـــرق

بعضها عن بعض بالجبال والاودية . فاذا سار ضرب الطبول ، واذا وقف أمسك . فيقف الجند جميعا او يسيرون جميعا في مصافهم وعلى ترتيبهم. وكان للأفشين معسكرا اقامه على أكمة يشرف منه على «البذ» ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة .

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه على طوائف من رجاله يرسلهم ليكمنوا في الاودية وراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الافشين يهتم كثيرا بقطع دابرهم فيرسل الجواسيس او الكوهبانية للبحث عن الكمين .

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيأمر قواده فيقطع الواحد منهم الوادي الى الجانب الاخر ازاء البذ في كردوس من رجاله فيقف بهم هناك فيخرج بابك فرقة من جنده تحمي باب السور وتمنع الاعداء منه ، فاذا انقضى النهار أمر الافشين رجاله بالعودة الى معسكرهم وراء الخندق ويبيتوا هناك ، فتضايق الخرمية من هذه المناورات فعزموا على الفتك بهم فراقبوا رجوع كراديس الافشين من جانب الوادي ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضجة فرجع جعفر ورد الخرمية بنفسه الى باب البذ ونصايح الجند حتى بلغت الضجة الافشين فرأى جعفرا وأصحابه يقاتلون فخاف ان يفسدوا عليه خططه .

أما جعفر فجاءته نجدة من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحاربين رغبة في الغنائم والسبي فاشتد أزره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونه ويدخلون المدينة فبعث اليه الافشين يقول : «انك افسدت علي تدبيري فتخلص قليلا قليلا وخلص اصحابك وانصرف» . ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع أسفا لضياع الفرصة .

وبقي المتطوعة بعد ذلك اياما يقاتلون وحدهم حتى قلت علوفتهم

ومؤونتهم وهم يتذمرون ويقولون : «لو أنجدنا الافشين لدخلنا البذ».
وضج سائر الجند وطلبوا ان يبادروا بالقتال فكان يماطل خشية الفشل.
او لعله كان يطاول رغبة منه في جمع المال . لان المعتصم كان قد جعل
له على كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم ، وعن كل يوم لا يركب فيه
خمسة آلاف درهم ، ما عدا العدة والمؤونة . فجمع من ذلك مالا كثيرا
كان يرسله الى أشروسنة .

وكان الافشين جالسا ذات يوم في فسطاطه المطل على البذ . فوقع
نظره على جماعة من رجاله يقودون رجلا عليه لباس اهل تلك المنطقة ؛
وما وصلوا به اليه حتى عرف انه سامان اخو جهان . فأجفل ولكنه توقع
ان ينتفع به فصاح بالرجال ان يتركوه ؛ فتقدم سامان مطأطىء الرأس وجثا
بين يدي الافشين ، فأمره هذا ان يقف وبش له وقال : «من اين أتيت ؟»

قال : «من البذ يا سيدي» .

فأشار اليه ان يقعد فقعد متأدبا . ثم سأله : «ما الذي أدخلك هذه
المدينة ؟ »

فهز رأسه وقال : «اتيت اليها في خدمة مولاي الافشين» .

قال : «وكيف ذلك ؟» . قال : «ما زلت منذ تشرفت بلقيا مولاي في
سامرا أبحث عن جهان عملا بأمره حتى علمت انها عند بابك !»

فدهش الافشين لقوله وصاح به : «جهان هنا الان ؟. هنا في البذ؟»
قال : «نعم يا سيدي» .

قال : «وما الذي جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟»

قال : «اخبرتك يا مولاي ان اللصوص خطفوها مني بقرب همذان .
وما زلت أجد في البحث عنها حتى علمت ان بابك هذا هو الذي بعث
رجاله لاختطافها لانه سمع بجمالها ؛ وكان قد خطبها من ابي فرده خائبا .
وكأنه اقام الكمناء يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه» .

فقال : «ثم ماذا ؟» ألا تزال هنا ؟»

قال : «ان امر أختي يحيرني ، فهي لا تستقر على حال فبعد ان رفضت نعمة صاحب أشروسنه : رضيت ببعض رجاله . ثم عادت فرضيت ببابك وأصبحت اقرب نسائه اليه وتتفانى في نصرته . وكم نصحت لها ان ترجع عن غيها وحسنت اليها المجيء الى الافشين لانه ولي نعمتها فأبت . فلما رأيتها مصرة على عنادها تركتها وجئت اليك» .

قال : «بورك فيك ، لكني علمت من بعض الجواسيس ان أعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلنار يقولون انها حازمه حسنة التدبير ، وانها أعانته وشدت أزره كثيرا» .

فقال : «هي جهان نفسها يا سيدي وقد غيرت اسمها تمويها . ووعدت صديقها الجديد ان تنصره على جند المسلمين فهي تتفانى في نصرته . ولولاها لقضي عليه من زمن مديد» .

وكان الافشين يعلم خبث طوية سامان ولكنه جاراه رغبة في الاستعانة به على امر لا يصلح له غير الخبثاء . ولم يفته ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله . فعمد الى المداجاة وهز رأسه وحك ذقنه وأصلح قلنسوته وتحرك في مقعده وقال : «بئس ما كافأتنا به هده الفتاة على احساننا فقد اغضبناك لاجلها فعقتنا . وعسى يا سامان ان تكره شيئا وهو خير لك» .

ثم سكت عن الكلام قليلا وعاد فقال : «ألم يعلم ضرغام ان جهان هنا؟»

قال : «كلا ، ولا هي تعلم بأنه على قيد الحياة» .

فلم يصدق قوله وسأله : «وكيف هذا وضرغام لا يدخر وسعا في البحث عنها» .

قال : «قد ساعدني على هذا تغيير الاسماء . كن على يقين انها تؤمن بما قلته لها من انه قتل. وهو ما يزال يعتقد انها خطفت الى مكان مجهول.

وقد فعلت انا ذلك حسبة لوجه مولاي الافشين رغم ما قاسيته من اعراضه وحرماني» . قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان حولا .

فقال الافشين : «لقد وثقت الان باخلاصك . فاذا زدتني يقينا باكمال سعيك كنت من الغانمين» .

قال : «اني طوع الاشارة ؛ سل ما تشاء ابذل نفسي في خدمتك» .

قال : «ذكرت انك كنت في البذ فما الذي تعرفه عن اهله وحصونه وجنده ؟ »

قال : «ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والاسلحة ، والخرمية يتضامنون في أموالهم وأنفسهم ، يتفانون في خدمة زعيمهم . ولكنني ارجو ان يغلبوا على امرهم» .

قال : «بماذا ترجو ذلك ؟»

قال : «أرجوه مما أعلمه من دخائل هذا البلد . فأنا أعرف ان فيها من الاسرى المسلمين وغيرهم عددا كبيرا ؛ منهم سبعة آلاف وستمائة من النساء والاطفال ، ويقدر عدد الذين قتلهم بابك بنحو ٢٥٥ الف نفس . وأعرف ان الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين ببلده ؛ فاذا تمكن عشرون رجلا منكم ان يدخلوا المدينة ويراهم الناس فأهلها جميعا يستسلمون » .

قال : «ما رأيك في الجهة التي نهاجم البلد منها حتى نضمن الدخول اليها ؟ »

فوقف سامان وأشار بيده الى جبل في طرف البذ وقال : «من هنا يا سيدي . أرأيت هذا الجبل ؟. ان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعلمه ان العدو اذا تجاوزه سهل عليه دخول المدينة ، فاذا احتال مولاي في الاتيان من وراءه ظفر» .

فسر الافشين من قدوم سامان ، وهم بأن يستزيده ايضاحا فاذا

بالحاجب دخل يقول : «ان بريد امير المؤمنين بالباب» . قال : «يدخل» .

فدخل البريدي وعلى وجهه أمارات السفر والتعب وعلى صـــدره صفيحة البريد النحاسية وعليها علامة خاصة . ووقف فناداه الافشين : «تقدم . ما وراءك ؟»

فتقدم البريدي ودفع اليه لفافة حريرية عليها خاتم الخلافة ، فتناولها وقبلها ثم فض خاتمها فاذا داخلها أنبوبة من فضة مختومة ففتحها وأخرج منها كاغدا ملفوفا نشره وأخذ يقرأه وسامان يراعي حركاته وملامح وجهه فرآها تغيرت ، حتى اذا فرغ من تلاوته اشار الى البريدي فانصرف ، والتفت الى سامان وابتسم ليزيده استئناسا وترغيبا في خدمته ، وكان سامان واقفا فأمره بالجلوس وقال : «أتعلم ما في هذا الكتاب ؟»

قال : «من اين لي علم الغيب ؟»

قال : «انه كتاب المعتصم يحثني فيه على الثبات ، ويبشرني بأنه أرسل الي نجدة بقيادة صاحبه ضرغام» .

فقال سامان : «أترى صاحب أشروسنة في حاجة الى النجدة وهـــو الملك والقائد ، وجنده يملأ السهل والجبل ؟»

قال : «كلا . وأمير المؤمنين يعلم ذلك . وأخشى ان يكون الرجل قادم لغير الحرب . أخشى ان يكون قد عرف امر جهان .. وســـواء أعلى علم ام لم يعلم فجهان لا يمسها احد سواي ، ان لم يكن حبا لهـــا وافتتانا بها فانتقاما من كبريائها وقحتها . اني لا انسى ذلك اليوم فـــي فرغانة » .

فقال سامان : «أما ضرغام فلا شك انه لم يعلم بأن أختي هنا ، بل هو لا يعتقد انها على قيد الحياة . وقد يكون كره الحياة بعدها لكلفه بها فأتى الى ساحة القتال رغبة في الموت ، فاني ارى في الناس جنونا لـــم أجربه . اراهم اذا أحب احدهم فعل فعل المجانين حتى يجازف بحياته

غراما بحبيبه واذا توفى الله احدهم اراد الاخر ان يتبعه» .

فضحك الافشين حتى بانت نواجذه وقال : «ان كان قد جاء يطلب الموت فأهلا به ومرحبا . له علينا ذلك حبا وكرامة . أما ما تراه من جنون المحبين وهيامهم فأنت معذور لانك أجرود لا تشعر شعورهم» . ثم أطرق هنيهة وقال : «اذا هجمنا غدا على البلد ودخلناه فأين تكـون أختـك ؟ »

فوقف سامان والتفت الى البذ وأشار بيده وقال : «أرأيت هـذا القصر الفخم عند الباب الشرقي ؟ هذا قصر النساء وبه تقيم جهان . ومن اراد الوصول اليه حالا فليأته من ذلك الباب» . ثم اشار بيده الى قصر في الغرب وقال : «وهذا القصر عند الباب الغربي قصر بابك نفسه ، وهو أمنع القصور ولا يهاجمه احد الا قتل . فاختر لنفسك» .

وتحرك الافشين في مقعده ، فنهض سامان واستأذن . فقال لـه الافشين : «تمكث عندنا لنستأنس بك ولا تخرج من هدا المعسكر الا للضرورة » .

ففهم سامان قصده فقال : «احب ان اكون اسيرا عندك حتى تتحقق من اخلاصي وأتقدم اليك ان تبقي خبري مكتوما عن ضرغام وغيره والا فسد تدبيرنا» .

فأشار الافشين برأسه موافقا ، ثم نادى غلامه وأمره ان يكـرم سامان ويحتفظ به ، فخرج سامان من حضرته وقد سره ان الافشين أحسن لقياه ووعده بارث ابيه انتقاما من أخته . واستبشر بقرب الانتقام من أخته متى جاء ضرغام فيكيد له ويسعى في هلاكه . ونسي انه كان ناقما على الافشين وقد استعان بضرغام عليه وان أخته صاحبة الفضل الاكبر عليه . ولكنه يجري في اعماله على هوى منافعه فهو لا يغضب من الافشين لانه تعدى حدود الوصاية او لانه اراد السوء بأخته ، وانما

أبغضه لانه حرمه من الارث • ولم يحب ضرغاما لشهامته وأريحيته او نسبه وانما أظهر حبه له ليستعين به في نيل مرامه • ثم انه لم ينقلب هذا الانقلاب في الحالين الا جريا وراء ما يفيده فلم يكن له قلب يحب ولا وجه يخجل • ولكنه ملتفت بكل جوارحه الى حب المال ، وزاده حبا فيه يأسه من احترام الناس له لسجاياه او مناقبـــــه فأراد ان يكسب احترامهم بالمال ظنا منه انه متى صار غنيا احترموه وأجلوا قدره • وسيان عنده أحبوه ام أبغضوه !

- ١٨ -

سقوط البذ

لما خلا الافشين الى نفسه بعد خروج سامان فكر مليا فيما سمعه منه فصادف هوى في نفسه ، وسيان عنده فعل سامان ذلك حبا له او خوفا منه او طمعا في تغيير الوصية ، وأعاد ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها وكبرياءها فسره انه ظفر بها ، وأنها متى وقعت في يده هذه المرة فلا مفر لها منه ، ثم تذكر ان ضرغام هو العقبة الوحيدة في سبيله ، وفكر فيما لمح اليه سامان من الاحتيال لايقاعه ، فاعتزم ذلك •

وقضى اياما في مثل هذا المنى حتى جاءه صاحب الخبر منبئا بقدوم الصاحب مع رجاله • وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فرحب بـــه الافشين وأثنى على رغبته في نصر الدولة • فأجابه الصاحب شاكرا ،

ولحظ الافشين في وجهه تغيرا مما أحدثه يأسه من جهان ، فلم يبال وجعل يبالغ في اطراء بسالته وعلو همته فقال ضرغام : «لا فضل لنا في خدمة الدولة ونصرة الدين الحنيف» .

قال : «صدقت وقد جئتنا في ابان الحاجة اليك فاني لا ارى بين قوادي من يركن اليه في المهمات غيرك ، وقد خبرتك وعلمت شجاعتك وصبرك » .

فقال ضرغام : «كنت قد استطلت الحرب واستبطأت الفتح فلما رأيت هذه الحصون ووعورة الارض ايقنت ان الافشين قد اتى بما لا يستطيعه الا الابطال وما انا من يزيد في اقدامه او يسهل فتحه ، ولكنني مللت القعود وأحببت ان يكون لي في هذه الحرب نصيب . فارم بـــي حيث تشاء» .

فتأكد الافشين من يأس ضرغام ، وأحب تغيير الحديث ليهيىء لـه مهلكا فقال : «بورك فيك . لا بد ان تستريح اولا من عناء السفر .. اخبرني عن اهل سامرا كيف هم وكيف امير المؤمنين» .

قال : «كلهم في قلق من امر بابك هذا ولكنهم يثنون على ثبـات الافشين وحسن تدبيره .. وقد آنست من الخليفة رغبة في انهاء هذه الحرب فجئت لألقي نفسي في اقرب السبل الى ذلك عسى ان أتعجـل الشهادة» . فال ذلك وأبرقت عيناه بريقا حادا قرأ الافشين خلاله حديثا طويلا فقال : «غدا ننظر في ذلك . وأما الان فاخرج بنا نطلعك علـى معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن» . ونهض وأمر ان تهيأ الافراس .

فنهض ضرغام وهو يقول : «قد رأيت بعض هذه المعاقل فعلمت ان مولانا الافشين قد اتى في تنظيمها بالمعجزات» .

وقضى الرجلان بقية اليوم في التجول بين الحصون والاستحكامات.

فرأى ضرغام جندا كبيرا وتدبيرا حسنا ، وسره اهتمام الافشين باطلاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له : «ان مثل هذا الجند لا ينبغي ان يصبر على فتح البلد طويلا» .

قال : «غدا أقص عليك سبب الابطاء» . وافترقا .

فذهب ضرغام الى فسطاطه وكان وردان في انتظاره وقد اصبحا صديقين حميمين . فلما اجتمعا قص ضرغام عليه ما لقيه عند الافشين الى ان قال : «وقد وعدني الافشين ان يسرع في القتال ، وألححت عليه ان يرمي بي في أخطر المواقع فاذا لم أرجع فاني أعهد اليك منذ الان في العناية بأمي المسكينة» . قال ذلك واختنق صوته فتنحنح حتى يخفي اختناقه وعاد الى اتمام الكلام فقال : «وأنت تعلم ما قاسته في محبتي. اما ياقوتة فأحتفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبها . وأظنك تعرفه . وأما جهان فاذا كانت على قيد الحياة ولقيتها بعد موتي فبلغها ما نعلمه من وجدي !»

فقطع وردان الحديث وقال : «لا توصني فاني لن ابقى بعدك ، وما صحبتك الا لأكون معك حيثما ذهبت» .

قال : «اني ألقي بنفسي الى الهلاك فرارا من حياة لم يعد لي لذة فيها ، فما خطبك انت ؟»

فتنهد وردان وأطرق وذرفت عيناه دمعتين تقطرتا من مآقيه ، وكأنه خجل فرفع بصره ، وقال : «ان نصيبي من اليأس كبير جدا ، ولو علمته لطلبت لي ان اسير الى الهلاك امامك واذا بقيت حيا قصصته عليك . ومهما يكن من شيء فمصيري رهن بمصيرك» .

فأعجب ضرغام بأريحيته ، وكان قد شعر بشيء مما يجول بذهنه ، ولم يشأ ان يستطلعه الا اذا هم هو بنفسه بأن يكشف عما به ، فقال : «لك ما تريد يا وردان ، وغدا نرى ما أعده لنا الافشين من المهام» .

اما الافشين فقضى تلك الليلة مع سامان يكيدان لضرغام . وفي صباح اليوم التالي زار ضرغام الافشين ومعه وردان ، فوجداه وحده ، وسأله ضرغام عما استقر عليه رأيه فقال : «لا ازال ارى التريث في الحصار برهة اخرى» .

فأجفل ضرغام لهذا التغيير وساءه تأجيل الهجوم فقال : «ولماذا ؟»

قال : «اني ارى هجومنا اليوم مجازفة لا تحمد عقباها . فقد قضيت البارحة وأنا أقلب الامر على وجوهه فلم أوفق الى تعبئة تضمن لنا النصر» .

قال : «هل لك ان تطلعني على ما نخشاه ؟»

فنهض الافشين ومشى حتى وقف بباب الفسطاط وأطل على البدو حصونها ثم قال: «أرأيت هذه المدينة ، انها أمنع من عقاب الجو ولاسيما من جهة الغرب حيث هذا القصر الفخم فانه قصر بابك الذي يقيم به ، فاذا وصلنا الى باب السور الذي يليه اخذنا المدينة» .

ثم قال : «ألا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها؟. لا سبيل الى القصر الا من ورائه ، والطريق هناك وعر لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانيقهم . وبابك كثير الاعتماد على الكمناء فنخاف ان يكون له كمين او اكثر وراء ذلك التل او في واديه» .

فقال ضرغام : «انا اذهب الى ذلك التل مع رجالي الفراغنة» .

قال : «اذا فعلت ذلك فاني أعبىء الجند حول الاسوار من جميع جهاتها فنضمن الفتح باذن الله» .

فقال ضرغام : «ومتى الهجوم ؟»

قال : «متى شئت» .

قال : «الليلة . دعني أدهم القوم ليلا فاذا اصبح الصباح ودخلت

البذ حيا ، فاهجموا انتم على سائر جهات البلدة فيكون فتحها امــــرا مقضيــا » .

قال الافشين : «بل ارى ان تتهيأ جميعا للهجوم ليلا ، على ان تذهب انت برجالك منوراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى نارا اوقدها هنا بعد نصف الليل ، وعلامتها انها مثلثة اي تكون ثلاث نيران متحاذية فاذا رأيتها علمت ان الجند كله مهاجم المدينة منكل جهاتها فاهجم انت برجالك من ناحيتك ، ولا يخفى عليك يا ولدي انك في أشد المواقع خطرا» .

قال : «لا أبالي بالخطر .. انا ذاهب الان لأعد رجالي وأرجو ان نلتقي جميعا في قصر بابك غدا» . قال ذلك وتضاحك مكشرا عن اسنانه كما يكشر الاسد اذا هم بالوثوب . وكان الغضب واليأس قد زادا وجهه هيبة وقوة فازداد شارباه وقوفا وحاجباه خشونة وعيناه بريقا وحده حتى تهيب الافشين النظر اليه والتفرس في عينيه فقال له : «لو كان لنا عشرة مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد» . اراد بذلك ان يثبته في عزمه وهو على يقين انه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما وضعه بابك هناك من آلات الدفاع الخطرة فضلا عن الكمناء . واغرب من هذا ان ضرغاما ودع الافشين ليذهب ويتهيأ للهجوم وهو لا يعرف شيئا عن الطريق ولـــم يسأل عنه . وقد فرح الافشين لذلك لان جهله الطريق يؤكد فشله .

فخرج ضرغام وهو يقول للافشين : «غدا نلتقي هناك» . وأشار بيده الى قصر بابك ، والافشين يهش له حتى اذا توارى عن الخيمة لقيه وردان فماشاه وسأله : «ما الذي استقر الرأي عليه ؟»

قال : «الليلة نهاجم البذ» . قال : «من اين ؟»

قال : «نأتيه انا والفراغنة من وراء ذلك التل حتى ندخل من الباب الغربي وبجانبه قصر بابك ، فنكون اول من يدخلــــه او نموت تحت الاسوار » .

فوقف وردان والتفت اليه وقال : «هل تعرف الطريق الى التل ؟»

قال : «لا .. لا أعرفه .. ولكن ..» .

قال : «ولكن ماذا ؟» انه طريق طويل يبغي لسالكه ان يسير من وراء التل مسافة تستغرق ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور» . وكأنه نبه ضرغاما فقال له : «وهل تعرف الطريق انت يا وردان ؟» . قال : «نعم أعرفـه » .

قال : «اذن انت دليلنا بل انت قائدنا ، هلم الى رجالنا ليتأهبوا من الان . ثم ننتقل بهم أصيل اليوم الى الطريق الذي تعرفه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة» . قال : «حسنا» . ومشيا وكلاهما ساكت يفكر. يريان الخطر الذي يهددهما واليأس يعزيهما عنه حتى وصلا الى معسكر الفراغنة . وكانوا قليلين لا يتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم اشـــداء منتخبون يتفانون في طاعة ضرغام لو قال لهم ادخلوا النار لتسابقــوا اليهــا .

اما الافشين فجاءه سامان بعد خروج ضرغام فقص عليه ما فعله وقال: «والباقي عندك يا سامان» . فقال : «سمعا وطاعة» . وخرج .

وعبأ الافشين جنده للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة، وجعل فرقته بحيث تهاجم المدينة من جهة الباب المؤدي الى قصر النساء الذي تقيم فيه جهان او جلنار ، حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب استولى هو على قصر النساء وأعطى جهان الى من يحفظ بها وانصرف الى قيادة الجند .

اما ضرغام فجهز رجاله ومشى بهم ووردان دليلهم . وداروا حــول التل حتى وصلوا الى مكان فيه يشرف على البذ من الغرب . فمكثـوا هناك حتى اظلمت الدنيا فأمرهم ضرغام ان يتربصوا ويكونوا على أهبة الهجوم ، وخلا الى وردان على أكمة ونظر الى البذ فرأيا فيه أنـــوارا

متفرقة كما يطل القادم على بلد في الليل فانه لا يرى الا انوارا ويندر ان يتبين شيئا من ابنيتها او قلاعها . فقال وردان : «ان اقرب هذه الانوار الى السور وأكثرها اشعاعا انوار قصر بابك ، وهو الذي سنفتحه او نموت دونه ، وترى أنوارا بعيدة في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء ، ولا أظنك تجهل استكثار هذا الرجل من النساء وانغماسه في الملذات » .

قال : «وقد رويت لي ما طرأ عليه من التغيير من عهد بعيد بفعل امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير . ما أكبر عقل تلك المرأة !»

فقال : «انها عاقلة ولذلك تسلطت عليه ، فأصبح لا يقطع بأمر الا برأيها » .

فتنهد ضرغام وقال : «مالنا ولهذا الان . دعنا ننظر في الطريق الذي نسلكه في الهجوم . ما الذي يحول بيننا وبين المدينة الان ؟» . قال : «بيننا وبينها واد» .

قال : «وكيف نقطعه ؟» . قال : «نقطعه من مكان فوقه قائم كالجسر، ومتى صرنا في الجانب الآخر اصبحنا قريبين من السور فنهجم ونتسلقه، ولا أظننا نجد عليه حامية لان الخرمية لا يخطر لهم ان عدوهم يأتيهم من هذا الطريق الوعر او يجسر على النزول هنا» .

قال : «اذن هلم بنا ننزل» .

قال : «تمهل يا مولاي حتى تطمئن القلوب ويهجع الناس فلا يجدر بنا ان نزحف قبل نصف الليل وبعد ان نرى نيران الافشين» .

قال : «حسنا» . وتحول الى رجاله وأوصاهم بالسكون والتربص وبألا يوقدوا نارا ولا يسمعوا صوتا حتى يأمرهم بالتقدم ثم تركهم وأشار الى وردان فلحقه فقال له : «تعال نتجسس الممر الذي قلت عنه لنرى هل هو سالم او لعل فيه عقبة» .

ومشيا مسافة طويلة في ارض صخرية كثيرة الحجارة يتلمس الماشي ارضها ، تلمسا وكان الظلام مخيما لا يكاد الناظر يرى ما بين يديه . وقد ساد السكون فلم يكن يسمع هناك أي صوت سوى حفيف الثعابين والحيات المنسابة بين الصخور او رفرفة طائر يحلق بجناحيه في الجو . فكان لوقع أقدامهما صوت بذلا الجهد في اخفائه لئلا ينم عن مكانهما . ولما اقتربا من الوادي رأيا فوقه شبه جسر من الصخور يمر عليه الاثنان والثلاثة معا . فقال ضرغام : «تحدثني نفسي ان اسير توا الى السور فأصعد عليه والناس في غفلة ومتى صرت داخله يشتد أزر المسلمين بي فيكون هجومهم أدعى الى الظفر» .

فقال : «اخاف عليك كمينا . وأرى ان نعود معا او اعود انا وحدي فأدعو الرجال وتتعاون على العمل» .

قال : «اذهب انت واتركني هنا حتى تعود بهم» .

فقال : «احذر يا مولاي ان تبرح مكانك او تظهر أي حركة» . ثم عاد وردان الى الفراعنة ، وظل ضرغام وحده . فلما خلا الى نفسه نظر الى السور فوجده على بعد مائتي خطوة منه فسولت له نفسه ان يمشي الهوينا حتى يصل الى السور فينظر ما وراءه ثم يعود . فمشى وهو لا يعرف الطريق وانما جعل وجهته السور . وكان ينقل قدمه محاذرا سماع وقعها . ويرفع السيف بيده حتى لا يقعقع . ولما دنا من السور وجده عاليا وعليه الابراج . ولم يسمع هناك صوتا ولا رأى نورا الا في برج كبير فوق الباب رأى فيه ضوءا ضعيفا . ولما ازداد قربا من السور سمع حركة فوقف ويداه على قبضة حسامه . واذا بعشرات من الرجال خرجوا من وراء الصخور وأحدقوا به وسيوفهم مشرعة كأنهم كانوا يسطرونه فأدرك انه وقع في كمين . فاستل حسامه وصاح فيهم صيحة أجفلتهم ووثب وثوب الاسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد

البأس قوي القلب لا يهاب الموت ، وكانوا يفرون امامه فرار الظباء من الاسد ، وهو وراءهم لا يحترس ، فما درى الا وهو يهوي في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده ، وشدت الحبال حول قدميه وكتفيه وأخذوا في اخراجه من الحفرة . وسمع جلبة وقرقعة ودبدبة وصوت وردان ينادي لبيك يا سيدي . فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا عند ضرغام من يخفره . وفهم ضرغام ان رجاله اتوا لنجدته من بعيد فزأر زئير الاسد ونادى : «وردان اقطع هذه الحبال» .

فما كان الا كلمح البصر حتى قفز وردان اليه وقطع الحبال . فلما أفلت ضرغام اخذ سيفه وهجم على الخرمية وأعمل فيهم سيفه فقتل من قتل وفر الباقون ولم تمض ساعة حتى خلت الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله : «هلم الى السور» . وما اتم كلامه حتى سمع صوتا هائلا كأنه دبدبة جبل يتدحرج . ثم ناداه وردان : «تنح يا سيدي انهم يرمون بعجلات من اعلى الجبل عليها صخور كبار لا تلبث ان تدحرج علينا ولا تغني الشجاعة في دفعها» .

فتنحى ضرغام وقد كلت ذراعه من الضرب والطعن ، ولو لم ينبهه وردان لهرسته واحدة منها اذ لم يمض الا يسير من الوقت حتى وصلت كالسيل الجارف او كالرجم المتساقطة او هي كجلمود صخر حطه السيل من عل .

ولما استقرت العجلات في آخر انحدارها التصق بعضها بالسور بحيث يمكن التسلق عليها الى سطحه . وشاهد ضرغام ذلك فصاح برجاله: «الى السور» . وركض أمامهم وسيفه مشرع ولم يكد يفعل حتى رأى ظهر السور قد امتلأ بالرجال وفي أيديهم النبال فأخذوا يرمون الهاجمين بها وهؤلاء لا يبالون وفي مقدمتهم ضرغام وقد وقعت قلنسوته ونسرق قباؤه وتقطعت سراويله . ورآه وردان يصعد احدى العجلات بقرب الباب

ويهم بتسلق السور ففعل فعله واذا بباب السور انفتح وخرجت منه فرقة من الخرمية احاطت بالعجلة ومن عليها وألقوا الحبال على ضرغام ووردان فتحولا وأعملا السيف في الحبال فتقطعت وصاح ضرغام : «ما بالكم تحاربوننا بالحبال اين سيوفكم ايها الانذال ؟»

فلم يجبه احد وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم فزلت قدمه فجأة عن خشب العجلة فوقع وارتطم رأسه بحجر . . فلما رآه وردان شغل به عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال فشدوا وثاقهما وحملوهما الى داخل السور وصعدوا بهما الى البرج فوق الباب وألقوهما بين يدي رئيس الحامية ، فأمر بالماء فرش به ضرغام . فلما صحا تحفز ليقبض على سيفه ويهم بالوثوب فاذا هو موثق بين يدي صاحب الحامية ، والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله . فعظم عليه الاسر فصاح في القوم قائلا : «عار عليكم ان تلجأوا في قتالكم الى الحبال فان كنتم رجالا فحكموا السيف . اقتلوا ولا تأسروا» . والتفت فرأى قائد الحامية جالسا وعليه القلنسوة والسراويل من لباس الخرمية . وشاهد بين يديه جماعة من رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال وسمعهم يتكلمون الفارسية وهو يعرفها فخاطب الرئيس بمثل ما قال بالعربية فلم يجبه . وأشار الى رجاله فخرجوا وأغلق الباب وتقدم الى ضرغام فحل وثاقه ثم وثاق وردان وقال بالعربية : «قم يا ضرغام . قم واجلس» .

فلما سمع ضرغام الصوت أجفل والتفت الى الرجل وتفرس في وجهه فعرفه فصاح : «حماد ؟» . قال : «نعم حماد» . فنظر اليه والدهشة بادية في وجهه وقال : «ما الذي جاء بك الى هنا ؟»

قال : «جئت بعد ان تركتني قرب همذان لسبب لا تجهله . وقد جندت في جيش هذا المجوسي للانتقام من صاحبك الظالم ، أما كان

الاجدر به ان يدخر هذه السيوف للدفاع عنه بدلا من ان تكون عليه ؟»

فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال : «ليس صاحبي ظالما» . ثم تذكر ما وعده به من البحث عن جهان فقال : «خفف عنك اني حامل اليك نبأ يسرك فعسى ان تكون حاملا مثله لي» .

فاضطرب حماد وبدت الدهشة في عينيه وقال : «ماذا ؟ هل وجدت ياقوتة ؟ وأين هي ؟»

قال : «نعم وجدتها وهي الان بسامرا عند أمي معززة مكرمة» .

فظن حماد نفسه في حلم ، ولم يتمالك عن النهوض وقال : «ياقوتة في منزلك الان ؟» . وأكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول : «هل هي في خير وصحة ؟. اني أشكر لك فضلك» . ثم تراجع وتغيرت سحنته كأنه تذكر امرا أزعجه وقال : «ولكني لسوء الحظ لم أوفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتي . على اني لم آدخر وسعا في السعي والاستفهام، ماذا فعلت انت هل وقفت على خبر جهان ؟»

قال : «لم اجد وسيلة من الوسائل لم أتبعها وذهب سعيي عبثا» . ثم تنهد وقال : «ليتك تركت رجالك يجهزون علي ، اذن لأحسنت الي : لاني لم آت هذه البلاد التماسا للفخر بالفتح او الكسب بالغزو وانما اتيت لألقى حتفي وأتخلص من هذه الحياة» . قال ذلك وهو يحرق أسنانه ويتململ .

فشاركه حماد شعوره وأخذ يخفف عنه فقال : «لا تيأس يا صديقي من الفرج فانه يأتيك وان حسبته مستحيلا . فقد تعلم ما كان من امري مع ياقوتة وكيف تركت وطني وأهلي يأسا من العثور عليها ، وهذا انت تحمل لي نبأ سلامتها ، فأتاني الفرج من حيث لا آتوقع . ولا اخفي عليك اني صممت بأن أفعل مثلك وعرضت نفسي للقتل ، ولكني وفقت الى امر هدأ روعي وساعدني على الصبر . فلو وفقت الى مثله لصبرت صبري .

لقد وفقت الى فتاة تشبه ياقوتة فتعزيت برؤيتها وخفف ذلك كثيرا من لوعة البعد» .

فتذكر ضرغام مشابهة ياقوتة لجهان فقال : «لكني وفقت الى من تشبه جهان ولكنني لم اشعر بما يخفف اللوعة ، بل زاد ذلك في أشجاني !» فاستغرب حماد وقال : «أما انا فاني أستأنس بشبه ياقوتة استئناسا يكاد يذهب بقنوطي ، وان لم يكن لي سبيل اليها . فقد رأيت لياقوتة شبها في هذه المدينة هي أعز نسائها جانبا وأسماهن حسنا وأمنعهن مقاما ، وهي لا تحتجب فتخرج سافرة لا تبالي ان يراها الناس. وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وارتويت برؤيتها» .

وكان وردان جالسا يسمع ولا يشترك في الحديث ، فلما سمع حمادا يذكر فتاة تشبه ياقوتة تذكر شبه يافوتة لجهان . وهم بأن يستوضح حمادا فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وفال بلهفة : «اين رأيت شبه ياقوتة ؟»

فال : «رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه . لا أظنكم تجهلون الفتاة التي قامت بنصرة بابك وقومت أخلافه ودفعته من الرذيلة الى الفضيلة » .

قال وردان : «أظنك تعني جلنار ؟»

قال : «نعم اياها أعني . انها تشبه يافوتة شبها عجيبا ، فكنت اذا رأيتها حسبت ياقوتة امامي . وكانت تتردد على قصر بابك او تخرج معه على فرسها سافرة ، فلم أشاهد في حياتي اجمل منظرا ولا اكثر هيبة وجلالا منها» .

فأحس ضرغام باختلاج قلبه ، ولولا الظلمة المخيمة لرأى حماد الدم يتصاعد الى وجنتيه . فأطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة وشبهها لجهان فقال في نفسه : «لعلها جهان» . والتفت الى حماد وقال : «ومن

هي جلنار هذه ومن اين اتت ؟»

قال : «هي من جملة نسائه ، حملت اليه من بلد بعيد كما حمل عشرات من أمثالها ، لكنها كانت اكثرهن سلطانا عليه فكأنها سحرته . فبينما ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأين بابك سجدن له تراها راكبة فرسها الادهم تجول في المعسكر تأمر وتنهي وأمرها نافذ على الكبير والصغير» .

فلما سمع ضرغام قوله : «فرسها الادهم» انتفض كالعصفور بلله القطر او هي قشعريرة المفاجأة فهب ناهضا وقال : «فرسها أدهم ؟ اين هي بربك أرينها يا حماد . انها جهان ولا شك» . فأخذ حماد بتلهفه وقال : «ليتها كانت جهان يا صاحبي ، ولكنها اخرى اسمها جلنار» .

قال : «قلبي يحدثني بأنها هي ، وما دامت تشبه ياقوتة . فاني أعرف ان هذه شديدة الشبه بجهان . ثم انك ذكرت ان جوادها أدهم ، وانها حملت من بلد بعيد ، وهذه الاوصاف كلها تنطبق على جهان ، ولا عبرة بتغيير الاسم . فأنت تعرفني مثلا بضرغام وليس في سامرا احد يناديني بهذا الاسم ، فاسمي عندهم الصاحب . هذه جهان لا شك . لقد ذهب اليأس من قلبي . فقل اين هي الان ؟»

قال : «أظنها في قصر النساء ، فانها تبيت هناك وتخرج عند الحاجه الى قصر بابك» .

فتنهد ضرغام تنهد الفرج بعد الضيق ، وتحول يأسه الى امل ، ونظر الى ثيابه الممزقة وهو يهم بالخروج فاستوقفه حماد وقال : «اخلع ثيابك والبس ثياب الخرمية حتى لا ينكرك الناس . وكذلك يفعل وردان ، وفي صباح الغد نخرج معا الى قصر النساء» .

فقطع ضرغام كلامه قائلا : «أأصبر الى الغد ؟.. كيف أصبر ؟.. وهب اني صبرت فهل تصبر المدينة وقد أحدق بها المسلمون من كل جانب ولا

يلبثون ان يفتحوها . وهل يخفى ذلك عليك ؟»

قال : «لا أستغرب ذلك لاني من جملة قواد بابك ، وقد ندبني الليلة لحراسة هذا الباب لان بعض الجواسيس أنبأه بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية ، فأتيت في المساء وأقمت الكمناء حتى رأيناكم قريبين، فأمرتهم بالهجوم عليكم وكان ما كان ، فهيا بدل ثيابك» . ثم التفت الى وردان ليقول له ان يبدل ثيابه هو الاخر ، فوجده مطرقا غارقا في تأملاته ، فقال له «ما بالك يا صاحبي . أمصاب انت بمثل مصابنا ايضا؟»

فتنهد وردان وقال : «نعم يا سيدي . وستعلم ذلك متى وصلنا الى قصر النساء وأنا ارى ضرغام رأي ان نسرع الان بالخروج» .

فأطاعهما ، وبعد ان ارتديا زي الخرمية خرج بهما ، وأوصى رجاله ان يحرسوا الباب حتى يعود ، موهما اياهم ان الاسيرين عنده في جملة الاسرى الذين اخذوا تلك الليلة . وأطل حماد من السور فرأى البلد مضاءة وسمع الضوضاء وسطها فصاح في رجاله فلم يجد منهم احدا فنادى خادمه فأسرع اليه فقال : «اين الرجال ؟»

قال : «ألم تسمع يا مولاي طبل الهجوم ؟»

فقال : «كلا» . وكأنه شغل عنه بضرغام ووردان .

فقال الغلام : «ضربت الطبول وصدر الامر بأن يجتمع الرجال للدفاع عن الباب الشرقي لان المسلمين هجموا عليه بقيادة قائدهم الاكبر على ما يقال » .

فقال : «الافشين نفسه ؟» . قال : «لا ادري» .

فالتفت وردان وضرغام معا الى معسكر الافشين فرأيا النار المثلثة موقدة فتأكدا من الهجوم ، فقال ضرغام : «هلم بنا الى القصر» .

* * *

ركب كل من حماد وضرغام ووردان جـــوادا من جياد الخرمية ، وأركضوها الى قصر النساء ، فلقوا اهل البلد في هرج وخوف وليس فيهم رجل لم يحمل سلاحه ليدافع عن نفسه ، وقد ظنوا حمادا ورفاقه من المغيرين ، ثم رأوا نفرا من المسلمين وسط المدينة ينهبون وأصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا ان البلد قد أخذ ، فلم يبالوا . ولما وصلوا الى القصر رأوا جنـــــود المسلمين يخرجون منه حاملين الامتعة والرياش ، ورأوا بعضهم يقود نســـــاء فاختلج قلب ضرغام خوفا على جهان ان تكون في الاسرى ، فدخل القصر مع وردان ، فقال لهما حماد : «تمهلا حتى أعرف الخبر اليقين مـــن مصدره» . قال ذلك واتجه الى غرفة بقرب الباب رآها موصدة ، فقرعها فلم يسمع جوابا فكلم الذين في داخلها بلسانهم ففتحت لهم امرأة كهلة أدخلتهم وأغلقت الباب خلفهم وهي ترتعد من الخوف ، فقال لها حماد : «ما الذي جرى يا خالة ؟»

قالت : «ألم تر ما جرى ؟ فتحوا المدينة ، وجاءوا الى هــذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه ولو لم أختبىء هنا ، او لو كان لي بقية من جمال او مال لاخذوني فاكتفوا بأخذ حليي وانصرفوا» .

فلما سمع ضرغام قولها : «سبوا نساءه» ، ارتعدت فرائصه ولم يكن وردان أقل منه اضطرابا ولكنه كان أصبر منه على كتم شعوره ، وأدرك حماد لهفتهما فسأل القهرمانة : «اخذوا كل النساء ؟» . قالت : «نعم» .

قال : «وجلنار ايضا ؟» . قالت : «لا .. جلنار لم يأخذوها» .

قال : «اين هي ؟» . فنظرت الى رفيقيه وترددت في الجواب كأنها تكتم شيئا تخاف ظهوره ، فقال لها : «قولي ولا تخافي» .

قالت : «ان مولاتنا جلنار ورفيقة لها رومية من نساء بابك خرجتا منذ بضعة ايام في مهمة الى بابك» .

فتصدى لها وردان مستفهما فقال : «وما اسم تلك الرومية يا خالة ؟ هل تعرفينها ؟»

قالت : «كيف لا أعرفها وأنا قهرمانة هذا القصر أعرف تاريخ نسائه واحدة واحدة ؟ فجلنار مثلا لا يعرف اهل البذ عنها شيئا وأما انا فأعرف اصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهان بنت المرزبان ، ثم تسمت بجلنار ، وأحبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق ذوقاهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معا» .

فثبت لديهم ، ان جلنار هي جهان نفسها ، ولم يبق مكان للشك . أما وردان فلم يشف غليله فقال : «سألتك عن المرأة الرومية ما اسمها وهل كان لها اسم غيره ؟»

قالت : «اسمها هيلانة ولم تغيره منذ سرقوها من زوجها البطريق في أرمينيا » .

فاضطرب وردان وارتجف وصاح : «هيلانة ؟. هي .. هي .. زوجتي ! »

وأدرك ضرغام ان وردان بطريق من بطارقة ارمينيا ، وان بابك سلبه امرأته فالتفت ضرغام اليه لفتة تهنئة وعتاب وقال : «أتكون بطريقا وتحماني على ظنك خادما ؟ والله اني رأيت في برديك نفس الرجل الكبير منذ عرفتك» .

فقال : «لجأت اليك ودخلت في خدمة المسلمين في انتظار هذه الساعة حتى أنتقم من ذلك الفاسق الظالم ، فأرجو ان يكون قد اخذ ونال جزاء فعلته» .

فقال حماد : «ان لم يكن قد فر فانه مأسور لا محالة ، لان المدينة سقطت وقضي الامر» . ثم عاد حماد فقال للقهرمانة : «لم تخبرينا يا خالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة» .

قالت : «سارتا معا الى بلاد الروم يستنجدان اهلها على المسلمين . ارتأت جلنار هذا الرأي لنصرة بابك وصحبتها هيلانة لانها من تلك البلاد وتعرف لسانهم» .

قال حماد : «ومولانا بابك اين هو ؟»

قالت : «ليس في البذ الان ولا هو اسير» .

قال : «فأين هو ؟. اخبرينا لا تخافي فان البذ دخل في حوزة المسلمين ، وهم أبقى لنا من سواهم . وأنا أعلم انك أخبر الناس بما يعمله بابك» .

قالت : «بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط المدينة فأتاني واصطحب من شاء من نسائه مع احمال من الطعام والشراب ، وأظنه غادر المدينة وأوغل في ارمينيا» .

فنظر حماد الى ضرغام كأنه يسأله عما يفعلون فقال : «نتصرف» . ثم خرجوا يلتمسون مكانا يتشاورون فيه ، وقد لاح الصباح . فقادهم حماد الى مكان يعرفه وشاهدوا في طريقهم جند المسلمين ينهبون المدينة ويهدمون بيوتها ويحرقون قصورها حتى لا يبقى فيها ملجأ لعدو او صديق .

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام : «ماذا يرى البطريق وردان فيما نحن فيه ؟. لقد ذكرت القهرمانة ان جهان وهيلانة ذهبتا الى بلاد الروم. وهي بلاد واسعة ، فلو عرفنا البلد الذي تنزلانه لقصدنا اليه» . فضحك وردان لتسميته بالبطريق وقال : «لا حاجة بي الى هذا اللقب ، يكفيني اني صديق ضرغام . وأما جهان وهيلانة فأذن لي ان أضرب في البلاد طولا وعرضا أبحث عنهما ولا اعود حتى أعرف مقرهما» .

فقطع حماد كلامه وقال : «كلا .. لا يذهب احد في هذه المهمة سواي ، ان لضرغام يدا عندي ، فقد أنقذ خطيبتي واحتفظ بها في بيته

مكرمة معززة ، فاذا لم أجازه على عمله كنت لئيما • دعني أذهب وحدي أبحث وأفتش ومتى وقفت على شيء بعثت اليكما» •

فقال ضرغام : «ليس من العدل ان تكون عالما بمكان ياقوتة وهي في لهفة للقياك وتذهب في مهمة اخرى» •

قال : «لا تجادلني . لست راجعا الى اهلي قبل ان آتيك بأهلك وأهل هذا الصديق الارمني • لقد سررت بمعرفته سرورا كثيرا • وأما ياقوتة فتبقى عندك في سامرا . ويكفي ان تبشرها باللقاء القريب» •

فقطع وردان كلامه وأخبره بما كان الخليفة قد أمر به ضرغاما من التزوج بها . وبأن ضرغاما أوهم الخليفة بأنه تزوجها • فصاح حماد وقد ثارت الاريحية في رأسه قائلا : «وهل بعد هذا يستعظم ان أبحث عن عروسه ؟ »

فقال : «اذن أسير معك لاني أعرف البلاد ولغتها وطرقها» • فقال : «لا حاجة بي الى احد منكما ، أستودعكما الله من هذه الساعة» • قال ذلك وخرج •

فلما خلا ضرغام الى وردان قال : «أحسبني في منام يا وردان ، ان الفرق بين اليوم والامس كالفرق بين الرجاء واليأس ولكن ••»

فقطع وردان كلامه وقال : «وأنا أحسبني انتقلت من الجحيم الى النعيم • لاني كنت شديد الشغف بأمرأتي ، وبلغ من قحة ذلك الوحش الكاسر ان طلب مني ان أطلقها ليتزوجها ، فلما أبيت بعث جندا حملها اليه بالقوة !• قبحه الله من مجوسي فاسق • والله لو ظفرت به لأشربن دمه» •

فقال ضرغام : «لعل الافشين ظفر به ونحن لا ندري فهلم بنا الى المعسكر » •

- ١٩ -

مصرع بابك

كان الافشين قد أحسن اعداد الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية على بكرة ابيهم وأخذ اولاد بابك وعياله ، الا جهان وهيلانة لانهما كانتا غائبتين وبعد ان احرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في «روذ الروذ» وقد ساءه انه لم يظفر بجهان ولا علم مكانها . فارتاب في أفوال سامان ، وخطر بباله انه فر بها .

وكان بين الاسرى كثيرون من العرب والفرس وأبناء الدهاقين ، فأمر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وأمرهم ان يكتبوا الى آوليائهم فكان كل من جاء وعرف امرأه او صبيا او جارية وأشهد شاهدين اخذه . فأخذ الناس منهم خلقا كثيرا .

وكتب الافشين الى ملوك ارمينيا وبطارقتهم بأن بابك هرب ، وأمرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة طرقه . وندم على تفريطه في ضرغام وهو يظنه قتل لان بعض الفراغنة الذين كانوا معه أخبروه انه أخذ اسيرا او مات لانهم رأوه محمولا بين حي وميت ولم يجدوه بين القتلى .

وفي اليوم التالي عاد ضرغام مع وردان الى معسكر المسلمين فرحب به الافشين وهنأه بالسلامة وأطرى ما سمعه عن بسالته ليلة الهجوم وبالغ في الاطراء حتى يبعد عنه مظنة السوء . واختصه بالشورى في الشؤون الهامة وأهمها يومئذ فرار بابك . وأخبره بما فعله في سبيل القبض عليه .

فقال ضرغام : «ان خادمي وردان أرمني الاصل والوطن ، وهو يعرف هذه البلاد فاستخدمه لهذا الغرض . واذا شئت اتيتك به الساعة » .

قال : «افعل» . فنادى غلاما أمره ان يستقدم وردان ، وكان خارج الفسطاط ، فلما دخل حيي ووقف فقال له الافشين : «أتعرف طرق أرمينيا ومسالكها يا وردان ؟»

قال : «نعم يا سيدي» .

قال : «اين تظن الخرمي يختبيء والى من يلتجيء ؟»

قال : «لا أظنه يلتجيء الى بلد لان اهل ارمينيا يكرهونه ويريدون قتله ، ولكنني احسبه يختبيء في بعض الغابات او الاودية وأشهرهـــا الوادي الاكبر المسمى الغيضة ، وهو كثير العشب والشجر بين أذربيجان وأرمينيا لا يمكن الخيل نزوله ، ولا يرى من يختفي فيه لكثرة شجره» .

فاستفاد الافشين من هذه المعلومات ، وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه وأكدوا له اختباء بابك هناك . وكان الافشين قد بعث الى المعتصم ليستكتبه كتاب أمان لبابك . فلما جاء كتاب الامان دعا الافشين بعض الذين أمنهم من اصحاب بابك وأعلمهم بذلك وأمرهم ان يسيروا اليه بالكتاب وفيهم ابنه ، فلم يجسر احد منهم خوفا منه . فقال : «انه يفرح بهذا الامان» . فقالوا : «نحن أعرف به منك» . فقام رجلان فقالا : «اضمن لنا رزق عيالنا اذا هلكنا ونحن نذهب اليه» . فضمن لهما ذلك ، فسارا بالكتاب حتى اتياه وأعلماه بما قدما فيه ، فقتل احدهما وأمر الآخران يعود بالكتاب الى الافشين . وكان ابنه قد كتب اليه معهما كتابا فقال لذلك الرجل : «ابلغ ابن الفاعلة انه لو كان ابني للحق بي ، ولكنه ليس ابني ولأن تعيش يوما واحدا رئيسا خير من ان تعيش اربعين سنة عبدا ذليلا» . وقعد في موضعه . فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق ، ومعه بعض رجاله، فلم يجد احدا من الجند الذين أرسلهم الافشين لمحاصرته ، وظن بابك ان القوم يئسوا من القبض عليه فرحلوا . فسار هو وعبد الله اخوه ، وأمه

وامرأة اخرى ، يريدون ارمينيا ، فرآهم بعض الحراس فأرسلوا الـــى الجند المكلف بتعقبه . وكان ابو الساج هو المقدم عليهم ، فلحق بهم وقد نزلوا على ماء يتغذون . فلما رأى بابك العساكر ركب هو ومن معه فنجا وأخذ ابو الساج أم بابك والمرأة الاخرى فأرسلهما الى الافشين ، وسار بابك في جبال ارمينيا مستخفيا ، وكان بطارقة ارمينيا يراقبون سبلـــه فاحتال بعضهم حتى خدعه وأدخله حصنه ، وأرسل الى الافشين يعلمه بذلك ، فبعث لافشين يعده ويمنيه وهو يأبى الاستسلام . ثم احتـــال صاحب الحصن عليه حتى أخرجه بحجة الصيد وأنبأ الافشين بخروجـه فتمكنوا من القبض عليه ومعه اخوه عبد الله وحملوهما الى الافشين.

فلما قرب بابك من المعسكر صعد الافشين وجلس ينظر اليه ، وصف عسكره صفين ، وأمر بانزال بابك من فوق دابتـــه فنزل ومشى بين الصفين فأدخله بيتا في برزند ، ووكل به من يحفظه وأنعم على الذين أسلموه وكتب الى المعتصم بذلك . فأمره بالقدوم اليـــه به وبأخيه ، فانتقل بهما في جنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٢٢٣ هـ) . وكان المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم رسولا يحمل اليه خلعة وفرسا ، فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواثق بن المعتصم. وأنزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فأتاه احمد بن داؤد متنكرا، فنظر الى بابك وكلمه ورجع الى المعتصم فوصفه له فأتاه المعتصم ايضا متنكرا فرآه . فلما كان الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة ، فشهره المعتصم وأمر ان يركب على الفيل فركب عليـــه واستشرفه الناس الى باب العامة . فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كعادته يحمل شيطان خراســـان
والفيل لا تخضب اعضاؤه الا لذي شأن مــن الشان

ثم أدخل بابك دار المعتصم فأمر باحضار سياف بابك فحضر ، فأمره المعتصم ان يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط فأمره بذبحه ففعل . وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان ، وصلب بدنه بسامرا . وأمر بحمل أخيه عبد الله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد ، وأمره ان يفعل به ما فعل هو بأخيه بابك ففعل وضرب عنقه وصلبـــــه في الجانب الشرقي بين الجسرين . وكان ذلك آخر العهد بالخرمية .

وكان ضرغام ووردان في جملة الذين رجعوا مع حملـــــة الافشين وشاهدا قتل بابك فاشتفيا بقتله ، وود ضرغام لو انه قتله بيده فـــــي المعركة . وحال وصولهم الى سامرا سار ضرغام الى منزله وقبل يد امه وسلم على يافوتة وبشرها بلقاء حماد . فلم نعد تعرف كيف تشكره . ثم أخبر امه بطرف مر خبر جهان وبأنها ذهبت الى بلاد الروم وان حمادا ابى الا ان يبحث عنها بنفسه . قال ذلك ويافوتة حاضرة ونظر اليها وابتسم وقال : «اظن هذا الخبر يسوؤك . ولكنه ابى الا الذهاب» .

فتوردت وجنتاها خجلا وأطرقت وقالت : «مهما تفعل فاننا لا نفي ببعض فضلك ، فقد انقذتني من القتل والعار وكفلتني» .

فقطع كلامها قائلا : «لم آتم الا ببعض ما وجب ضبقا لاشارة امير المؤمنين فنحن عبيده وعلينا طاعته» .

ورأى ضرغام في وجه ياقوتة تغيرا وفي عينيها ارتباكا كأنها تهـــم بشيء يمنعها الحياء من ذكره فسألها عما بها فقالت : «أذكرني تفانيك في نصرة امير المؤمنين شيئا لحظته خلال اقامتي ببيت الحارث السمرقندي ، وأخشى منه على حياة امير المؤمنين . فقد فهمت ان هناك قوما يتآمرون على حياته» .

فلم يشأ ضرغام ان يعير الامر اهتماما فقال : «اننا لا نحفل بمـــــا يكيده بعض الخونة لامير المؤمنين فمعظم ما يأتمرون به لا يترك اثرا ،

وسببه على الغالب جهل بعض اهل الخليفة الاقربين فيزين لهم ذوو المطامع من الوزراء او القواد ان يسعوا الى الخلافة ليستفيدوا هم من انتقالها من يد الى يد ، وهذا العباس ابن المأمون قد حسن له بعضهم ان يطالب بالخلافة لنفسه ولا ينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون ويتواطأون على قتله ولكنهم لا يفلحون ، وسيرد كيدهم الى نحورهم» •

فلما سمعته أمه أشرق وجهها وابتسمت وقالت : «بورك فيك يا بني هكذا الامانة وهكذا الرجال» •

ثم لبس سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد . فلما دخل عليه هش له وقال : «مرحبا بالصاحب البطل الهمام • بلغنا ما كان من بلائك في الاعداء وما أبدَيته من البسالة والهمه بورك فيك • ألا تزال ترى لقب الصاحب كثيرا عليك ؟» • وأشار اليه بالجلوس قريبا منه •

فأطرق خجلا وقال : «ان العبد لا يستأهل اجرا اذا قام بخدمة مولاه، ويكفيه رضاه عنه» •

فالتفت الخليفة الى الافشين فقال هذا : «يندر يا امير المؤمنين ان نرى مثل الصاحب في الشجاعة وصدق الخدمة» • وأخذ يطري اعماله يريد ان يمحو ما يخشى ان يكون قد خامره من اساءة الظن به • وعاد الخيفة نفسه الى الثناء عليه ، وأمر له بالهدايا والخلع • ولما انفض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في شأن جهان • ولبث في انتظار ما يأتيه من حماد ، فكان يقضي اكثر ايامه مع وردان يتحادثان فيما عسى ان يكون من امر جهان وهيلانة •

وشاع في هذه السنة في سامرا ان (تيوفيل) ملك الروم خرج الى بلاد الاسلام . وسمع بذلك ضرغام . فأرسل الى صديقه وردان فجاء ، فأخذا في تقليب الرأي فيما هو حادث وما قد يحدث ، فقال له وردان:

«اني ارى فتح البذ سبب خروج الروم لقتال المسلمين ، فقد أنبأني بعضهم ان بابك لما ضيق عليه الافشين وأشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم بأن جنود المسلمين مشغولون به ، فالفرصة سانحة امامه لاكتساح مملكة الاسلام ، وربما كان لجهان يد في هذا التوجيه» .

قال : «تحدثني نفسي انها مع هيلانة هناك» .

قال : «لو كانتا هناك لجاءنا الخبر من حماد فانه يبحث عنهما حيث يكون ملك الروم . ولا بد من الصبر» .

قضى ضرغام في ذلك اياما على مثل الجمر حتى جاءه وردان ذات يوم مهرولا ، وأومأ اليه ان يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة ، ثم دفع اليه اسطوانة ملفوفة بمنديل من الحرير فحل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتابا من الكاغد قرأ في صدره اسم حماد فخفق قلبه ، وأخذ يتلوه وهذا نصه :

«من حماد في عمورية الى الصاحب ضرغام في سامر .

«لقد طال سكوتي عليك وأظنك مللت الانتظار ولكني مكره على هذا فاني قضيت اشهرا أبحث على غير هدي الى ان بلغني ان بيوفيل ملك الروم قادم على (زبطرا) فهممت بأن ألقاه هناك لعلي اجد ضالتنا ، فما كدت أبلغ البلد حتى علمت ان الروم اكتسحوه وخربوه وسبوا النساء والاطفال . ثم اغاروا على (ملطية) وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمات ومثلوا بمن أخذوا من المسلمين فسلموا أعينهم وقطعوا أنوفهم وآذانهم ، وقد شاهدت بعض اولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فرارا من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح او دابة . فلما رأيت ذلك عدلت عن الذهاب الى (زبطرا) وتذكرت ان (ناطس) بطريق عمورية كان قد زار البذ في عهد بابك وعرف جهان . ولعلها ذهبت اليه . وقد صدق حدسي لاني علمت عندما دخلت عمورية

ان جهان وهيلانة جاءتا رأسا من البذ للسعي في حمل البطريق ناطس على ان يتوسط لدى ملك الروم في نجدة بابك ، فأنزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيرا ، ثم جاء الخبر بسقوط البذ وقتل بابك ، فلم يبق لهما مأرب في أرمينيا كلها فبقيتا في عمورية . وقد حرص عليهما هـــذا البطريق حرصا شديدا ولاسيما جهان ، وضيق عليهما فلا يسمح لهمـــا بالخروج . ولعل جهان رضيت بالاسر عن طيب خاطر اذ يئست من لقائك. وقد حاولت الاتصال بها لأطلعها على حالك وأبشرها بقرب لقائك فلـم يتيسر لي ، لان القوم هنا شديدو الحـــذر من المسلمين ، واذا اساءوا الظن بأحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا بأهل (زبطرة) . فجهان وهيلانة مسجونتان الا في قصر (ناطس) بطريق عمورية : وسأبذل جهدي فـــي ابلاغ خبرك اليهما وان كنت لا أتوقع نجاحا عاجلا .

«وقد علمت ان الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام ، فالذي اراه ان يسبقهم المسلمون ويكتسحوا بلادهم ، وهذه عمورية التي تعد أمنع حصونهم لا اراها تمتنع على المسلمين لعلمي بمواضع الضعف فـــي أسوارها ، ولا اخالك بعد كتابي هذا الا محرضا صاحبك على فتحها ، فاذا فعلت فاجعل رايتك قطعتين مستطيلتين حتى أعرفها اذا نزل معسكركم امام عمورية وأعرف مكانك والسلام» .

وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى تصبب العرق من جبينـــه وهاجت أشجانه وثارت عواطفه ، ودفع الكتاب الى وردان فقرأه وقال: «ارى ان قد تحتم المبادرة الى العمل ، ولا بد من ذهابي الى عمورية» .

قال : «لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في اسار أضيق مما قرأته في هذا الكتاب ، وقد اراد صديقنا حماد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله : (ان ناطس حرص عليهما حرصا شديدا ولاسيما جهان) . انه يعني ان هذا البطريق أحب جهان فاستبقاها لنفسه ، فلا تجدي الحيلة في انقاذها منه

ولا بد من القوة • وقد اشار حماد الى ذلك تلميحا في أواخر كتابه» •

فقال وردان : «اذا كان لا بد من الحرب فلا يثيرها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة » • فنهض ضرغام لساعته تاركا وردان في مكانه ومضى الى داره فلبس سواده والقلنسوة وخرج يقصد دار الخليفة فاستأذن فقال له الحاجب : «ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد» • فقال : «استأذن لي ايضا» •

فلما أذن له دخل وسلم ، فرأى القاضي احمد جالسا بجانب سرير المعتصم والاهتمام باد في وجهيهما • فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلا: «جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه فقد كنت عازما على دعوتك» • وأشار اليه بالجلوس •

فجلس وقال : «ان نفسي حدثتني بأن هناك ما يدعو الى مجيئي ، لاني لا افتأ أفكر في مولاي ، أشاركه آماله فتتلاقى خواطرنا» •

فقال القاضي : «بلغني رضاء امير المؤمنين بما آبديته من البسالة في فتح البذ ، وقد سرني صدق توسلي فيك فأصبحت ذا منزلة لدى مولانا يعول على رأيك وسيفك» •

فأطرق ضرغام تأدبا ولم يجب • فأتم الخليفة الحديث قائلا : «جاءنا البريد من بلاد الروم بأن تيوفيل اللعين نزل (زبطرا) و(ملطية) وأساء الى اهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يألف المسلمون مثله» • فقال ضرغام . «هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟» • قال : «نعم» •

قال : «لا رأي لي غير السيف كما عودهم الرشيد من قبل • فاحمل عليهم ودوخهم واكتسح بلادهم • ان الاسلام لا يصبر على ما فعله تيوفيل من سمل العيون وجدع الانوف وسبي النساء • جرد يا امير المؤمنين جندك فيعودون من ظفر الى ظفر آخر وأنا عبدك اول المتطوعين في هذه الحرب • واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين فلا

أخاله يصبر على سبي المسلمات !» . وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدحان شررا وشفتاه ترتجفان وأحس انه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ، ولكنه لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرآه وقد تغير وأبرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . واضطرب في مجلسه وثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجت حماسته وأصبح كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد أغضب المعتصم بجرأته ، فأراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلا : «لقد نبهت حمية امير المؤمنين الى مصلحة المسلمين وما هو بغافل عنها ، وانه ليسره ان يرى ذلك في رجاله وأبطاله» .

فقال المعتصم : «ان الصاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . وسآمر الافشين والقواد الآخرين بالتأهب للحرب بعد ان أستخير الله فيها . انها جهاد في سبيل الاسلام» . ثم قال : «موعدنا غدا ان شاء الله» .
فانصرف القاضي وضرغام .

مشى ضرغام الى منزله وقد هاجت عواطفه ، وكان وردان في انتظاره فقص عليه ما جرى فسره الامر ولكنه خاف ان تأول تلك الاستخارة الى العدول عن القتال . وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة مبكرا في طلب الصاحب . فمضى حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو بثوب النوم وقد التف بمطرف . وآنس في وجهه انقباضا . فأوجس خيفة ولكن المعتصم أمره بالجلوس فجلس فقال له الخليفة : «أتدري لماذا دعوتك وأدخلتك علي وأنا في هذه الحال ؟» . قال : «كلا يا مولاي» .

قال : «نهضت من فراشي منذ هنيهة بعد ان استيقظت منزعجا مضطربا» . قال : «خيرا ان شاء الله» .

قال : «صليت العشاء امس وتوسلت الى الله ان يلهمني ما فيه خير

المسلمين من امر الروم ، ثم نمت فرأيت في رؤياي ما أطار صوابي وأذهب رشدي» .

نظل ضرغام مصغيا يتطاول بعنقه . فمسح المعتصم لحيته وشاربه وأصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال : «قلت اني رأيت ، والحقيقة اني لم أر شيئا ولكني سمعت صوتا اخترق أعماق قلبي . سمعت امرأة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح : (وامعتصماه) . فأجبتها : (لبيك) واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وآن اكون على رأس المجاهدين فخذ أهبتك للسفر وسآمر فوادي يتأهبوا . هل أثق بجندي؟»

فتذكر ضرغام ما كان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال: «لا سبيل الى تحقق ذلك ، وقد علم امير المؤمنين انهم انما يحاربون في سبيل حطام الدنيا ، وقد فتحوا البذ وقضوا على الخرمية وسيفعلون ذلك بالروم » .

فقال المعتصم : «يخيل الي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد أعوام » .

فخجل من الاطراء وقال : «اذا كان لامير المؤمنين ثقة بعبده فليجعلني في هذه الحملة ولا يخشى غدرا باذن الله» .

قال : «وما رأيك في البلد الذي نقصده من بلاد الروم ؟»

قال : «ان الصوت الذي سمعته يا امير المؤمنين خرج من عمورية وهي من اكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين» .

قال : «احسنت» . وتحفز للنهوض فخرج ضرغام مسرعا الى وردان يبشره وأخذ في الاستعداد .

- ٢٠ -

فتح عمورية

أعد المعتصم جنده للقتال ، وجلس في دار العامة ، وأحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨ رجلا من اهل العدالة فأشهدهم على ما وقفه من الضياع ، جاعلا ثلثه لله ، وثلثه لولده ، وثلثه لمواليه . ثم تجهز الى عمورية بالسلاح والعدد والآلات وحياض الماء والروايا وغير ذلك ، وجرد جيشا عظيما بلغ تسعمائة الف مقاتل ، عليه من القواد الافشين واشناس وغيرهما . وخرج المعتصم نفسه على دابته وخلفه حقيبة فيها زاد تشبها بالمجاهدين في صدر الاسلام .

وفرق جنوده في جهات مختلفة من بلاد الروم حتى التقوا قرب انقرة وعزموا على المسير الى عمورية . فأمر المعتصم بتعبئة الجند فجعله ثلاثة معسكرات احدهما في الميسرة وعليه اشناس التركي ، والثاني في الوسط وفيه المعتصم نفسه ، والآخر في الميمنة وقائده الافشين . وجعل بين كل معسكر ومعسكر فرسخين . وأمر بأن يكون كل معسكر ميمنة وميسرة ، وبأن يحرقوا ما يصادفهم من القرى ويخربوها ويأخذوا من فيها . ثم ترجع كل طائفة الى موضعها فيما بين أنقرة وعمورية وبينهما سبع مراحل . ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان اول من أتاها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين . فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد منهم أبراجا منها على قدر اصحابه .

وكان ضرغام في معسكر المعتصم ، والمعتصم يقربه ويكرمه . وكان في حاشيته ايضا الحارث السمرقندي وقد اخذ الحسد منه مأخذا عظيما لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة ، وضرغام لا يكترث وانما همه

ان يوفق الى انقاذ جهان ، وكذلك كان وردان يتوق الى لقاء هيلانة .

وحينما حطا رحالهما هناك ، صعدا الى رابية أطلا منها على عمورية فرأياها مدينة كثيرة الابنية واسعة الارجاء حولها سور عال عليه الابراج الضخمة وله الابواب المتينة ، ورأيا بين الابنية قصرا تخفق عليه الرايات، فعلم ضرغام انه قصر البطريق وان جهان فيه ، فتنهد ونظر الى وردان فرآه مطرقا فسأله : «أليس هذا قصر البطريق ؟» . قال : «بلى ، هذا هو بعينه » .

قال : «اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة محبوستان فيه ، وأرى المدينة حصينة ، ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله . هل أعددت الراية المزدوجة التي أوصانا حماد بها ؟»

قال : «نعم أعددتها ولكن كيف السبيل الى نشرها ونحن في معسكر المعتصم تحت رايته» .

قال : «ننشرها في مكان منعزل عسى حماد ان يكون في انتظار رؤيتها كما ذكر في كتابه» .

قال : «غدا اقف بها على هذه الرابية نحو ساعة لنرى ما يكون» . وعاد الى المعسكر .

وفي اليوم التالي عقد المعتصم مجلسا حضره القواد ورجال خاصته وفيهم الصاحب والحارث السمرقندي ، وأخذوا في وضع خطة القتال. ولما أذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه وأشار الى الصاحب ان يأتيه صباح الغد ، فرجع الى فسطاطه فرأى وردان في انتظاره وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما فسأله عن الراية فقال : «وضعتها على الرابية» .

فقال : «كيف تركتها ومالي اراك متجهما ؟»

قال : «تركتها لأمر أهم منها» . قال : «وما ذلك ؟»

قال : «رأيت سامان اللعين في معسكر الافشين مقربا منه ملحوظ المنزلة فلم أستطع الصبر على رؤيته وحدثتني نفسي ان أبطش به» .

قال : «لا تفعل اننا في موقف يقتضينا جمع الكلمة . فاذا رفعت يدك على سامان أغضبت الافشين فتوقظ الفتنة في الجيش ، فاترك سامان الى وقت آخر ، وامض الى الرابية وراقب الاسوار وامكث هناك ليلا» .

فمضى وردان لشأنه ، وما خلا ضرغام الى نفسه حتى اخذ يفكر في حاله متنقلا بخياله من جهان الى أمه الى حماد الى الافشين حتى اخذه النعاس فنام واستيقظ على صوت وردان يناديه ، ففتح عينيه فاذا هو في المساء وقد أظلمت الدنيا فظن ان وردان جاء يبشره بلقاء حماد فقال : «هل اتى حماد ؟» قال : «كلا» .

قال : «وكيف عدت وتركت الراية ؟»

قال: «تركتها لأمر لم أستطع كتمانه الى الغد ، ولا بد من ان تعلمه قبل ان تذهب في الصباح الى المعتصم» .

قال : «وما هو قله بكلمتين والا فدعني أرافقك الى الرابية أساهرك وتقصه علي هناك» .

قال : «ليس حديثي طويلا لكنك اذا صحبتني الى الرابية كان هذا أجـدى » .

فنهض ضرغام ولبس ثيابا لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع وردان ، وكانت الرابية واقعة بين معسكر المعتصم وبين معسكر اشناس، فمرا بكثير من الفساطيط بين مضيء ومظلم ، فقال ضرغام : «اراك تسير بي في غير الطريق المستقيم» .

فقال : «أريد ان أريك شيئا طريفا . هل تعرف هذا الفسطاط الـى يسارنا ؟ »

قال : «أعرفه ، هو فسطاط العباس بن المأمون . مالنا وله ؟»

قال : «اكتشفت سرا لو عرفه المعتصم لقلب المعسكر رأسا على عقب!»

قال : «ما هو ؟»

قال : «لما عدت من عندك هذا النهار ، مررت من هنا فرأيت الحارث السمرقندي خارجا من هذا الفسطاط وقد خف العباس لوداعه وبالغ في اكرامه ، فقلت في نفسي : (لأمر ما هذا الاكرام ؟) . وأنــا أعلم ان السمرقندي ناقم على المعتصم لاخذه ياقوتة منه ، ولما رآه من تقديمه اياك . ولا يخفى عليك ما في نفس العباس بن المأمون على المعتصم لانه اخذ الخلافة منه ، وكان بعض القواد يريدونها له ، ولكنه جبن عن طلبة البيعة فنالها المعتصم . وقد سمعت وأنا في سامرا ان الحارث السمرقندي كان من الساعين في خلع المعتصم ومبايعة العباس ، لكنهم تهيبوا الاقدام على هذا الامر خوفا من الجند ، فلما رأيت الحارث خارجا من فسطاط العباس اليوم حدثتني نفسي بأمر ذي بال بينهما» .

وكان وردان يقص حديثه همسا حتى وصلا الى الخيمة المنصوبة على الراية والليل مظلم ، فرأى ضرغام رجلا نائما عند باب الخيمة وله شخير كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال : «من هذا ؟. كأني أشم رائحــة الخمــر ! »

قال : «هذا ناقل السر الي ، وهو من عبيد الحارث عرفته في سامرا فاحتلت في دعوته الي وسقيته خمرا حتى سكر وقص علي الحديث الغريب الذي سأقصه عليك ، فهل تدخل الخيمة ام أتم الحديث خارجها . اني والحق يقال لا ارى لحراسة الراية في هذه الظلمة فائدة لان الظلام يحول دون رؤيتها على عشر أذرع فكيف من عمورية ؟»

قال : «صدقت ليس القصد ان يراها حماد من هناك ليلا ، ولكنه قد يراها ساعة الغروب ويحتال في الخروج بعد قليل فلا يراها او ربما وقع بصره عليها في صباح الغد فيأتي وأنت لا تزال عندها . اقصص علينا ما

سمعته من العبد» •

فمشى وردان الى صخرة على بضع أذرع من الراية وضرغام يتبعه ، فجلسا وأخذ يقص عليه فقال : «أخبرني العبد ان سيده الحارث اتفق مع العباس على ان يكون رسوله الى القواد في هذا المعسكر ، وبعضهم تحت قيادة الافشين وبعضهم من رجال اشناس وآخرون من جند المعتصم • ليأخذ البيعة له منهم فأخذ يدور بالمعسكرات الثلاثة حتى بايعه نفر من القواد وفيهم جماعة من خاصة المعتصم ، وقال لكل من بايعه : (اذا أظهرنا من امرنا فليثب كل منكم على الامير الذي هو معه ويقتله • فوكل من بايعه من خاصة المعتصم ان يثبوا في الأجل المضروب على المعتصم ويقتلوه ، ومن بايعوه من خاصة الافشين ان يثبوا على الافشين ويقتلوه، ومن بايعوه من خاصة اشناس ان يقتلوه • وهكذا» •

وكان ضرغام يسمع كلام وردان مطرقا يهز رأسه استغرابا ويقول : «قبحهم الله من خونة مارقين» •

فقال وردان : «اني ارى العباس أعقلهم جميعا فقد فهمت من محدثي انه لم يوافقهم على تنفيذ المكيدة الان خوفا من تضييع الفتح ، فأحببت ان أطلعك على ما سمعته وأنت ذاهب غدا الى الخليفة فتنقله اليه اذا شئت » •

قال : «كلا يا وردان • لا ينبغي ان يعلم الخليفة ذلك والا فاننا نجر على المسلمين ما نتحاشاه من الفتنة ، ولكننا نكتمه الى حينه ، ولاسيما انهم أجلوا تنفيذه • ويكفي ان نسهر على حياة امير المؤمنين» •

فأعجب وردان بأريحية ضرغام وقال : «بورك فيك يا بطل • هذا هو الرأي الصواب» •

قال ضرغام : «ولكنك اخطأت اذ أبقيت العبد هنا فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك ، والاحسن ألا يعرفه فانقله الان وهو بين السكر

والنوم وأنا أمكث هنا حتى تعود» •

قال : «أصبت» • ونهض وأخذ في ايقاظ العبد وهو لا يصحو فجعل يوقفه او يقوده او يجره حتى بعد به عن فسطاطه واقترب من فسطاط العباس فألقاه هناك ورجع ، وكان الليل قد انتصف ونام من في المعسكر •

فلما عاد الى ضرغام قال له هذا : «انا ذاهب الى خيمَتي فامكث هنا حتى الصباح» • قال : «سمعا وطاعة» •

اتجه ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في تفكيره ، وقبل ان يصل اليه سمع لغطا بينه وبين السور ، فالتفت فرأى جماعة من حراس المعسكر يقودون رجلا أمسكوا بخناقه وهو يقول : «خذوني الى الصاحب» •

فلما سمع صوته أجفل لانه صوت حماد فأسرع الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم وبعد قليل دخل احدهم وقال : «اخذنا جاسوسا دخل المعسكر من جهة المدينة وزعم انه قادم اليك» • قال : «ادخلوه» •

فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال : «دعوه» • فتركوه ورجعوا• فلما خلا اليه حياه ورحب به وأجلسه بجانبه وسأله عن جهان فقال : «لا تزال عند البطريق» •

قال : «ألم تنقل خبرنا اليها ؟»

قال : «كلا • لم أستطع الظهور قط ، ولما رأيت جندكم بالامس تطلعت الى الاعلام فلم أر الراية المزدوجة الا هذا المساء ، ولم أستطع الخروج الا الآن بحيلة شيطانية فتهت عنها ، ولما اخذني الحراس طلبت اليهم ان يحملوني اليك كما ترى» •

قال : «اهلا وسهلا • فجهان لا تزال في قصر ناطس ؟»

قال : «نعم وهيلانة معها ، والرجل شديد الحرص عليهما ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب» •

قال : «وكيف ذلك ؟» اني ارى الاسوار منيعة وسيطول الحصار على ما ارى » .

قال : «سأجعله قصرا باذن الله» .

قال : «هل تعرف مدخلا سهلا ؟»

فضحك وقال: «نعم أعرف مدخلا يسهل الفتح؛ هل أدلك عليه الان؟»

قال : «اني مبكر غدا الى الخليفة ، وسأطلعه على ما عندك من أخبار العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغفـــر لك ما مضى» . قال : « حسنا » .

فقال ضرغام : «أظنك في حاجة الى الراحة . هذا فراش نم عليه وأنا انام هنا ونذهب في الصباح معا» .

وأصبحا في الغد وقصدا الى فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليه فدخل واستبقى حمادا خارجا ، فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تجهما ، فتهيب وسكت فقال المعتصم : «أتدري لماذا دعوتك يا صاحب ؟»

قال : «ليس لي علم الغيب يا مولاي» .

فتنهد المعتصم وقال : «كنت وأنا في سامرا أستأنس بالقاضي احمد وأطلعه على سري ، اما الان فأراني في حاجة الى مشاورتـــك بعد ان خبرت صدق نيتك» .

قال : «اني عبد مخلص لمولاي» .

قال : «أتذكر اني شكوت اليك ارتيابي في الافشين ؟» . قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «كنت أستعظم ما رأيته من جشعه ، ولكنني اصبحت الان لا أعد طمعه شيئا مذكورا بجانب ما اراه في هذا المعسكر من الدسائس هل عرفت شيئا من ذلك ؟»

قال : «لم أفهم مراد مولاي» . وقد فهمه لكنه تغابى .

قال : «بلغني ان قوما أجمعوا امرهم على نقل البيعة الى العباس ابن اخي ويريدون قتلي» . قال ذلك وعيناه تقدحان شررا من الغيظ .

فرأى ضرغام من الحكمة ان يخفف عنه فقال : «لا أعرف شيئا من ذلك وان كنت لا أستبعده لان الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مطمح أنظار الطامعين ، وهب ان بعضهم تحدثه نفسه بذلك ، فانه صائر الى الفشل المحقق ، وانما نحن الان أحوج الى جمع كلمتنا لنتمكن من أعدائنا المحدقين بنا . فهل أدل مولاي على ما يذهب عنه الغضب» .

فانبسطت أسرة المعتصم وقال : «ما وراءك ؟»

قال : «اتيت امير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الامس من عمورية ، وهو يعرف مداخلها ومخارجها . هل أدخله على مولاي ؟» .

قال : «يدخل» .

فنهض ضرغام ونادى حمادا فدخل ووقف وألقى التحية ، فلما رآه الخليفة عرفه . فعبس ولكنه اشار اليه بالجلوس ، فجلس جاثيا فنظر المعتصم الى ضرغام وقال : «كأني ارى حمادا العربي بين يدي ؟»

قال : «نعم هو عبد امير المؤمنين ، وقد يكون سبق منه ذنب فعفو مولانا اوسع» .

قال : «ما الذي جاءنا به ؟»

فقال حماد : «قضي علي ان أدخل هذه المدينة منذ بضعة اسابيع فعرفت حصونها ومعاقلها ، ولما رأيت جند امير المؤمنين بالامس بذلت جهدي ففررت وأتيت» .

قال : «وماذا تستطيعه في خدمتنا ؟»

قال : «أدل امير المؤمنين على عورات البلد فيسهل عليه فتحها . ان لهذه المدينة سورا منيعا ، وحدث ان سيلا جرف جزءا منه ، فكتب الملك

الى عامله ليعيد بناءه فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينيـــة خاف العامل ان يأتي عمورية ويرى السور خرابا فبنى وجهه حجرا وعمـــل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاي دللته عليه من هنا» .

فنهض الخليفة وقال : «أرنيه» .

فدله على مكانه من بعيد ، فلما رآه اثنى عليه وقال : «اذا صدقت فيما تقول فلك الجزاء الحسن» .

فقال ضرغام : «انا أضمن صدقه يا مولاي ، فهل يأمر امير المؤمنين بتعجيل الجزاء» .

قال : «نعجله اكراما لك ، ما جزاؤه ؟»

قال : «انه لا يطلب مالا وانما تأذن له بجاريتك ياقوتة فيتزوجها» .

فقال : «ياقوتة زوجتك ؟»

فوجم ضرغام ثم قال : «نعم ياقوتة التي امر امير المؤمنين ان تكون زوجة لي فجرؤت على حلم مولاي ولم آتزوجها لعلمي انها مخطوبـــة لصديقي هذا ، فحفظتها عندي أمانة له ، فاذا شاء امير المؤمنين ان يغمرنا بنعمه عفا عنا وآذن ان تكون ياقوتة زوجة لحماد بعد رجوعنا من القتال ظافرين باذن الله» .

فأعجب الخليفة بأريحية ضرغام وكرم أخلاقه وابتسم له وقال : «قد عفونا عنكما . وأحب ان يكون حماد من خاصتي وسأغدق عليه النعم» .

فشكر كلاهما فضله عليهما فقال : «هلم بنا الى العمل» . وأمر ان ينقل فسطاطه امام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعـــل الروم بدلها أعوادا كل عود بجانب الاخر فكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ ، فلما ألحت المجانيق على ذلك الموضع تصـــدع السور وألح المعتصم بالحصار وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لأخذت المدينة . فأشار ضرغام على الخليفة ان يطمـــه

بجلود الغنم المملوءة ترابا ففعل ، وعمل دبابات كبيرة تسع الواحدة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فلـمـا صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها الا بعد جهد ، وعمل سلالم ومنجنيقات .

وكان ضرغام يلح على الخليفة ان يأذن للجند بالهجوم يريد سرعـه الوصول الى جهان والخليفة ضنين به . فلم يأذن له ولكنه أمر بالحرب فكان اول من هجم أشناس بأصحابه . وكان المحل ضيقا فلم يسكنهم من الحرب فيه . فأمدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلمة . وفي اليوم الثاني أمر المعتصم ان يهجم الافشين وأصحابه وأجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجاله وفيهم المغاربة والاتراك وهجم ضرغام وعمل أعمالا تعجز عنها الابطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بأمر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق .

وظلت الوقعة الى الليل واحتدم سعيرها . وكان البطارقة قد اقتسموا ابراج السور فاختصموا وجاء بعضهم في الصباح وألقوا سلاحهم نكاية في الآخرين وساروا امامهم الى المدينة ، ففشل الروم ودخلها المسلمون دخول الفاتحين وأمعنوا فيها نهبا وقتلا وسلبا .

* * *

قصد ضرغام الى قصر البطريق يطلب حبيبته ومعه وردان وحماد ؛ ولم يصل الى القصر الا بعد التعب المضني لشدة ازدحام الاسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسلب والسبي ؛ ولما دخلوا القصر وجدوا ابوابه مفتحة ولم يبق فيه شيء من المال او النساء فطافوا غرفه يبحثون فيها فلم يقفوا لجهان ولا هيلانة على أثر ، فارتاب ضرغام في قول حماد

وأدرك هذا ارتيابه فأقسم له على صدق قوله وقال : «يلوح لي ان بعض الجند دخلوا القصر ونهبوه وأخذوا اهله» .

فوقف ضرغام ووردان وقد سقط في أيديهما فقال وردان : «نبحث عنهما بين السبايا بعد انتهاء المعركة» .

أمر الخليفة بعد ان تم النصر للمسلمين بوقف القتال وجمع الغنائم في ساحة المدينة لتباع ، فأخذ الناس يتزايدون فلا ينادي على السبي الواحد اكثر من ثلاثة اصوات التماسا للسرعة فكانوا يبيعون الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرته ، والمعتصم يستعجلهم ، وأمر بهدم المدينة فهدموها وأحرقوها .

أما وردان فانه طاف بين السبايا اثناء البيع فلم يقف لامرأته ولا لجهان على خبر ، فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام لينظرا في الامر . فمر في طريقه على معسكر الافشين فرأى فرس جهان الأدهم في جملة الغنائم وتحقق ذلك لما رأى سامان واقفا الى جانبه فتميز غيظا لكرهه سامان وأمسك عن الفتك به اكراما لضرغام لعلمه انه لا يريد ذلك . ثم أسرع الى ضرغام وأخبره بما رأى فجاء ضرغام فرأى ادهم جهان وكان سامان قد ذهب . وما كاد ضرغام ينظر الى وجه الادهم ويرى صورة الاسد في جبهته حتى ثبت لديه انه جواد جهان وغلب على اعتقاده ان جهان وهيلانة في جملة السبي الذي اخذه الافشين ؛ وهم بأن يدخل عليه لساعته ليطلب منه جهان وهيلانة ثم تراجع خوفا من افساد نظام الجند وهو حريص على جمع كلمته ، واعتزم ان يوسط الخليفة لانقاذ جهان وهيلانة من يد الافشين .

وسأل عن الخليفة فعلم انه في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة لتهنئته بالنصر . فمكث حتى خلا المجلس من الناس ومضى معظم النهار فاستأذن فأذن له ، فرحب به الخليفة وأدناه منه وهش له متلطفا ، فدعا

ضرغام له وهنأه • ولحظ الخليفة انقباضا في وجهه فقال : «كأني ارى الصاحب مغضبا ؟»

قال : «لا يغضب العبد بين يدي مولاه ولكنني قلق» •

قال : «وما الذي أقلقك يا صاحبي ؟» • قال : «اقلقني ان الافشين تعدى علي» •

قال : «بماذا ؟ وعهدي بك حكيم لا تدع مجالا لاختلاف» •

قال : «ليس الخلاف على منصب او مغنم ولكن ساقت الاقدار فتاة خطبتها الى عمورية ، فوقعت سبية في يد الافشين وهو يعلم امرهـــا فأخذها لنفسه» •

فاستغرب المعتصم كيف يكون له خطيبة في عمورية فقال : «زدني ايضاحا » •

قال : «يذكر مولاي زاده الله نصرا انه آكرمني في سامرا بياقوته وأمرني ان أتزوجها فخالفت امره ولم أفعل ،كما ذكرت له بالامس ، ولم يسألني امير المؤمنين ساعتئذ عن السبب : وهو اني كنت علقت بفتـاة اخرى من فرغانة خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم ندبني للذهاب الى فرغانة لجلب الجواري • وتوفي ابوها اثناء ذلك وأتاني امر الخليفة ان أرجع فرجعت الى سامرا وأجلت الزواج • وحدثت بعد ذلك أحـداث يطول شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتى وصلت الى عمورية . وكانت سجينة في قصر ناطس بطريقها •

«فلما فتحنا المدينة طلبتها في القصر فلم اجدها . وبعد البحث علمت انها عند الافشين ، وحدثتني نفسي ان ادخل عليه وأطالبه بها فخفت ان نختصم وتتفرق كلمة الجند ونحن أحوج الى الاتحاد • فرجعت الـــى مولاي أعرض عليه امري ليرى رأيه» •

فأطرق المعتصم لحظة ثم قال : «هذا امر يسير ، فلا اظن الافشين

يمسك عليك خطيبتك ، والسبايا كثيرات وقد بيعت الواحدة بدراهم معدودة» . وصفق فجاء احد الغلمان فأمره ان يستقدم الافشين .

وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغاما هناك أدرك سبب الدعوة ولكنه تجاهل وسكت ، فقال له الخليفة : «دعوتك لأمر يهم الصاحب وأنت تعلم منزلته عندي» .

فابتسم الافشين وقال : «ان الصاحب عزيز علي وهو لا يجهل ذلك» .

قال المعتصم : «ان بين السبايا اللائي وقعن في حوزتك فتاة يريدها منك » .

قال : «السبايا كثيرات وقد ابتعن بأثمان بخسة ، وعندي منهن عشرات فاذا طاب خمسا اعطيته عشرا» .

فأدرك ضرغام تمويهه فقال : «أعني سبية معينة انت تعرفها» .

قال : «أيهن ؟» . قال : «أعني جهان بنت المرزبان» .

فأظهر دهشته وقال : «وهل هي بين السبايا ؟»

قال : «أظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانه» .

فالتفت الى الخليفة وقال : «اذا كانت جهان بين السبايا فاني أسأل امير المؤمنين ان يعفيني من اعطائها» .

فقال المعتصم : «الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق» .

قال : «نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابنتي وقد أقامني ابوها وصيا عليها ولا اظن الصاحب ينكر ذلك» .

فنظر المعتصم الى ضرغام فرآه قد امتقع لونه وبان الغضب في وجهه، ولما شعر ضرغام بأن الخليفة ينظر اليه أمسك نفسه عن الغضب وقال : «سمعت بالوصية ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها» .

قال الافشين : «لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل فأنا أعد الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز ان تخطبها الا بأمري تنفيذا

لوصية ابيها» . قال ذلك والتفت الى المعتصم كأنه يستشيره فاحتـــار الخليفة لانه يحب ان ينال ضرغام طلبه ولا يحب ان يرى شقاقا في جيشه فقال : «هب ان أبا الفتاة لم يعلم بالخطبة او لم يعترف بها وأنت ولي امر الفتاة الان فنحن نخطبها منك» .

فأفحم الافشين ووقع في مأزق بين ان يغضب الخليفة وبين ذهاب جهان من يده ، فأطرق لحظة ثم قال : «ان امر مولاي نافذ لا مرد له . وليكن بعد رجوعنا الى سامرا ان شاء الله» .

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول : «هذا هو الـرأي الصواب » .

فعلم ضرغام ان الافشين يماطل . وانه ينوي ما يقول فقال محتدا: «اذا كان الافشين قبل طلب امير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا» .

فابتسم الافشين وأذعن وقال : «اذا أمر امير المؤمنين فلا اعتراض . ولكني لا أدري اين السبايا الان وأظنهن حملن الى سامرا» . ففـــرح ضرغام لاعتقاده بأن جهان في المعسكر بعد ان رأى جوادها فيه . فقال : «اذا لم تكن الفتاة هنا أجلنا الخطبة الى يوم عقدها في سامرا ، فليأمر امير المؤمنين بأن يأتوا بها اليه» .

فنادى الغلام وأمره ان يذهب الى معسكر الافشين ويأتي بالفتـاة السبية جهان . فاستمهله ضرغام وقال : «ان اسمها جلنار فهي معروفـة بذلك في هذه الديار» .

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على نار وقد هاجت شجونه وخفق قلبه تطلعا لرؤية حبيبته بعد الفراق الطويل ، وتخيل كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغتة وهي تحسبه في عالم الاموات . وقضى في ذلك دقائق حسبها ساعات حتى عاد الرسول وقال : «ان السبايا أرسلن الى سامرا هذا الصباح» .

فوقع الخبر وقوع الصاعقة على رأس ضرغام ، فسكت وقد عزم في سره ان يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال في المعسكر اخذها عنوة .

فلما أذن المعتصم لهما بالانصراف ، ذهب توا الى فسطاطه ليرى وردان فلم يجده فسأل العبيد عنه فقالوا انهم لم يروه منذ الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث عنه في فسطاطه فلم يجده ولم يجد حماداء وكان يتوقع ان يراهما معا ، فقلق وهو في أشد الحاجة الى وردان . فخرج بنفسه لتفقد جواد جهان حيثما كان في الصباح فلم يجده فأيقن ان الافشين صدق وأنه لا يجرؤ على الكذب على الخليفة ، فرجع الى فسطاطه وكظم ما في نفسه .

- ٢١ -

محاكمة الافشين

كان الافشين قد أمر باخراج السبايا من المعسكر في صباح ذلك اليوم ، وقد حسن له ذلك سامان ، وهو الذي دله على مقر جهان في قصر البطريق وأشار عليه بسبيها ، وكان يتتبع خطاها منذ كان في البذ فعرف بخروجها الى بلاد الروم ونزولها عمورية وكان يفعل ذلك طمعا بما وعده به الافشين من امر الوصية . فلما فتحت عمورية ذهب الى أخته وأظهر لها انه جاء لنجدتها وان الافشين جرد هذه الحملة لانقاذها وأخذ يحسن لها الرضاء به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره

على فرسها قبل وصول ضرغام الى القصر ومعها هيلانة ، وكانت تعزية كبيرة لها وقد تحابتا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها شريدة لا نصير لها • فلما صارتا في معسكر الافشين شق على جهان أسرها وحدثتها نفسها ان تطلب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين ، فأتاها اخوها وحبب اليها السكوت ، وذكر لها انه سيأخذها الى سامرا فتكون هناك كما تشاء • فلما ذكر سامرا تذكرت ضرغاما وفي نفسها بقية أمل بوجوده او معرفة حقيقة حاله من أمه اذا كانت لا تزال على قيد الحياة فوافقته واشترطت ان تكون هيلانة معها فقبل • وكان غرض سامان ان يفر بجهان قبل ان يعلم بها ضرغام ، فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها أسرع الى الافشين وأشار عليه بأن يسرع بارسالهما رأسا الى أشروسنة للاحتفاظ بهما هناك ففعل ، ثم أسرع سامان وأعد الاحمال وحامية تحرسهم في الطريق ورحل خلسة • ولما جاء رسول الخليفة بطلب جهان كان قد مضى على خروجهم بضع ساعات وهم على ظهور الخيل •

أما ضرغام فأصبح لا يدري ما يفعل وقد أدهشه غياب وردان وحماد، وخاف ان يكونا قد أصيبا بسوء وظن ان الافشين أوقعهما في تهلكة •

وبقي الجند في عمورية عدة ايام قضوا بعضها في بيع الغنائم والاسرى وكانت كثيرة ربح تجار اليهود منها ربحا جزيلا • وقضوا اياما بعد ذلك في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من اهلها جمعا كبيرا وسلم ناطس نفسه •

فلما فرغوا من ذلك أمر المعتصم بالرجوع الى سامرا ، وضرغام في قلق لا مزيد عليه ، ورجع مع الراجعين وهو يرجو ان يرى طلبته في سامرا • واتفق له اثناء الرجوع انه رأى في عرض الافق فرسانا لم يقع نظره على خيولهم حتى اختلج قلبه لانه رأى بينها جوادا عرف انه جواد وردان فهمز جواده لملاقاة الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان

وحماد فصاح : «وردان ؟»

قال : «لبيك يا مولاي» . وفي صوته رنة السرور والظفر .

فقال : «اين كنتما فقد قلقت عليكما ؟»

قال وردان : «كنا في سامرا» . قال : «ولماذا ؟»

قال وهو يضحك : «أوصلنا العروسين اليها ورجعنا» . قال ضرغام: «أي عروسين ؟»

قال : «جهان وهيلانة !»

قال : «كيف ذلك قل ؟. قل حالا» .

قال : «رأيتك تصانع الافشين ولا تخاطبه الا على يد الخليفة ، ورأيته يخادعك ويبغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم . والعسر لا يتسع للتفتيش عليهما مرة ثانية . فخطر لي ان أعمد الى القوة على غير علمك لئلا تشير علي بأن أتجنب اسباب الشقاق . وكنت قد علمت ان الافشين يحاول الفرار بهما وقد أمر سامان بذلك ، فاتفقت مع حماد على ان نأخذهما بالقوة ونأخذه معهما ، وقد فعلنا وأوصلنا العروسين الى بيت الصاحب في سامرا وزججنا سامان في السجن حتى نعود» .

ففرح ضرغام في قلبه ولكنه قال : «ألم يكن الاولى ان نبقى على عهد الافشين ، فقد وعدني بين يدي الخليفة ان يعقد لي على جهان حالما نرجع الى سامرا» .

قال : «وهل صدقت انه كان ينوي ارسالها الى سامرا ؟»

فالتفت الى حماد وقال : «وأنت ايها الصديق أرجو ان تكون قد سعدت برؤية ياقوتة ، ولكن لماذا رجعت ؟»

قال : «رجعت لأكون في معيتك وأتم خدمتي لك» .

وكانت الحملة سائرة فرقا وضرغام في فرقة المعتصم ليكون قريبا منه . ولما امسى المساء حطت الاحمال ونزل الناس للراحة والرقاد .

وقص وردان على ضرغام حديث مكايد جديدة يكيدها القوم للمعتصم من قبيل ما كان قد أطلعه عليه وان حياة الخليفة في خطر ولا بد من ابلاغ الخليفة الامر .

فقال حماد : «انا أنقل الخبر الى الخليفة وانما أطلب من ضرغام ان يدخلني عليه في خلوة» .

قال : «قم بنا الان» . وكان الوقت عشاء فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام في خلوة فأذن له ، فدخل ومعه حماد فقال الخليفة: «ما وراءك يا صاحب ؟»

قال : «عند صديقي حماد عبد امير المؤمنين مخبآت مهمة . اذا أذن له كشفها» .

قال : «قل واحذر الانحراف عن الصواب» .

فقص عليه تواطؤ القواد على قتله ومبايعة العباس وسمى المتآمرين وفيهم الشاه ابن اسماعيل الخراساني ، والحارث السمرقندي ، وعجيف ابن عبسة ، وغيرهم ، فاهتم المعتصم بالامر واستقدم المتهمين واستجوبهم فاعترفوا فقتلهم على اساليب مختلفة لا محل لذكرها . واحتفظ بالعباس حتى وصلوا الى سامرا فسقاه اللعين وأخذ اولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا ، وعد المعتصم هذه الخدمة جميلا لضرغام وحماد معا وأنعم عليهما .

أما الافشين فبلغه من بعض رجاله ما صنعه وردان وحماد . فصبر حتى يصل الى سامرا فيشكوهما ويشكو ضرغاما الى الخليفة .

ولما دنت الحملة من سامرا اخذ قلب ضرغام في الخفقان لعلمه انه سيلقى جهان بعد طول الفراق .

* * *

كانت جهان بعد ان خطفها وردان وحمـــاد قد عادت اليها آمالها . وكانت لما رأتهما هاجمين بمن معهما من الرجال لاختطافها قد استعاذت بالله من توالي الاحن عليها وأرادت الدفاع ، ثم سمعت صوت وردان وسمعته ايضا هيلانة زوجته فانحازتا اليه ، ولا تسل عن حال هيلانة لما سمعت صوت زوجها وهي تحسبه بين الاموات فترامت عليه وتبادلا آيات الشوق والحب . فأمر الذين معه بالقبض على سامان قبل ان يفر فقبضوا عليه وشدوا وثاقه ، وتقدم وردان الى جهان فلما رأته قالت : «وردان ؟» قال : «نعم يا سيدتي ابشري بالسلامة واللقاء» .

فصاحت : «اللقاء .. ضرغام .. ضرغام .. اين هو ؟»

قال : «في سلامة وخير ، وسيأتي بعد ايام قليلة . وأنا ذاهب بك الى منزله في سامرا تمكثين مع أمه حتى يصل» .

فظنت نفسها في حلم وتفرست ثانية في وردان وقالت : «وردان . أضرغام حي ؟» . وتذكرت ان سامان اول من أنبأها بموته فالتفتت اليه وقد شد وثاقه الى ظهر الفرس فرأته ينظر اليها بذلة واستعطاف اذ سمع ما دار بينها وبين وردان ، فحولت وجهها عنه ورأ تصديقتها هيلانـــة ملتصقة بوردان يكادان ان يطيرا فرحا فقالت لها : «هل تعرفين وردان قبل الان ؟ »

فقالت هيلانة : «هذا زوجي يا مولاتي !»

قالت : «زوجك البطريق الذي قصصت علي خبره ؟»

قالت : «نعم هو هو .. الحمد لله على لقائه ، ولك الهناء ببلوغك مقر خطيبتك » .

وسألت جهان : «اين ضرغام ؟» . فقال وردان : «انه في عمورية وأنهم سينتظرونه في سامرا» . ومشوا نحو سامرا وكل فرح بما لديه . وقضوا مسافة الطريق يتحدثون بما مر بهم من الغرائب . وقص وردان

على جهان ما حظي به ضرغام عند المعتصم وكيف سماه الصاحب وأسباب ذلك ، وأخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة وما بينهما من الشبه العجيب.

ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بسامان الى صاحب السجن وقال له : «ان الصاحب يأمر بسجن هذا الجاسوس» . وبعث كذلك الــى آفتاب ينبئها بقدوم جهان فكان لالتقائهما دهشة يندر مثالها ، وآفتاب لا تمل لمس جهان وضمها وتقبيلها . أما ياقوتة فكان فرحها بحماد عظيما ، وكانت عالمة ببقائه حيا ولكنها دهشت لما رأت جهان فظنت انها ترى نفسها بمرآة لشدة المشابهة بينهما ولم تكن جهان أقل اندهاشا منها . فلما أتم وردان مهمته عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه .

ومكث اهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام .

وبعد بضعة عشر يوما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنده ظافرا ، فزينت سامرا واصطفت المواكب والجنود ورفعت الاعلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحا ، وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء .

أما جهان فانها لم تكن تسمع صوتا ولا ترى شبحا وانما كانت عيناها شائعتين نحو باب الجوسق لعلها تشاهد ضرغاما داخلا في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم تر احدا .

وفيما هي في لهفتها سمعت سعالا في الدار فارتعدت فرائصها لانه سعال ضرغام فأرادت ان تجري للقائه فلم تسعفها قدماها واحمر وجهها ثم علاه الاصفرار ولكنها تجلدت وتمالكت واستعادت رباطة جأشها ومشت. وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهان تمشي مشية الجلال والوقــار وعيناها تتكلمان كأنهما خطيب على منبر يدعو الناس الى التعبد او الى التفاني في الحب . فانحنى مسلما وبوده ان يكون سلامه معانقة لولا العادة التي تحول دونه . ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسمــا

ابتسامة أغنت عن حديث طويل ثم قال :«مرحبا بعروس فرغانة . لقد أطلت علينا الغياب وطال بنا الطريق ، مع ان طريق المحبين قصير على ما يقولون ! »

فضحكت وقالت : «طال الطريق لوعورته وكثرة عقباته . ولكن ماء السكر كلما زدته غليانا زادك حلاوة» .

قال : «لكني خشيت أن يجف ماؤه فيحترق» .

قالت : «أوشك ان يحترق لو لم أرطبه بدموعي !» . قالت ذلك وأبرقت عيناها وتلألأت فيهما دمعتان ونظرت اليه نظرة وقعت كالسهم في قلبه فقال لها وقد اخذ الهيام منه مأخذا عظيما : «أبمثل هذه الدموع كنت تنفين الاحتراق ؟»

قالت : «نعم ولكن شتان بين دموع الفرح ، وأشكر الله على كل حال » .

وكانت يدها لا تزال في يده ، فضغط عليها وقادها الى مقعد هناك وهو يحدق في عينيها ويقول : «اراك تشكرين الله وعهدي بك تشكرين أورمزد فمتى حدث هذا التغيير ؟»

فقالت وهي تمشي معه حتى جلسا متحاذيين وقد نسيا الوجود : «حدث يوم تبدلت حالي وشغل فؤادي فأصبحت لا أملك شعوري ولا ارى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام . ولا آسف الا على زمن غلب فيه اليأس على قلبي ، يوم بعثت اخي سامان وغيره للبحث عن ضرغام في سامرا فعادوا وقالوا : (غير موجود) . وزاد بعضهم انه ليس على الارض. تبا لتلك الساعة كم أحدثت وكم غيرت . ولكني نسيت كل ذلك الان ، ولا أعلم الا اني أسعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة . كنت يومئذ سعيدة عن جهل لاني لم أجرب الشقاء ، وكنت أتلذذ بقربك مندفعة بتيار الحب وأنا لا أعرف اللقاء ، وأما اليوم فقد عرفت ان السعادة يزيد

مقدارها كلما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها . لو عرفت ذلك يوم اجتماعنا في فرغانة لفضلت ان أجاهد في سبيل حبك قبل الوصول الى قربك» . قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام ونسيت رباطة جأشها وكبر نفسها وهو ينظر اليها وقد شغل بمعاني وجهها وسحر عينيها عن تفهم كلامها ، ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو اليها كأنها لا تزال تخاطبه.

ثم انتبه لنفسه وخجل من سهوه ونسي ما كانا فيه فقال : «كم أحب ان أسمع ما قاسيته اثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكني ألتذ ان أسمعه من فيك . ولا ريب عندي انك تحبين الاطلاع على خبري والحديثان طويلان سنتبادلهما في فرصة اخرى . ولو بقيت بجانبك الدهر كله لا آرتوي من النظر اليك يا جنتي وحياتي ، وصدقت ان الحب تزداد لذته كلما زاد التعب في سبيله ولم اكن آحسب حبنا يقبل الزيادة وحاشا ان يقبلها ولكنه يزداد بالتعب حلاوة وصفاء» .

فوقفت وهي تقول : «صدقت ان تلذذنا باللقاء لا نهاية له فينبغي ان ننظر الى الآخرين . هل رأيت أمك ؟» . قال : «لم أرها بعد» .

قالت : «هنيئا لك هذه الأم الحنون ، وكم هي في شوق الى لمسك وشمك » .

وخرجت معه الى الدار وفيها أمه فشعرت بهما فقبل ضرغام يدها وهمت هي به ضما وتقبيلا . وكانت ياقوتة واقفة هناك فقالت جهان لضرغام : «آلم تكن تستأنس برؤية ياقوتة اثناء غيابي ؟»

قال : «ربما استأنست حينا وغصصت بريقي احيانا ، وان هذا الشبه بينكما دلني عليك وسأقص عليك خبره» .

قضوا في أمثال هذه الاحاديث ساعات . وأعد الطعام فجلسوا اليه فقالت آفتاب لابنها : «قد آن يا ضرغام ان تعقد قرانك» .

فقال : «صدقت يا أماه ، غدا ان شاء الله» .

وفيما هم في ذلك جاء احد غلمان القصر يدعو ضرغاما الى مقابلة الخليفة ، فلبس قلنسوته وسواده وخرج . فلما دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الأشروسنية فعلم ان الافشين هناك ، ثم دخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في صدر الايوان والافشين على كرسي بين يديه ، ورأى وردان وحمادا واقفين بجانب القاعة . فسلم فأشار اليه المعتصم ان يجلس فتباطأ وقال : «يأذن لي امير المؤمنين بكلمة قبل ان أجلس» . قال : «قل» .

قال وهو يشير الى وردان : «أقدم لأمير المؤمنين البطريق وردان احد كبار بطارقة أرمينيا ، وقد أبلى في جيشنا بلاء حسنا في البذ وعمورية» .

فاستغرب المعتصم والافشين كلامه وقال الخليفة : «أليس هذا خادمك وردان ؟»

قال : «كنت اتخذته خادما وأنا لا أعرف اصله ، فلما بلوته عرفت فيه الرجل الكريم ، وقد كانت له عندي أياد بيضاء عادت بالنفع على جند المسلمين ، فاذا آمر امير المؤمنين بجلوسه فعل وهو صاحب الامر» .

فقال : «ولكنه في مجلس القضاء وقد دعوتك لتؤدي الشهادة» .

قال : «أفعل ذلك طوعا لأمير المؤمنين» . وجلس وأصغى .

فقال المعتصم : «يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحمادا تعديا على رجاله واختطفا منهم امرأتين من سبيه بعد ان كنا قد أرجأنا النظر في ذلك حتى رجوعنا الى سامرا» .

قال ضرغام : «نعم فعلا ذلك يا امير المؤمنين ، واذا رأى مولاي في هذا ذنبا فأنا صاحبه لانهما فعلاه لاجلي وعلي تبعته ومهما يكن من أمر فان حمادا هذا (وأشار اليه) قد شمله عفو امير المؤمنين وقد جاء سامرا لينال ما وعده به مولانا فلا يؤخذ بجريرة سواه» .

فحك المعتصم جبينه كأنه يسترجع الى ذهنه شيئا نسيـــه وقال : «صدقت ان حمادا ذو فضل وسابقة وسنوليه ما هو اهل له فيخرج الان اذا شاء» .

فسلم حماد وخرج ، وبقي وردان وضرغام والافشين ، فقال الخليفة: «انك قلت عن وردان ما هو اهله ، ولكنه خالف امرا اصدرناه بشـأن السبيتين ، فقد قلنا ونحن في عمورية ان يترك امرهما حتى رجوعنا الى سامرا ، فكان ينبغي ان يراعي هذا الامر . فليؤتـــــي بالسبيتين الان الى هنا » .

فقال ضرغام : «ان السبيتين هما خطيبتي وزوجته (وأشار الـــى وردان) . اما خطيبتي فقد سبق امر الخليفة ان تكون زوجتي وهي في منزلي ، وأما امرآة البطريق فهي عندي ايضا ولا اظن الافشين يهمـه امرها » .

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه : «يهمني اولا ان يراعي امر امير المؤمنين في الاثنتين . وأما جهان التي تقول انها خطيبتك فلها شأن خاص لاني ولي امرها بوصية ابيها» .

فعند ذلك تقدم وردان واستأذن في الكلام . ووجه خطابه الـــى الخليفة وقال : «هل ثبت لامير المؤمنين انه وصي ؟»

فانتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال : «ايــن كتاب الوصية ؟»

فقال الافشين : «هو عندي . وهل انا كاذب ؟»

فقال المعتصم : «الشرع يقضي بالاطلاع عليه قبل اصدار الحكم ، وهل يهمك كتمانه ؟»

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة ، وتغاضب وقال: «اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا ويصدق العلج فعلى

الدنيا السلام !»

فقال وردان : «اني لا أنكر وصايته ولكنني ارى ان يطلع عليها امير المؤمنين على نصها ليعرف من هو صاحب أشروسنة» .

فاستشاط الافشين غضبا وكأنه نسي موقفه فقال : «ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة امير المؤمنين ، وهب ان الوصية ضاعت او سرقت او احترقت فهل يؤخذ ضياعها حجة علـــي فأعد كاذبا . والرجل يقول انه لا ينكر الوصاية فما الفائدة من نصها ؟»

فقال وردان : «لا تغضب ايها القائد اننا في موقف القضاء بحضرة امير المؤمنين والقضاء يطلب اليك ان تتلو نص الوصية» .

فازداد الافشين غيظا وقال : «قد ضاعت الوصية ولا أذكر نصها» .

قال وردان : «انا أذكره ، هل آتلو بعضها على مسامع امير المؤمنين» .

قال المعتصم : «اتل ما شئت» .

فقال : «يكفي امير المؤمنين ان الوصية مصدرة باسم أورمزد معبود المجوس من دون الله تعالى ، وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بـــدل القاضي الشرعي ، أليس كذلك يا قائد جند المسلمين ؟»

فهاج غضب الافشين وأدرك ان الرجل ينوي اذلاله وفضح امره ، وقدم على ما فرط من تعنته ولكنه تجلد وقال : «وأين هو وجه الطعن فيها ؟ ان الموصي مجوسي فكتبها على ما يقتضيه دينه وعادات بلاده . كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية . انها لوقاحة كبرى !»

فوجه وردان كلامه الى المعتصم وقال : «هل يأذن امير المؤمنين ان اقول ما أعرفه ؟»

قال : «انك في موقف الدفاع عن نفسك ، قل ما بدا لك» .

فقال للافشين : «لا أتهمك بالمجوسية اتهاما . ولكنني اقول انـــك مجوسي تسجد لأورمزد حتى الان . وأقول فوق ذلك انك تتظاهـــر

بالدفاع عن الاسلام وأنت انما تفعل ذلك طمعا في المال • ولو استطعت سحق دولة المسلمين لسحقتها وهذا بيت النار في فرغانة شاهـــــد على ذلك » •

فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة أوسع من ان يقضي فيها في تلك الجلسة فأحب ارجاء نظرها فقال : «ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس فانما نبحث الان في اختطاف السبيتين» •

فقال ضرغام : «قلت لامير المؤمنين ان الذنب في ذلك ذنبي انا ؛ لان احداهما خطيبتي وهي في منزلي الان» •

فقطع الخليفة كلامه وقال : «نحن لا نعترض على زواجك بها وانما نؤاخذ وردان على اختطافها» •

فقال وردان : «انما اختطفتها لعلمي ان مولانا الافشين آمـــــر بارسالها الى بلده أشروسنة لتضاف الى خزائن الاموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من أموال المسلمين ليستعين بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة ! »

فنظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيته ترقص في صدره ، ولو جس يده لرآها باردة كالثلج ترتعش فقال له : «ان هذه التهم كبيرة ، وأراك لا تدفعها» •

فقال الافشين : «كلها مفتريات كاذبة . وموعدنا غدا فيظهر الحق من الباطل » •

فقال وردان : «لا بأس من التاجيل الى الغد او بعده ، ولكن مـــن يضمن لمجلس القضاء ان المتهم يبقى في سامرا الى الغد» •

فقال المعتصم : «يبقى هنا في الجوسق» • وأشار الى صاحب حرسه ان يأخذ سلاح الافشين وسواده ، ويتولى حراسته • فنهض الافشين وقد سقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحا وهو يتوعد

ويتهـدد .

وبعد خروج الافشين اشار المعتصم فخرج وردان واستبقى الصاحب، فلما خلا اليه ، تنهد وقال : «تبا لهؤلاء المجوس انهم يشاركونا في ملكنا ويخدعوننا في امرنا . ولكن الله أعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم . ماذا رأيت يا صاحب ؟»

قال : «ان امير المؤمنين يعرف ما انطوى عليه هؤلاء القوم ، وكم شكا منهم ومن مكرهم السيء» .

قال : «ان ما اشار اليه صاحبك وردان لم يخـف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تأتينا وفيها الشكوى من كثرة الاموال التـي يرسلها الافشين الى بلده ونحن صابرون . وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالمجوسية وعبادة الاصنام وبالتواطؤ مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنـا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما . وقد بعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطأ معه على الغدر بنا . والمرزبان احد ملوك السغد ؛ وموبذا مجوسيا ؛ واثنين من المسلمين كان الافشين قد عذبهما لانهما بنيا مسجدا في أشروسنة . وسأعقد مجلسا يحضره هؤلاء نفضح به مـا استتر ونجزي كل فاعل بما فعل . اما انت فلك عروسك تهنأ بها ، ولا بأس على وردان فهو حر وسنجعله من خاصتنا . وعلى الباغي تـدور الدوائر» . فدعا له وخرج .

عقد المعتصم في اليوم التالي مجلسا حضره كل من القاضي احمد بن داؤد ؛ والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وغيرهما من الاعيان . ودعا الصاحب ووردان فحضرا . ثم أمر بالأفشين فأخرج من محبسه وجيء به الى المجلس ؛ وتولى ابن الزيات اتهامه بعد ان أحضر الشهود المشار اليهم . فجيء اولا بالرجلين المضروبين وكشف عن ظهريهما وهما عاريان

من اللحم وقال للأفشين : «أتعرف هذين ؟»

قال : «نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجدا بأشروسنة فضربت كل واحد منهما الف سوط لان بيني وبين ملك السعد عهدا بأن اترك كل قوم على دينهم . فوثب هذان على بيت نار في أشروسنة كان فيه أصنام فأخرجاها وجعلا مكانها مسجدا فضربتهما على هذا» .

قال ابن الزيات : «ما كتاب عندك حليته بالذهب والجوهر وفيه الكفر ؟ »

قال : «هو كتاب ورثه عن ابي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت آخذ الادب وأترك الكفر ، ووجدته محلي فأبقيته . وما اظن هذا يخرج من الاسلام» .

ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين : «ان هذا يأكل لحم المخنوفه ويحملني على أكلها ويزعم انها أرطب من المذبوحة . وقال لي يوما : (قد دخلت لهؤلاء القوم ــ المسلمين ــ في كل شيء أكرهه حتى أكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم اختتن) » . فاعترض الافشين على كلام الموبذ بأنه غير ثقة . فرد ابن الزيات عليه . ثم تقدم ابن الزيات وقال مخاطبا الافشين : «كيف يكتب اهل بلدك اليه ؟» . قال : «لا اقول» .

قال : «ألا يكتبون اليك بلغتهم ما معناه انك اله الآلهة ؟» . قال : « بلى » .

فقال ابن الزيات : «ان المسلمين لا يطيقون هذا فما ابقيت لفرعون ؟»

قال : «هذه كانت عادتهم لابي وجدي ولي ايضا قبل ان أدخل في الاسلام فكرهت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم» .

ثم تقدم المازيار : فقال ابن الزيات للافشين : «هل كاتبت هذا ؟» .

قال : «لا» .

قال المازيار : «كتب اخوه لأخي باسمه انه لم ينصر هذا الدين غير بابك ، ولكن بابك قتل نفسه ، وجهدت ان أصرف عنه الموت فأبى الا ان أوقعه ، فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة : العرب والمغاربة والاتراك . والعربي بمنزلة الكلب أطرح له كسرة واضرب رأسه. والمغاربة أكلة رأس ، والاتراك ما هي الا ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيول عليهم فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم) » .

فقال الافشين : «انه يدعي ان اخي كتب الى اخيه . فما ذنبي انا؟»

فنقدم وردان عند ذلك وقال : «تزعم ان اخاك كب ولا نبعة عليك؛ فما قولك فيمن رآك رأي العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك . وقد تواطأتم على محق دولة المسلمين وتعهدت ان تجمع المال الكافي لذلك العمل» .

فأعرض الافشين بوجهه عنه وقال : «هذا خصم يكذب تأييدا لخصومته» .

قال : «وان اتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصية وسمعته يقول مثل قولي ؟» . فقال المعتصم : «سنرسل في طلبه» .

فقال وردان : «واذا بعث امير المؤمنين الآن من يدخل بيت الافشين في سامرا وجد احد التماثيل المجوسية» .

فقال ابن الزيات : «قد اتينا بها بالامس» . وأمر غلاما أحضرها واذا هي تمثال من خشب عليه حلية كثيرة الجوهر وفي أذنه حجران مشتبكان عليهما ذهب وأصنام اخرى وكتاب من كتب المجوس وغيره . فارتج على الافشين وسكت ، فأمر المعتصم بارجاعه الى الحبس وأن يقطع عنه الطعام والشراب فقطعوهما حتى مات سنة ٢٢٦ هـ.

وخلا ضرغام بالمعتصم بعد ايام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على جهان فأمر بالغائها ورد المال الى صاحبته • وبعث الى فرغانة فأمر بهدم بيت النار كارشان شاه ، وأمر ان يكون حماد ووردان من خاصته وأن يقيما في قصرين داخل الجوسق مثل ضرغام ، وأمر بعقد كتاب ضرغام على جهان ، وأعطاهم عطاءات شتى •

- ٢٢ -

نسب ضرغام

بقي سامان في السجن لا يكترث له احد الا وردان فقد كان يتردد عليه من حين الى اخر ويسأله عن حاله تهكما وتشفيا • وكان ضرغام في شاغل عنه حتى اذا فرغوا من امر الافشين أحب ان يطلق سراح سامان كرما وفضلا فقال وردان : «اذا اطلقته فكأنك سجنتني مكانه ، ويهمني ان أسأله عن اشياء وأسمع جوابه عنها لاني رأيت منه أمورا لا تصدر عن البشر » •

فقال : «نسأل جهان عن رأيها في ذلك» • قال : «افعل» •

فذهب الى جهان وسألها فقالت : «لا ادري . وليتك لم تسألني عنه لاني احب ان انساه» •

قال : «هو في السجن الان فما الذي تريدين ان نفعل به ؟»

فأطرقت حينا ثم قالت : «احب ان تطلق سراحه . ولكنني في شوق الى سر لا يزال مكتوما عني • اريد ان أعرف سبب غضب ابي عليه» •

فتذكر سرا آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبه فعزم ان يسأل أمه عنه بعد الفراغ من سر سامان •

وأمر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة كان فيها هو وأمه وجهان وياقوتة وحماد وورذان وهيلانة •

ودخل سامان دخول غريب تنبحه الكلاب ، ووقف وقوف مجـرم يخاف العقاب ، وقد شوهت خلقته كأنما طبعت على صحيفتها نقائصه • وكان رث السربال زاده الهزال ذلا ؛ حتى اذا توسط الدار وقف محني العنق يجول ببصره في الجالسين فلما رأى ياقوتة دهش وأخذته البغتة. فالتفت الى جهان وأجهش فسبقته الى البكاء وقد عز عليها ان تراه واقفا هذا الموقف رغم ما ارتكبه معها من السيئات • ولم يبق احد مـن الحاضرين الا رق له ، الا وردان فانه لم تأخذه به شفقة وكان هو اول المتكلمين فقال : «لا تخف يا سامان لم ندعك لنحاكمك على جريمة من جرائمك فانها لا تفتقر الى محاكمة ولا نعرف عقابا يفي بها ، ولكننـي رأيت في سيرتك ما أدهشني من تقلبك في الايذاء فبينما انت ناقم على الافشين لانه حرمك من الميراث اذا بك تستعين عليه بالصاحب ثـم تستعين علي هذا بذاك ثم بذاك على هذا . وآغرب شيء انك غـدرت بأختك هذه وهي كالملائكة خلقا وخلقا وأغريت بها أفسق اهـل الارض وهي مخطوبة وقد وثقت بك واتكلت عليك في الفرار الـى خطيبها • فرضيت ان تؤخذ غدرا وتحمل قسرا الى ذاك اللعين زعيم اهل الفحشاء. ولم تكن لتنال على عملك جزاء افضل مما قد تناله لو جئت بها الـى سامرا • ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزي ، وبعد ان كنت نصيره خنته وبحت بأسرار حصونه الى عدوه ، وواطأت الافشين على أختـك وعلى خطيبها • اني عرفت في الناس أشرارا كثيرين يرتكبون افظع مما ارتكبته في سبيل غرض يعرفونه ويعرفه الناس فما عرفنا لك غرضا» •

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يصطنع الاطـــراق وعيناه لا تتحولان عن ياقوتة وان كان ذلك لم يظهر عليه لحوله . فلما أتم وردان كلامه اجابه سامان قائلا : «تسألني عن اسباب لست أعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس عنها الا طرفا منها ، ولو سئلت عـــن اسبابها ، او عن سبب احدها ، لم استطع جوابا ، وانما أعرف اني كنت أرتكب الخطأ ثم أبادر الى اصلاحه بخطأ افظع منه ، فكانت اعمالـــي سلسلة هفوات والعبرة بالهفوة الاولى» . قال ذلك وتغير وجهه وغص بريقه وتململ فابتدره وردان قائلا : «ما هي تلك الهفوة ؟»

فحول بصره الى ياقوتة وأطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ، ثـــم انتقلت الرعشة الى أطرافه حتى اصطكت ركبتاه وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك فقال له : «اجلس يا سامان وتكلم» . وقد استغربوا تغيره وتحديقه في ياقوتة حتى تولاها الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثيا وجعل رأسه بين كفيه وأخذ في البكاء بصوت عال يتخلله شهيق كثير حتى كاد يختنق ، فأنكر القوم بكاءه لاول وهلة وظنوه يحتال ، فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى بعض . واذا به نهض بغتة وترامى عند قدمي ياقوتة وأجهش في البكاء فدهش القوم ولاسيما حماد ووثب اليه ليرجعه عن امرأته فلم يطعه فقال له : «ماذا اعتراك يا سامان ، يسألونك عن جريمتك الاولى فلماذا لا تجيب !»

فصرخ قائلا وهو يشير الى ياقوتة : «هنا غلطتي الاولى . هـــذه هي !» . وعاد الى البكاء ، فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ، ولاسيما جهان فقالت: «قل يا سامان فقد حيرتنا . ما خطبك؟ وما لك وياقوتة؟ بك؟»

قال : «هذه هي غلطتي نفسها . وما هي ياقوتة وانما هي شهرزاد» .

فلما قال ذلك صاحت آفتاب أم ضرغام : «شهرزاد ؟ نعم هـــي شهرزاد !» . وكانت جالسة بالقرب منها فضمتها الى صدرها وقالت :

«قد تنسمت ريحك منذ لمستك للمرة الاولى» • ثم صاحت : «جهـــان حبيبتي ألا تعرفين شهرزاد ؟»

فبغتت جهان وأعملت فكرتها وقالت : «لا أعرف فتاة بهذا الاسم الا أختا لي ماتت طفلة قبل ان أولد» •

فقالت آفتاب : «هذه هي أختك لم تمت بل كانت قد فقدت • وانما قالوا ذلك تلطفا وتسترا ولم يكن يعرف هذا السر الا انا وأبوك وسامان هذا . وكان ضياعها على يده فانه كان قد خرج بشهرزاد الى البساتين وهي طفلة لا تكاد تستطيع المشي • فلما عاد سأله ابوك عنها فبكا وزعم ان فرسا من أفراس النخاسين اختطفها منه ـ لان في تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعودونها خطف الاطفال بأسنانها فيلتقط الفـــرس الطفل بأسنانه ويطير به الى منزل صاحبه ـ ولم يصدق والدك ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين وأشاعوا انها ماتت !»

وكانت آفتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير • فلما فرغت اكبت جهان على ياقوتة وضمتها وطفقت تقبلها وياقوتة آشد فرحا من الجميع ، لانها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هـــي بنت المرزبان • فقبلت اختها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون : «لم تكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبث» • وأخذوا يتساءلون وهم يحسبـــون انفسهم في حلم فقالت جهان : «يا سامان . قل كيف آخذت شهرزاد منـــك ؟ »

فأجابها وهو يمسح دموعه : «انتبهت لوجودي وأنا في نحـــــو العاشرة من العمر . وأختك هذه في نحو الرابعة ، ورأيت أبوينا يحبانها كثيرا ويدللانها ويهملانني فدب الحسد في قلبي فصرت أظهر الكره لأختي وهما يزيداني حسدا بتمييزها عني بالهدايا والنقود . وكنت اذا طلبت نقودا من ابي لم يعطني وأنا ارى النقود مع أختي او حاضنتها ، وسمعت

ذات يوم أناسا يطوفون البلاد يشترون الاطفال فغافلت الحاضنة وأخذت شهرزاد الى البساتين فرأيتهم مارين فبعتها لهم بدينارين وعدت وساروا هم في طريقهم . ولما سئلت عنها قلت انها خطفت مني فلم يصدق ابي . وعرف بعد ذلك اني بعتها وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهني من ذلك الحين وهددني بالحرمان من ماله فصرت ارى كل الناس اعدائي، وتوهمت ان كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايتي او أذيتي ، فأصبحت ولا هم لي الا كسب المال لاستعين به عليهم . وأول سعي بذلته في هذا السبيل اني حاولت منع ابي من كتابة الوصية ففشلت ، فأردت اصلاح هذا الفشل فوقعت في فشل اخر . وهكذا كما تعلمون . ولم ادرك هذه الحقيقة الا وأنا في السجن منذ يومين» . قال ذلك وتنفس الصعداء ، ثم عاد الى اتمام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعا وبدت الرعدة في أطرافه والاضطراب في عينيه وقال : «وقد تأخذكم الشفقة علي بعد ما بسطته لكم فاعلموا اني لا ألتمس عفوكم لان من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز ان تنتهي بغير القتل» . قال ذلك واستل من جيبه خنجرا طعن به صدره فسقط يتخبط بدمه !

ضج الحضور وابتعد النساء عن هذا المنظر . وقد اسفوا على موت سامان بعد ان أيقنوا انه تاب ، فترحموا عليه وأمروا بدفنه وكانت جهان اكثرهم حزنا عليه .

اصبحت روابط القرابة والنسب الجديدة بين جهان وياقوتة حديث الناس ، واقتسما ميراث ابيهما ، وأصبح حماد وضرغام نسيبين وقد نالا حظوة في عيني المعتصم وتم لهما ما يريدان . على ان ضرغاما بقي في خاطره شيء يحب الاطلاع عليه فخلا الى أمه يوما وقال لها : «ألم يئن الوقت لكشف حقيقة نسبي ؟ ما الذي تنتظرينه بعد الذي رأيته من نعم المولى علي ؟»

قالت : «لا أنتظر شيئا ولكنك مع ذلك لم تنل ما انت اهل له» .

فقال : «تعنين ان ابي كان أعز جانبا وأرفـــــع مقاما مني ؟» .

قالت : «نعم» .

قال : «فهو اذن من كبار القواد او الوزراء ، واذا صح ذلك فلا يعقل ان يكون خبره مكتوما عن الناس» .

قالت : «انه فوق ما ذكرت» .

فبهت ثم قال : «لم يبق الا ان يكون من أشراف قريش او بني هاشم او بني ابي طالب» .

قالت : «انه أخص من ذلك كثيرا» .

فأطرق وفكر فيما تعنيه أمه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهم بأن يسألها عن ذلك فخجل وأمسك وظل ساكتا وهي تنتظر سؤاله فلمـا استبطأته قالت : «لماذا لا تتم اسئلتك يا ضرغام ؟»

قال : «يخجلني ان اقول ما في خاطري» .

قالت : «لا تخجل ان تسأل اذا كان ابوك خليفة فانه كذلك !»

فأجفل وقال : «ابي خليفة ؟ كيف يكن ذلك . ان المعتصم يضارعني سنا فلا يمكن ان يكون هو المراد ، وكذلك المأمون والامين» .

قالت : «ان هؤلاء اخوتك» .

فقال وقد اخذته الدهشة : «فأنا اذن ابن الرشيد ؟!»

قالت : «نعم يا بني وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مـرور الاعوام الطويلة» .

قال : «أليس في الدنيا احد سواك يعرفها ؟» . قالت : «كلا» .

قال : «وما معنى كتمانها كل هذا الزمن والناس يفاخرون بالانتماء الى أتباع الخلفاء فكيف بالخلفاء انفسهم ؟»

قالت : «لذلك سبب معقول هو اني كنت من جواري الرشيد في

قصره ببغداد وكان يحبني حتى كانت الليلة التي فتك فيها بأخته العباسة وبجعفر البرمكي وابنيهما الحسن والحسين • وقد بالغ في التكتم حتى قتل كل من استخدمه لذاك الغرض فلم يكن احد من اهل القصر يجسر على الخروج من حجرته مع انهم مطلعون على كل شيء من بعيد ، الا انا فقد حدثتني نفسي لصغر سني يومئذ ان أخرج لأرى وأسمع ؛ فوقفت موقفا ظننت نفسي مختبئة فيه لا يراني احد ، فسمعت حديث الرشيد رحمه الله مع زوجته زبيدة بشأن أخته وأشياء اخرى • وفيما انا في ذلك رأيت زبيدة نفسها مقبلة نحوي وهي تقول : (يا هرون ان جواريك يسمعن حديثنا !) • فوقع الرعب في قلبي وأيقنت اني مقتولة لا محالة فلم تعد ركبتاي تحملانني من الرعشة ثم سمعت الرشيد يرعد بصوته من الغضب ويقول : (من هذا ؟) وأمر مسرورا فحملني اليه فلما رآني أظهر الاسف علي لان قتلي لا مناص منه • فلما رأى دموعي رفق بي ولكنه كان شديدا فأطرق لحظة ثم قال : (يا حبيبة ــ وهذا كان اسمي عنده ــ قد سعيت الى حتفك بظلفك) •

«فتراميت عند قدميه وبكيت وغسلت رجليه بدموعي ، وكنت يومئذ حاملا فقلت : (اشفق على صباي بل اشفق على هذا الجنين) •

«فوجم وتراجع ثم قال : (أعفو عن حياتك • ولكنني لا أقدر ان اراك ولا أسمع اسمك) • ونادى مسرورا فأتى فأمره ان يجهزني بالمال ويدبر نقلي الى البلد الذي أختاره ، فاخترت فرغانة لاني كنت اعرفها من قبل •

«وصرفني فخرجت مع مسرور في الليل الدامس الى خارج بغداد وقد أعد لي الاحمال وأوصى المكاري بي ودفع الي مالا وجواهر تكفيني أعواما وودعني • فقضيت في الطريق مدة طويلة ولدتك في اثنائها • وأخيرا وصلت الى فرغانة وعرفت المرزبان وعائلته ، وطلبني اناس للزواج فأبيت وانقطعت الى تربيتك وأنا كاتمة سرك ، وأنت تطلب المجيء الى

العراق ، وأنا أخالفك . ولما مات الرشيد ، وماتت زبيدة هان علـــي المجيء ورضيت بسفرك الى العراق» .

فلما فرغت آفتاب من كلامها قال لها ضرغام : «فأنا اذن أخـــو المعتصم ؟ »

قالت : «نعم انك اخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريبا» .

فهز رأسه هزة الانكار وقال : «كلا ، ان هذا السر يجب ان يبقى مكتوما بيننا لئلا يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الي حذر وكيد . يكفيني اني عرفت حقيقة نسبي . ولا ارى فائدة من كشفه لان الناس لا يصدقوننا . ونحمد الله اننا نلنا من النعم والرتب فوق ما كنا نتمناه».

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان



١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين